التّفسير الجامع

فضيلة الشّيخ الدّكتور محمّد عبد السّتّار السّيّد

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

القرآن الكريم معجزةٌ خالدةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وعطاؤه متجدّدٌ لا ينفد، وكلّما تطوّر العقل البشريّ استطاع أن يستمدّ من القرآن الكريم وعلومه ما يوافق التّطوّر العلميّ الّذي وصل إليه.

وآيات القرآن الكريم مكتنزة بعطائها العلميّ والفكريّ والرّوحيّ، وهو كتاب هدايةٍ فيه إشاراتٌ علميّةٌ لا يمكن أن تُصادم العقل البشريّ في أيّ زمنٍ من الأزمان.

وهذا التّفسير هو محاولة تدبّرٍ لآيات كتاب الله امتثالاً لأمره سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمّد]، متمسّكين بهدي نبيّنا محمّد ﷺ، فهو الّذي عليه نزل وبه أخذ وعمِل، فقد كان ﷺ قرآناً يمشي بين النّاس في نهجه وسيرته وسلوكه وهديه وأقواله وأفعاله وبالعلم الّذي به أمر ﷺ.

فكان هذا التّفسير الجامع محاولةً عصريّةً للأخذ من عطاء القرآن الّذي لم يفرغ في زمن النّزول، وإنّما تعدّى كلّ العصور، ومواكبةً لتطوّر العقل البشريّ ومعطيات العلم الحديث في فهم النّصّ من خلال التّفكّر والتّعقّل والتّدبّر الّذي أمر به القرآن الكريم: (أفلا يعقلون، أفلا يتفكّرون، أفلا يتدبّرون، أفلا ينظرون).

والله وليّ التّوفيق

الشّيخ الدكتور محمّد عبد السّتّار السيّد

الجُزءُ الثّاني

سورة البقرة

من الآية (١٤٢-٢٥٢)

(الآية ١٤٢) - ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾:

تتحدّث هذه الآيات والتي بعدها عن نسخ حكم وهو التّوجّه لبيت المقدس في الصّلاة بحكم جديد، وهو التّوجّه إلى الكعبة المشرّفة؛ وذلك أنّه عندما فُرِضَت الصّلاة أُمر النّبيّ ﷺ أن يتوجّه إلى بيت المقدس، وبعد مرور سبعة عشر شهراً أو أقلّ كما ذُكِرَ في بعض الرّوايات تمّ تحويل القبلة، ومن ثمّ التّوجّه إلى الكعبة المشرّفة.

وهذا التّحوّل في القبلة أثار عاصفة وجدلاً كبيراً؛ وشكّك اليهود والمشركون والمنافقون بهذا الدّين، وأصبحوا يتساءلون هل ذهب ثواب صلاتكم الأولى؟ وما شأن من صلّى فيكم جهة بيت المقدس ومات قبل أن تتحوّل القبلة؟ فكانت الرّدود هنا أنّ الله سبحانه وتعالى نسخ الحكم.

كيف بدأ الله الحديث عن تحويل القبلة؟!

عندما نريد أن نبيّن إعجاز القرآن الكريم نقول: لو أنّه من عند غير الله؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النّساء: من الآية ٨٢]، فالكلام عن تحويل القبلة لو كان من عند بشر، ولم يكن من عند ربّ البشر، فإنّه لا يمكن على الإطلاق أن يأتي بهذه الطّريقة، ولا يمكن لبشر أن يتحدّث عن ردود الفعل قبل وقوع الفعل.

﴿سَيَقُولُ﴾: السّين حرف استقبال يُشير إلى أنّه لم يتمّ تحويل القبلة بعد، ولو كان القرآن من عند غير الله لكانت الآية: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي

﴿ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ [البقرة: من الآية ١٤٤]، جاءت قبل قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، فالله ﷻ يأتي بالأشياء المعجزة ويُخبر بها قبل حدوثها.

﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: السّفيه: من لديه ضعف في العقل.

﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾: الله ﷻ يعلم ما سيقولونه عند تحويل القبلة، فأخبر رسوله ﷺ به بقرآنٍ يُتلى، فلو أنّهم لم يقولوا في تحويل القبلة شيئاً لكان ذلك تشكيكاً في القرآن الكريم، ولكنّهم سيتكلّمون كما أخبر الله تبارك وتعالى عنهم بأنّه سيكون، فعلمُ الله ﷻ كاشف.

والجواب على تساؤلهم ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾، هو: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾: الله ﷻ لا يحدّه زمان ولا مكان، لا نقول عن الله: أين وكيف، ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: من الآية ٤]، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، تجلّيات الله ﷻ في كلّ الأمكنة والاتّجاهات، عندما تريد أن تنضبط في عبادة ما، فالله ﷻ يحدّد لك المسلك والمنسك.

المنسك طريق العبادة فإن حدّده الله بهذا الاتّجاه اتّجهت إليه، أنت لا تتّجه للكعبة المشرّفة أو للمسجد الأقصى لقدسيّتهما فقط، فقدسيّة الكعبة أو المسجد الأقصى تأتي من أنَّ الله ﷻ أمر بالتّوجّه إليهما، ولو لم يأمر بالتّوجّه إليهما لكانا بنياناً وأحجاراً كسائر البنيان.

قبّل عمر بن الخطّاب ﵁ الحجر الأسود وقال: "والله لولا أنّي رأيت

رسول الله يقبّلك ما قبّلتك"، فهو حجر لا يضرّ ولا ينفع. في مناسك الحجّ سنّ لنا رسول الله ﷺ تقبيل حجر (وهو الحجر الأسود)، وأمرنا برجم حجر (الجمرات) في منى، ما قيمة الحجر؟ هل هي عبادة حجريّة! أم أنّ المقصود من الحجر الرّمز؟ فأنت تطيع لعلّة الأمر والطّاعة، ولو أنّك تطيع الله للعلّة فأنت لا تتعبّد الله، مثال ذلك لو قيل لك: لا تتناول الحلوى (وأنت مُصاب بمرض السّكّر) وأنت تعلم أنّها ستضرّك، أو لا تشرب الخمر؛ لأنّ الخمر يضرّ، أو لا تأكل لحم الخنزير؛ لاحتوائه على بيوض الدّودة الوحيدة.. فإن أنت امتثلت الأمر؛ لأنّ هذه الأشياء مضرّة، فامتثالك عندها لا يكون عبادة. أمّا العبادة فأن تمتثل الأمر دون أن تعرف العلّة، فعندها يكون الإيمان والطّاعة، لذلك كشف الله جانباً من الحكمة في أشياء وأخفاها في أشياء كثيرة حتّى تكون الطّاعة خالصة لله سبحانه وتعالى.

عندما فرض الله سبحانه وتعالى صلاة الفجر ركعتين، لمَ لَمْ يفرضها ثلاثة؟! والطّواف حول الكعبة سبعاً، لِمَ لم يكن ثمانية؟! وقبِّل هذا الحجر وارجم هذا الحجر.. هنا عندما تطبّق وتلتزم فأنت تطيع آمر الأمر. كذلك عندما أمر الله الملائكة بالسّجود لآدم بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]، سجدت الملائكة لأمر الله سبحانه وتعالى وطاعةً له، ولم يسجدوا بأمر آدم لهم، ولكن سجدوا لأمر ربّ آدم، أمّا الشّيطان فقد رفض أمر الله سبحانه وتعالى، وردّ الأمر على الآمر. فليس من الضّرورة أن تعرف علّة الطّاعة والعبادة بل المهم أن تطيع أمر الآمر، فإن عرفت فبها

ونعمت، وإن لم تعرف فيكفي أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الآمر.

أجابهم الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

الصّراط: هو الطّريق.

المستقيم: أقصر طريق بين نقطتين، وهو أقصر الطّرق للوصول للغاية المرجوّة.

(الآية ١٤٣) - ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾: الوسطيّة التي نتحدّث عنها دائماً هي التي جاء بها الإسلام.

﴿لِّتَكُونُواْ﴾: هل اللّام هنا لام الصّيرورة أم لام التّعليل؟ اللّام هنا للتّعليل وليست لام الصّيرورة، أي: لن تكونوا شهداء على النّاس إلّا بوسطيّتكم؛ لأنّكم إن كنتم متطرّفين ستؤذون النّاس، فالتّطرّف يؤدّي إلى الأذى والعنت والحرج، وربّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحجّ: من الآية ٧٨]، والغلوّ مرفوض بأيّ شيء، وأمّة محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بوسطيّتها أُعطيت المنزلة العالية وتشهد يوم القيامة على باقي الأمم[1]؛ لأنّنا أمّة وسط سنشهد على كلّ الأمم، فنحن أمّة الوسطيّة والاعتدال، قال رسول الله ﷺ: «**بعثت بالحنيفيّة السّمحة**»[2]، فأيّ تطرّف وأيّ تكفير ليس من شريعتنا، بدليل النّصّ القرآنيّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾، فلن نكون شهداء على النّاس إذا لم نكن أمّةً وسطاً.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾؛ لأنّ الرّسول ﷺ ما خُيّر بين أمرين إلّا اختار أيسرهما، وكان ﷺ يقول: «**يسّروا ولا تُعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا**»[3]، ويقول ﷺ: «**سدّدوا وقاربوا وأبشروا**»[4]، فأيّ تيسير أكثر من هذا وأعظم؟! بينما يقول المكفّرون: هذا يُذبح، وهذا يُقتل، وهذا يُحدّ، وهذا يُجلَد..

---

(١) عن أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا ربّ، فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمّته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمّد وأمّته، فيشهدون أنّه قد بلّغ.. فذلك قوله جلّ ذكره:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾». والوسط: العدل. صحيح البخاريّ: كتاب التّفسير، باب سورة (البقرة)، الحديث رقم (٤٢١٧).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: باقي مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهليّ، الحديث رقم (٢٢٣٤٥).

(٣) صحيح البخاريّ: كتاب العلم، باب ما كان النّبيّ ﷺ يتخوّلهم بالموعظة والعلم، الحديث رقم (٦٩).

(٤) صحيح البخاريّ: كتاب الرّقاق، باب القصد والمداومة على العمل، الحديث رقم (٦١٠٢).

إنّ هذا ليس دين الإسلام، بل هو إرهاب وإجرام.

ديننا دين الوسطيّة والاعتدال في كلّ شيء، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: من الآية ٧٧]، كلّ شيء على قصد، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، قال ﷻ: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف]، فكلّ شيء في ديننا وسط واعتدال، فالإسلام ليس دين قسوة، أين هؤلاء الّذين يقطّعون رؤوس النّاس من الدّين؟! أين نحن من رسولنا ﷺ الّذي يقول: «**خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشرّ بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه، أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا**»(١) وأشار بالسّبابة والوسطى.

أين نحن من ديننا العظيم الّذي يقول: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون]، أين نحن من هذا الدّين العظيم الّذي عندما تحدّث عن الطّغاة قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ

---

(١) كنز العمّال: ج٣، الحديث رقم (٥٩٩٤).

عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧﴾ [الفجر]، إنّه الإسلام دين الوسطيّة، دين الاعتدال والخير والمحبّة، دين العطاء والرّحمة، حوّلوه إلى شعارات للقتل والإرهاب والتّكفير والطّائفيّة والبغضاء ولكن: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢١﴾ [يوسف: من الآية ٢١].

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾: الرّسول شهيد على كلّ الأمم وكذلك أمّته.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾: أي القبلة إلى المسجد الأقصى.

﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾: إلّا لنعلم من يتّبع الرّسول ممّن لا يتّبعه؛ ليكون حجّة وتمحيصاً وابتلاءً فإذا قال ﷺ: توجّهوا إلى هنا، نتوجّه، أو قال: توجّهوا إلى هناك، نتوجّه؛ لأنّنا نؤمن بمحمّد ﷺ وبرسالته من عند الله، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، وهذا مفهوم الطّاعة دون أن نعرف الغرض من تحويل القبلة، ولماذا تمّ نسخ هذا الحكم.

﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾:

لقد رآها بعضهم كبيرة، فبعد أن صلّوا زمناً طويلاً وهم يتوجّهون لبيت المقدس، كيف يتّجهون ويصلّون لمكان فيه أصنام حول الكعبة؟! لكن المؤمنين يعلمون أنّ عليهم الطّاعة ولا ينظرون إلى علّة الأمر.

ولم يترك اليهود عمليّة تحويل القبلة تمرّ دون إرجاف وتشكيك، فقالوا

للمسلمين: إنّ صلاتكم خلال سنة ونصف كانت بلا أجر ولا ثواب، فقال الله ﷻ للمسلمين: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: الرّأفة أخصّ والرّحمة أعمّ.

ولو كان القرآن الكريم من عند غير الله لجاءت: (وما كان الله ليضيع صلاتكم) عِوَضاً عن: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾، فعبّر الله ﷻ عن الصّلاة بالإيمان؛ لأنّ الصّلاة عماد الدّين، من أقامها أقام الدّين، ومن تركها هدم الدّين، وهو مضمون الإيمان.

هناك أحاديث كثيرة عن رحمة الله ﷻ، منها ما رواه سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: أنّه قدم على رسول الله ﷺ سبي فإذا امرأة تسعى إذ وجدت صبيّاً في السّبي أخذته فأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النّار؟**»، قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: «**الله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها**»[1].

(الآية ١٤٤) - ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤﴾:

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق.

---

(١) شعب الإيمان: الخامس والسّبعون، الحديث رقم (١١٠١٨).

﴿نَرَىٰ﴾: رأى اللهُ تقلّبَ وجهكَ في السّماء، أتت ﴿نَرَىٰ﴾ بصيغة المضارع، كان الرّسول في منتهى الأدب مع الله سبحانه وتعالى وكانت عواطفه متّجهة إلى بيت الله الحرام ليكون قبلة له صلى الله عليه وسلم ولأمّته في الصّلاة، فقال الله: ﴿قَدۡ نَرَىٰ﴾ هو لم يطلب من الله عز وجل. وتقلّب الوجه علامة على الميل والرّغبة والتّمنّي، وكان الرّسول صلى الله عليه وسلم راضياً بأمر الله وراضياً بتوجيه الله سبحانه وتعالى، بدليل أنّه امتثل لأمر الله، ولكن عواطف القلب لا يملكها، قال صلى الله عليه وسلم: «**هذا قسمي في ما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»(1)، يعني القلب.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾: هذه من أعظم الآيات التي نزلت على سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم والتي تُشير بأنّ الله يرغب في إرضاء حبيبه محمّداً صلى الله عليه وسلم، سيما وقد قال عز وجل: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضّحى].

﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾: توجّه بكلّيتك في صلاتك.

﴿شَطۡرَ﴾: جهة أو نحو، والشّطر في اللّغة: النّصف.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾: الله جل جلاله مطّلع على سرائرهم، وجاء بالأمر التّكليفيّ بالتّوجّه إلى المسجد الحرام.

والمشركون هم أنفسهم كانوا يقرّون بقدسيّة البيت الحرام بعيداً عن الأصنام التي كانت حوله، فنصبوا الأصنام وأرادوا لها أن تأخذ قدسيّة من بيت الله الحرام.

(1) سنن أبي داود: كتاب النّكاح، باب في القسم بين النّساء، الحديث رقم (٢١٣٤).

(الآية ١٤٥) - ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)﴾:

يجادل اليهود بموضوع القبلة وتحوّلها، وهذا الخطاب موجّه لأمّة سيّدنا محمّد، فالرّسول معصوم عن اتّباع أهوائهم على الإطلاق، لكن هذا تحذير لنا: إيّاكم أن تتّبعوا أهواءهم فتكونوا من الظّالمين.

والظّالم: من يتجاوز حدّاً من حدود الله، فيظلم نفسه، أو يظلم غيره.

(الآية ١٤٦) - ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾:

سأل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه كعب الأحبار -وكان من أحبار اليهود ثمّ أسلم-: أكنتم تعرفونه يا كعب؟ أي النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فأجاب كعب: أعرفه كمعرفتي لابني، ومعرفتي لمحمّد أشدّ، فأهل الكتاب يعرفون النّبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه ذُكر في كتب بني إسرائيل كما ذُكر وصفه ووصف أمّته.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: بحسب (صيانة الاحتمال)، ﴿فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾: قسم منهم قالوا الحقّ، بدليل أنّ كعب الأحبار قد أسلم، ففريق منهم يكتمون وليس كلّهم.

(الآية ١٤٧) - ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)﴾:

الحقّ دائماً يكون من عند الله الحقّ، ولا يأتي من الباطل، ولا يمكن أن يكون نزاع بين حقّ وحقّ، فالنّزاع إمّا أن يكون بين باطلين أو بين حقّ وباطل.

(الآية ١٤٨) - ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾:

حضّ الإسلام على التّسابق بعمل الخيرات، ونحن لا نجبر أحداً على ديننا، كما لا نريد أن يجبرنا أحد على دينه، بدليل أنّ الله يقول: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ والاتّجاه للقبلة هو الاتّجاه للدّين، المهمّ التّسابق بفعل الخيرات. فحيثما توجّهتم، ومهما عملتم من خير أو شرّ، فلن يستطيع أحد أن يختفي عن الله، ولا أن يخرج عن إرادته، والجميع سيعرض على الحساب في الآخرة، لأنّ الله سبحانه وتعالى على كلّ شيء قدير.

(الآية ١٤٩) - ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾:

يؤكّد الله سبحانه وتعالى بأنّك أينما كنت، عليك أن تتّجه إلى الكعبة في صلاتك سواء كنت جنوب الأرض أم شمالها، في شرقها أم في غربها، بكلّ الجهات تتّجه في صلاتك جهة المسجد الحرام.

﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: والحقّ هو الشّيء الثّابت الّذي لا يتغيّر أبداً، والحقّ لا يكون إلّا من الحقّ. لا حجّة بعد الآن فيما يتعلّق بالقبلة والاتّجاه، ولكن: لماذا تغيّرت الوجهة عن بيت المقدس؟ بيت المقدس كان لكلّ الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريّا ويحيى وعيسى عليهم السّلام، فلقد كان موطن الرّسالات، والنّبيّ صلى الله عليه وسلم أُسري به إلى المسجد الأقصى ثمّ عُرج به من المسجد الأقصى إلى السّماء، فوحدة

التّوجّه إلى بيت المقدس تشير إلى وحدة الدّين والعقيدة والإيمان الّذي أُرسل به الأنبياء والرّسل، قال سبحانه وتعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣]، فهذا دليل وحدة الدّين والعقيدة، وإن تعدّدت الشّرائع.

(الآية ١٥٠) - ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أي أسرفوا في تجاوزهم لأوامر الله سبحانه وتعالى.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾: الله عزّ وجلّ يأمرنا أن نخشاه ولا نخشى خلقه، أنت بين الخلق والخالق، يقول صلّى الله عليه وسلّم فيما يرويه عن ربّه عزّ وجلّ: «وعزّتي لا أجمع على عبدي خوفين»(١)، لا يمكن أن تجتمع مخافتان في القلب، إمّا أن تخشى الله؛ لأنّك تعلم بأنّ أمرك بيده، وأنّه هو وحده الضّارّ والنّافع، وهو المحيي والمميت، وهو المعطي والمانع، وهو الّذي ستؤول الأمور إليه، وبيده مقاليد السّماوات والأرض. لذلك عندما أوجس موسى عليه السّلام في نفسه خيفة قال له تبارك وتعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه]، فلا تخف منهم وخافني، وخاطب الله المؤمنين بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ

---

(١) شعب الإيمان: الحادي عشر، باب في الخوف من الله تعالى، الحديث رقم (٧٧٧).

﴿أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران].

﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾: إتمام النّعمة من الله تعالى هي بالإسلام وتنزّل القرآن بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: من الآية ٣].

(الآية ١٥١) - ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾:

الحديث هنا لأمّة الرّسول صلى الله عليه وسلم، أي أرسلنا إليكم رسولاً وُلِد ونشأ بينكم وشبّ واستقام وهو معكم، عرفتم صدقه وأمانته واستقامته، يتحدّث بلهجتكم، رسولاً عربيّاً بلسان عربيّ مبين.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾: يبلّغكم القرآن بتلاوته عليكم.

﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾: يطهرّكم من الرّجس، من عبادة الأوثان ووأد البنات وأكل الحرام وشرب الخمر والظّلم والعدوان.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: هناك تلاوة للكتاب، وهنا تعليم للكتاب والحكمة وهي سنّة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٤].

(الآية ١٥٢) - ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾:

يا من تعيش في نعم الله يجب عليك ألّا تنسى المنعم، لذلك في سورة (الكهف) قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: من الآية ٢٤]، أي عش دائماً مع الله سبحانه وتعالى، فلا تنسَ الله؛ لأنّك تعيش في دنيا الأسباب،

فإذا ذكرت المسبّب لا شكّ أنّك ستتعرف إلى النّعم التي أنعمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليك في هذه الحياة.

الذِّكْر: استحضار الشّيء في البال. وذكر الله: أي عدم نسيانه، بأن تبقى مع الله، والعجيب أنّنا نجد الوهّابيّين يهاجمون علماء الشّام وأهلها؛ بسبب مجالس الذِّكر ومجالس الصّلاة على النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي يقيمونها، نحن نحاجّهم بالقرآن الكريم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: من الآية ٢٠٠]، فإذا قضيتم الصّلاة فاذكروا الله، إذاً المناسك شيء والذّكر شيء. فالذِّكر أسهل وأشمل العبادات على الإطلاق، أن تكون مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أنت تحتاج إلى ترداد اللّسان حتّى يتحرّك القلب وحتّى يصبح هناك حضور للقلب، فعندما تذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هل تأتي ببدعة في الدّين؟! هل تخالف أمر الله؟!، ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، فإن ذكرناه فإنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُمطر علينا من سحائب رحمته. وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورد في كثير من آيات القرآن، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة]، وامتدح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المؤمنين بأنّهم: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: من الآية ١٩١]. فالذِّكر أن تعيش مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واعتقد بعضهم أنّ أهل الذّكر في الشّريعة الإسلاميّة أخذوا منحى غير

مطلوب عندما ردّدوا الكثير من الأذكار، ونحن نقول: إنّ معاني الذّكر واسعة وكثيرة في كتاب الله، والمقصود من الذّكر أن لا تنسى الله وأن تعيش مع الله سبحانه وتعالى، ولا بدّ من ترداد عبارات اللّسان لتحريك القلوب وهذا أمر حسن وجيّد، لكن معنى الذّكر بشكل عامّ هو القرآن كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر]، عندما تقرأ القرآن الكريم فأنت مع الله سبحانه وتعالى فأنت تذكر الله، يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه: «**من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السّائلين**»(١)، وعندما تصلّي على سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم فأنت تذكر الله سبحانه وتعالى، وعندما تقول: لا إله إلّا الله، فأنت تذكر الله سبحانه وتعالى، وعندما تقول: سبحان الله، فأنت تذكر الله سبحانه وتعالى، قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه عز وجل: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرّكت بي شفتاه**»(٢).

كلّ صيغ الذّكر التي وردت عن سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصّحابة الكرام أو عن العلماء الرّبّانيّين، هذه الصّيغ للذّكر تحرّك القلوب باتّجاه ذكر المولى سبحانه وتعالى وهذا هو المطلوب أن تعيش مع الله، وليس المطلوب ترداد لعبارات فقط باللّسان، لذلك ورد في الحديث القدسيّ: «**أنا عند حسن ظنّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته**

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب فضائل القرآن، الحديث رقم (٢٩٢٦).

(٢) شعب الإيمان: العاشر، فصل في إدامة ذكر الله عز وجل، الحديث رقم (٥٠٩).

في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»[1].

هذا يعطي المعنى الشّامل الواسع للذّكر بأنّ تعيش في معيّة الله ﷻ وهذا هو المقصود الحقيقيّ لكلّ مجالس الذّكر التي تُقام والتي يتمّ فيها الإكثار من ذكر الله والصّلاة على الرّسول ﷺ.

والآية التي أمرت بالصّلاة على النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام هي في سورة (الأحزاب): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب].

والآية التي أمرت المؤمنين بذكر الله ﷻ هي أيضاً في سورة (الأحزاب): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ٤١﴾ [الأحزاب].

لماذا ورد الأمر بهذه الأذكار؟ حتّى نعيش في معّية الله ﷻ، لذلك عندما يقول الله ﷻ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، يذكّرنا بالنّعم التي يغدقها علينا، بشكل عامّ حصّنوا النّعم بذكر المنعم، كما ورد في سورة (الكهف): ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: من الآية ٣٩]، أنت تحصّن النّعمة بذكر المنعم، هذا هو معنى الذّكر أن تعيش مع الله ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، العلاقة والاتّصال الدّائم مع الله، الذّكر هو أسهل العبادات وأكثر العبادات التي تجعل من الإنسان دائم الصّلة مع الله ﷻ، قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من تعاطي الذّهب

(١) شعب الإيمان: العاشر، فصل في إدامة ذكر الله ﷻ، الحديث رقم (٥٥٠).

والفضّة، ومن أن تلقوا عدوّكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ذكر الله»(١). لذلك وردت هنا: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾: عندما تذكر فأنت تشكر، وعندما تشكر تكثر النّعم عليك بدليل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، إذاً حصّنوا النّعم بسياج ذكر المنعم.

(الآية ١٥٣) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾:

يخاطب المولى سبحانه وتعالى المؤمنين ويدلّهم على طريق الاستعانة به، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وقدّم الصّبر على الصّلاة، نحن نعلم في الحديث أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم عندما أركب خلفه ابن عمّه عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما قال: «يا غلام! احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف بالله في الرّخاء يعرفك في الشّدة، واعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أنّ الخلائق لو اجتمعوا على أن يُعطوك شيئاً لم يُرد الله أن يعطيك لم يقدروا عليه، أو يصرفوا عنك شيئاً أراد الله أن يُصيبك به لم يقدروا على ذلك، فإذا سألت فسل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ النّصر مع

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: مسند الأنصار، حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، الحديث رقم (٢٢١٣٢).

الصّبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يُسراً، واعلم أنّ القلم قد جرى بما هو كائن»(1). المعنى أنّ الاستعانة فقط بالله ﷻ، ولكن كيف طريق الوصول للاستعانة بالله؟ تقول: أنا استعنت بالله، وثَبَتٌّ على ذلك وانتهى الأمر؟ لا بدّ من طريق حتّى أصل لتحقيق هذه الغاية وهي الاستعانة، طالما قال: إذا استعنت فاستعن بالله، فماذا أفعل حتّى أستعين بالله؟ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، السّبب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾، فطالما أنت تريد الاستعانة بالله، وتريد أن تكون مع الله، فإنّ الله مع الصّابرين، فادخل نفسك في معيّة الله، ومعيّته مع الصّابرين، لذلك قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، الصّبر من أهمّ عناصر الإيمان، فما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "الصّبر نصف الإيمان"، لماذا الصّبر نصف الإيمان؟ والكثير من الآيات القرآنيّة تحثّ على الصّبر وتطلب من الإنسان الصّبر وحتّى عندما سئل الإمام عليّ كرّم الله وجهه عن حقّ الجار قال: "تقولون: إنّ حقّ الجار أن لا تؤذيه، وأنا أقول: إنّ حقّ الجار أن تصبر على أذاه"، هذا هو الإسلام الّذي يتّهمونه بالإرهاب والقتل والعنف والقسوة ويتّهمونه بالتّخويف وترويع الآمنين.. هذا الإسلام الّذي يقول: حقّ الجار عليك أن لا تؤذيه فحسب، وإنّما أن تصبر على أذاه، فأيّ رفعة وتكريم للإنسان ولحقوق الجوار ولحقوق النّاس، بغض النّظر عن معتقد هذا الجار سواء كان على دينك أم لا.

---

(1) المعجم الكبير للطّبرانيّ: أحاديث عبد الله بن عبّاس، الحديث رقم (١١٢٦٥).

والصّبر يكون عندما يحدث للنّفس شيء من الجزع والخوف والألم، عندما يحدث لها مصاب فتصبر على هذا الأذى، فالله يطلب منّا حتّى يعطينا المعونة وحتّى ندخل في معيّته أن نصبر، وأن نتّخذ طريق الاستعانة بالصّبر والصّلاة، لذلك فالنّبيّ ﷺ عندما حقّق معنى المعيّة الإلهيّة صبر على قريش، وصبر على مكر المشركين، وصبر على إيذائه وإيذاء أهله وأصحابه، وخرج ليلة الهجرة عندما أحاط به المشركون وقال لأبي بكر رضي الله عنه: «**ما ظنّك باثنين الله ثالثهما**»(١)، فسجّلها القرآن الكريم: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التّوبة: من الآية ٤٠]، يا أبا بكر لا تحزن، إنّ الله معنا، إذاً هو في معيّة الله، لماذا؟ لأنّ النّبيّ ﷺ صبر، وكان ﷺ إذا حزبه أمر يقول: «**يا بلال، أقم الصّلاة، أرحنا بها**»(٢)، فالصّلاة هي صلة مع الله سبحانه وتعالى.

تحقيق الذّكر أن تعيش مع الله سبحانه وتعالى في كلّ الأحوال في فراغك وفي عملك وفي بيتك وطريقك، أن يحيا قلبك بذكر الله والقلوب التي تحيا بذكر الله لا تموت أبداً، قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرّعد]. مع نبض القلوب عبادة لا تحتاج إلى اقتطاع وقت ولا إلى تخصيص مكان، ولا إلى مكين ولا إلى زمان، وإنّما هي دائماً بالقلب أو باللّسان.

وبعد ذلك جاء الأمر بالصّلاة: وهي اقتطاع جزء من الوقت يتّصل

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّفسير، سورة (براءة)، الحديث رقم (٤٣٨٦).

(٢) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، الحديث رقم (٤٩٨٥).

به الإنسان مع ربّه، والصّلاة مع الله صلة، والصّلاة هي الدّعاء، والدّعاء هو اللّجوء والرّجاء والطّلب.

يا أيّها الّذين آمنوا ستتعرّضون لأنواع الابتلاءات في هذه الحياة، وتجاوزكم لهذه الابتلاءات دخولٌ في معيّتي، ويكون ذلك من خلال:

١- تحصينكم النّعم بسياج المنعم.

٢- والاستعانة بالصّبر على الابتلاءات.

٣- وتعزيز هذا الصّبر بالصّلاة، بالاتّصال بالله.

٤- وأن تعيش في الذّكر والصّبر، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

والفارق بين الصّلاة والصّبر:

١- أنّك قد تصلّي رياءً ولكن لا يمكن أن تصبر رياءً.

٢- الصّلاة قد تكون طقوساً أمّا الصّبر فلا يكون طقوساً.

٣- الصّلاة حركة جوارح، أمّا الصّبر فهو فعل وانفعال بالنّفس لذلك قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولم يقل: (إنّ الله مع المصلّين).

قال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون]، ولم يقل: ويل للصّابرين؛ لأنّهم لا يمكن أن يكونوا عن صبرهم ساهين..

الصّبر هو انفعال وجدانيّ نفسيّ، وهو عمليّة تتعلّق بكلّ جوارح الإنسان، وبكلّ خلجات نفسه، إذا تعرّض لمكروه أو أذى أو مصيبة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وإيّاكم أن تشردوا عن حضانة الله فحضانة الله تكون من خلال الصّلاة والصّبر والذّكر، فمن أراد أن ينفلت من حضانة الله ﷻ فسيهدم هذه الأركان الثّلاثة، وهذا واضح في كتاب الله ﷻ.

(الآية ١٥٤) - ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾:

أعظم الابتلاءات التي تحتاج إلى صبر هي أن يقدّم الإنسان نفسه بالشّهادة، فالشّهادة أعلى المراتب، الشّهادة قمّة الابتلاء الّذي يحتاج إلى الصّبر؛ لأنّ الشّهيد قدّم نفسه رخيصة أمام معتقده ودفاعاً عن وطنه، عندما تحدّثت الآيات عن الذّكر والصّلاة والصّبر ذكرت قمّة الابتلاءات وهي تقديم الإنسان نفسه فداءً لوطنه ولمعتقداته ولمقدّساته، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ وهناك عدّة معانٍ عند ذكر الشّهادة والشّهداء.

عندما نتحدّث عن تكريم الشّهداء نرى أنّ أَيَّ تكريم في الدّنيا يكون تكريماً مقطوعاً؛ لأنّ الدّنيا زائلة؛ ولأنّ الدّنيا أغيار ماضية لسبيلها، أمّا إذا وصلنا الدّنيا بالآخرة فيكون النّعيم المقيم ويكون العطاء الدّائم، ويكون التّكريم غير محدود، والله ﷻ يقول لنا: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾، عندما يقول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من يحدّد القتل في سبيل الله؟ رسول الله ﷺ فقط الّذي يحدّد، مَن يدافع عن الوطن شهيد، من قُتل دون أرضه فهو شهيد، ومن قُتل دون ماله فهو شهيد.. كما قال ﷺ: **«من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو**

شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد»[1]. وليس المجرم الّذي ينتحر ليقتل ويخرّب هو الشّهيد، هذا أمر هامّ، هناك ضوابط يحدّدها الله ورسوله ﷺ، قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: من الآية ٧].

تحديد أيّ أمر شرعيّ لا يمكن أن يخضع للاجتهاد طالما ورد فيه نصّ من الكتاب أو السنّة، طالما هناك نصّ قرآنيّ أو نصّ نبويّ، فإذاً رفعت الأقلام وانتهى الأمر.

نحن نرى الموت والموت بالنسبة للإنسان ما هو؟ هو انتهاء حركة الإنسان في الحياة، هو خروج الرّوح من الجسد إمّا أن يموت الإنسان وإمّا أن يقتل، وهناك فارق بين الموت والقتل والدّليل قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ﴾ [آل عمران: من الآية ١٤٤]. فما هو الفارق بينهما؟ الرّوح تخرج من الجسد وتنهدم البنية فهذا موت، أمّا إذا انهدمت البنية وخرجت الرّوح هذا قتل. بالموت تخرج الرّوح وبعد خروجها ينهدم الجسد، لكنّك تقول: مات لأنّه قُتل، فأقول لك: إذا مات انتهى أجله، وكان السّبب هو القتل، فالقتل هو هدم في البنية، هذه الرّوح لا تسكن في الجسد إلّا إذا كان الجسد سليماً. إذا أُطلق على الإنسان رصاصة أو مدفعيّة أو سمّ أو حرق أو غرق فتخرج الرّوح فهذا قتل.. والدّليل: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢ﴾.

نحن نعتبر أنّ مَن فارق الحياة فهو ميّت؛ لأنّ روحه قد خرجت؛ ولأنّ

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب الديّات، باب فيمن قُتل دون ماله فهو شهيد، الحديث رقم (١٤٢١).

جسده قد سكن، هذا بالنسبة لنا بالظّاهر، لكنّ الربّ الخالق البارئ العليم يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ هم أحياء لكن عند ربّهم، وهناك آية أخرى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران]، وطالما أنّها في العنديّة، العنديّة غيبيّة والغيبيّة لا يمكن أن يطلعك المولى سبحانه وتعالى على ماهيّتها ولا يمكن أن تعرفها مهما وصفها لك المولى فلن تصل بعقلك إليها؛ لأنّها عنده في العنديّة وليس في البرزخ وطالما أنّها عنده يعني يوجد حياة، يقول: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ والرّزق من آلات الحياة وليس من آلات الموت، الميت لا يحتاج الى رزق، ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾. لا يمكن أن تشعروا ولا أن تقدّروا طريقة هذه الحياة؛ هم لا يمرّون بحياة البرزخ فقد استثناهم الله من حياة البرزخ ودخلوا في الحياة العنديّة (عند ربّهم)، هؤلاء هم الشّهداء وهذا تكريم لهم.

ساوى الله سبحانه وتعالى بين خلقه بالموت لكنّه فضّل فئة عليهم بالمجد وهذا المجد بالشّهادة؛ لأنّه قدّم نفسه وروحه في سبيل غيره، في سبيل وطنه ومواطنيه ومقدّساته ومعتقداته: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾.

أضف إلى الحياة العنديّة أنّ هذا الشّهيد لا يكفي أنّه تحرّك واستشهد، بل سيتحرّك مَن خلفه ويتمسّك بالمبادئ التي استشهد عليها الشّهيد، هذا معنى هامّ وعظيم عند الله لا يلتفت إليه الكثير، تلك المبادئ العظيمة التي استشهد لأجلها الشّهيد وبذل دمه من أجلها.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: الآية ١٦٩، ومن الآية ١٧٠]، هم فرحون وأنتم حزينون، وأمر طبيعيّ أن يحزن الإنسان لفراق الأحبّة، قال رسول الله ﷺ: «إنّ العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلّا ما يُرضي ربّنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون»[(١)]. أنتم حزينون والله ﷻ يقول: إنّهم فرحون بما آتاهم الله من فضله وليس من عدله، وهناك فرق بين الفضل والعدل: العدل أن تُعطى على قدر ما تُقدّم، والفضل: أن تُعطى زيادة على ما قدّمت.

أَقْدَموا ويريدون من الّذين خلفهم أن يُقدموا وأن يثبتوا على ما تحرّك الشّهداء من أجله.

(الآية ١٥٥) - ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾:

الحديث عن قمّة الابتلاء وهو الاستشهاد في سبيل الله والله قدّم بموضوع الصّبر، أنا لا أقول: استعن بالله واجلس فقط، بل الطّريق إليها بالصّبر والذّكر والصّلاة.

الابتلاء هو الامتحان، الحياة امتحان، قال ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك]، ليست المشكلة بالامتحان، والابتلاء ليس شرّاً بل نتيجة

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الجنائز، باب قول النّبيّ ﷺ: «إنّا بك لمحزنون»، الحديث رقم (١٢٤١).

الامتحان هي الشرّ إذا رسبت بالامتحان، أمّا إذا نجحت فهو خير، ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٥].

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾: لنختبرنّكم ولنمتحننّكم، عندما نقرأ القرآن الكريم يجب أن ننظر إلى قوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النّساء: من الآية ٨٢]، لو كان من عند غير الله لما قال: ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾؛ لأنّ الله لو ابتلانا بالخوف لمتنا جميعاً، ولو ابتلانا بنقص الأموال لم نعش، لذلك قال: ﴿بِشَيۡءٖ﴾، أي بجزء.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾ الابتلاء يكون بخوف من شيء سيقع، والحزن على شيء وقع. الحياة فيها خوف، طالما أنّ فيها خوفاً فإنّك تعيش في ابتلاء، لا يوجد أحد منّا لا يخاف، إمّا من شخص أو مرض أو مصيبة.. ولكن أنت عندما تعيش مع الله ﷻ، فإنّك لا تخاف من المصيبة قبل أن تقع؛ لأنّه لا يوجد ابتلاء يقع إلّا ويأتي معه اللّطف، فأنت عندما تستبق الخوف، فإنّك تفصل المصيبة عن اللّطف فتعيش بالخوف لفترة طويلة ممّا يؤدّي إلى انهيار الإنسان، ولا يوجد أحد في الدّنيا إلّا وسيتعرّض للخوف.

﴿وَٱلۡجُوعِ﴾: الطّعام وقود حركة الإنسان، والمقصود بالجوع ما يؤدّي إلى تعطيل حركة الإنسان في الحياة، وهذا يأتي لعدّة أسباب، منها: القحط وقلّة الأمطار وغلاء الأسعار ونقص الغلال والثّمرات..

﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾: الإنسان عالم أغيار، اليوم غنيّ وغداً فقير، اليوم قويّ وغداً ضعيف.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: الصّابر مؤمن بوعد الله ﷻ، وأخذ بأمر الله فأدخل نفسه في معيّة الصّابرين. لذلك عندما ورد في الحديث القدسيّ: «**أما علمت أنّ عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنّك لو عدته لوجدتني عنده؟**»(١) للمريض، لماذا (عنده)؟ لأنّه صابر، فإنّك تلاقي تجليات الله ﷻ عنده.

البشرى تكون للصّابرين الّذين رضوا بقضاء الله ﷻ، وصبروا على ابتلاءاته.

(الآية ١٥٦) - ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾: أصابت أي وقعت، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ قدّموا لقولهم هذا بالصّبر، وعبّروا بقولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ وهي مفتاح للصّبر، أي إنّي مملوك لله ﷻ ومرجعي إليه، الله لا يمكن أن يفسد ما في ملكه ولكن يعطي ما في ملكه.

فأنا لله ومآلي إليه ﷻ، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ فأنا من الله وإليه أعود، ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي نسب نفسه لله، ولم يخرج من حضانة الله، بل أدخل نفسه في حضانة الله ﷻ.

﴿رَٰجِعُونَ﴾: المرجع إلى الله، وأنا مرجعي إلى الله، وأنا أعرف أنّه هو

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، الحديث رقم (٢٥٦٩).

الّذي سيجزي خيراً بخير، وبالتّالي سأكون صابراً وأنّه سينصفني إمّا على مظلمتي أو ابتلائي؛ لأنّني لله وإليه راجع، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ [العلق].

(الآية ١٥٧) – ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾:

المؤمن الّذي يصاب بمصيبة يقول كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾[التّوبة: من الآية ٥١]، قال: ﴿لَنَا﴾ ولم يقل: (علينا)، لو قال: علينا، لكانت المصيبة ليست لصالحنا.

﴿لَنَا﴾: أي أنّ عاقبة ومآل الصّبر على المصيبة هي لنا، لصالحنا إمّا أن يكون ذلك في الدّنيا أو أن يكون في الآخرة، أنت تعيش في الدّنيا في كلّ أحوالها وأنت ترغب أن يتحقّق لك الخير من الله، فإذا نلت الخير من خلال الصّبر على المصاب نلت الصّلوات من ربّك، كما قال تبارك وتعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ والصّلوات من الإنسان دعاء، ومن الملائكة استغفار، ومن الله رحمات، عندما يصلّي الله على عباده تتحقّق الرّحمات والعطاءات لهم، ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾ [الأحزاب]، والملائكة تستغفر لعباده.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: من الآية ٥٦]، أمّا أنت فتدعو الله، فإذا أمرك الله بالصّلاة والسّلام على رسوله محمّدٍ، فنفع صلاتك يعود عليك، وليس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لماذا؟ لأنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «من

صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه بها عشراً»[1]، أي تحقّقت عشرة عطاءات من الله ﷻ لكلّ من صلّى على رسول الله ﷺ مرّة، كذلك إذا صبرت وقلت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: من الآية ١٥٦]، فقد حقّقت الغاية الموصلة إلى رضا الله وعطاءاته، فـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾، والهداية هي الطّريق الّذي يوصل للغاية، وهي أن تنال رحمة الله ﷻ.

(الآية ١٥٨) - ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾:

في هذه الآية الحديث عن بعض الشّعائر المتعلّقة بالحجّ والعمرة.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾: الصّفا جبل، والمروة جبل، وهما قريبان من الكعبة المشرّفة، ومن حجّ أو اعتمر سعى بين هذين الجبلين، ترتبط هذه المشاعر المتعلّقة بالحجّ والعمرة بقصّة هاجر أمّ إسماعيل ﵇، فما العلاقة بين الآيات السّابقة: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾، وبين هذه الآيات؟ بدأت الآيات بذكر الله والاستعانة به، ثمّ بدا وكأنّه انقطع الحديث تماماً وانتقل إلى شعائر الحجّ.. لا يوجد قطع في القرآن الكريم، لكن يجب أن نسمو بأنفسنا إلى مستوى عطاءات القرآن.

الصّفا والمروة جبلان وقصّة السّعي بينهما أنّ السيّدة هاجر زوج إبراهيم الخليل ﵇ قدم بها إلى مكّة ومعها ابنها الرّضيع، وعندما تركها قال:

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب الوتر، فضل الصّلاة على النّبيّ ﷺ، الحديث رقم (٤٨٤).

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم]، ترك هاجر ومعها ابنها الرّضيع إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع لا يوجد فيه ماء، ورجع إبراهيم ﷺ، فنادته السيّدة هاجر: كيف تتركنا؟ فقال لها: إنّ الله أمرني بذلك، فقالت: إذاً لن يضيّعنا الله، طالما أنّ الله أمرك بتركنا هنا. بدأ العطش في هذا الوادي الّذي لا ماء فيه ولا زرع، وأخذ الطّفل الرّضيع يبكي والأم عطشى بعد أن نفد ما معها من ماء، فانتقلت من الوادي إلى أحد الجبلين الصّفا، لتنظر هل هناك قافلة معها ماء أو طير لتستدلّ به على وجود الماء، وأصبحت تنتقل من جبل الصّفا إلى جبل المروة سبع أشواط وهي تنظر وتبحث عن الماء لرضيعها إسماعيل ولها، فلم تجد فعادت إلى رضيعها، ومن حركة قدم إسماعيل خرج الماء فكان كما اعتقدت وآمنت بأنّ الله لن يضيّعها ورضيعها. أراد الله سبحانه وتعالى أن يعطي درساً للبشريّة، عليك أن تسعى وتتوكّل على المسبّب.

هنا الفارق بين التوكّل والتّواكل: التّواكل: كسل الجوارح وترك الأسباب بدعوى التّوكّل، والتوكّل: أن تعمل الجوارح ويثق القلب بالله سبحانه وتعالى.

فالسيّدة هاجر وثقت بالله سبحانه وتعالى وقامت بالعمل لذلك صار سعيها هذا في طلب الماء من شعائر الحجّ. وعلى الإنسان أن يسعى وأن يقوم بكلّ جهد مع اعتقاده أنّه لا نافع ولا ضارّ ولا معزّ ولا مذلّ ولا قويّ ولا قادر ولا معطي ولا مانع إلّا الله، وأنّه يعطي من دون أسباب. لكنّه أعطى درساً

بأنّه تحت حركة قدم الرّضيع وليس تحت وطأة سعي المرأة، كذلك لـمّا قال الله ﷻ للسيّدة مريم: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم]، جذع النّخلة لا يهزّه عشرة رجال، وكما قال ﷻ لسيّدنا موسى عليه السلام: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشّعراء: من الآية ٦٣]، وهذه الإشارات إلى دنيا الأسباب، فأراد الله ﷻ أن يُعطي درساً للبشريّة.

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾، عيشوا بمعيّتي.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأنّ هاجر وثقت بالله، وعاشت مع الله؛ ولأنّها قالت: لن يضيّعنا الله، لذلك عزّت عليها الأسباب فكان المسبّب أمامها. هذه هي العلاقة في الآيات، والحجّ شعائر، وهي الأماكن التي يكون فيها نسك كمشعر المزدلفة ومشعر مِنى، وأيّ مكان فيه نسك للعبادة يُسمّى مشعراً.

﴿شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾: طرق العبادة التي يكون لها مناسك محدّدة.

﴿فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾: العمرة كالحجّ فرض لمرة واحدة في العمر، وبعدها لا يصبح فرضاً، من هنا استنتج العلماء أنّ العمرة واجبة مرّة واحدة.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾: كانت العرب تضع صنمين هما نائلة وإساف على جبل الصّفا وجبل المروة، فاعتقد المسلمون أنّه لا يجوز أن يَسْعوا بين الجبلين، فأخبرهم الله ﷻ أنّه لا قيمة لهذه الأصنام، والإنسان عندما وصل للإيمان حطّم الأصنام.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا﴾: إذا عشقت التّكليف فالله شاكر عليم؛ لأنّه علم أنّك أنِسْتَ وأحببتَ هذا التّكليف، أنت تشكر الله ﷻ بالعبادة، وشكره لك يُكافئك بالنّعم: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، فمن حجّ أكثر من مرّة، أو اعتمر أكثر من مرّة، أو قام بما افترض عليه وزاد عليه تعلّقاً وحبّاً في التّكليف ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

(الآية ١٥٩) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾:

الكلام هنا عن اليهود الّذين يكتمون ما أنزل الله.

﴿ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: الآيات الواضحات والدّلائل التي تدلّ على الله وتوحيده، وعلى صدق البلاغ عن الله من رسوله محمّد ﷺ، وهداية خلقه.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي في القرآن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾: اللّعن: هو الطّرد من رحمة الله، يلعنهم الله، ويلعنهم أيضاً كلّ خلق الله الّذين يتأذّون، مثال: إذا أساء أهل قرية وعصوا ربّهم وحبس الله عنهم المطر عقوبةً لهم، فالنّبات يتأذّى ويلعنهم، والشّجر يتأذّى ويلعنهم، والحيوان يتأذّى ويلعنهم... وهؤلاء الّذين يكتمون ما أنزل الله يلعنهم كلّ من يتأذّى من طغيانهم وجحودهم ومن كتمانهم لما أنزل الله ﷻ.

(الآية ١٦٠) - ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾:

الإسلام يفتح باب التّوبة، والتّوبة دعوى دائمة للإصلاح، فباب التّوبة مفتوح ولا يغلق أبداً حتّى تطلع الشّمس من مغربها، كما أخبر النّبيّ ﷺ، لذلك استثنى الله ﷻ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾، ولا يكفي القول: أنا تبت، بل لا بدّ من إصلاح ما أفسدت حتّى تتحقّق التّوبة ويقبلها الله ﷻ. قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾[الشّورى: من الآية ٢٥]، وليس من عباده، فهو يقبل التّوبة من عباده الّذين أذنبوا وأتوه تائبين، ويقبل التوبة عن عباده الّذين لم يأتوا إليه بعد، فهو يدعوهم إلى التّوبة. فالله ﷻ توّاب، يقبل التّوبة من عبده كلّما أذنب، جاء حبيب بن الحارث إلى رسول الله عليه الصّلاة والسّلام فقال: يا رسول الله، إنّي رجل مِقرافٌ، قال: «**فتُب إلى الله يا حبيب**»، قال: يا رسول الله، إنّي أتوب ثمّ أعود، قال: «**فكلّما أذنبت فتب**»، قال: يا رسول الله، إذن تكثرْ ذنوبي، قال: «**عفو الله أكبر من ذنوبك يا حبيب بن الحارث**»(١).

﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾: لا بدّ أن تُصلح ما أفسدتَ، فمن أكل مال إنسان لا بدّ أن يُعيد إليه ماله، ولا تتحقّق التّوبة إن لم يردّ إليه ماله، ويُبيّن ذلك أيضاً؛ لأنّ من جاهر بالمعصية وحرّض النّاس عليها، فيجب أن يجهر بالتّوبة ليعود النّاس إلى ربّهم تائبين.

﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: هناك آيات مثل ﴿تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التّوبة:

---

(١) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: ج ١٠، الحديث رقم (١٧٥٣١)، ومِقراف: صيغة مبالغة من قارف: يُقال: قارف الخطيئة: أي خالطها.

من الآية ١١٨]، فالله يتفضّل على عباده بأن شرع لهم التّوبة، فلا تظننّ توبتك فضلاً منك، بل هي فضل من الله ﷻ؛ لأنّه هو الّذي شرع لك هذا الباب لتلج إليه كلّما أذنبت.

(الآية ١٦١-١٦٢) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾:

الّذين أصرّوا واستكبروا وماتوا على كفرهم وضلالهم وعدم توبتهم، وعلى عدم رجوعهم عن الخطأ وإصلاحهم لما أفسدوا، فأولئك لا مغفرة لهم ولا تصيبهم رحمة من الله؛ لأنّ أولئك عليهم لعنة الله، أي طَرْدُ الله لهم من رحمته، والملائكة والنّاس أجمعين، لماذا؟ لأنّهم أُعطوا كلّ الفرص ففرّطوا بها.

(الآية ١٦٣) - ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ثلاثة أمور عَقديّة.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: أي لا ثاني له.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: الله ﷻ واحد، والله أحد، أي ليس كلّي، وليس له أجزاء، وليس له ثانٍ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، (كلّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك).

ما الفرق بين واحد وأحد؟ الواحد ليس له ثاني، أحد ليس مركّباً من أجزاء، مثال: -ولله المثل الأعلى-، الكرسيّ مركّب من خشب ومسامير

وغِراء، فهو مكوّن من هذه الأجزاء، عندما نقول: الله واحد أي لا ثاني له، ليس كلّيّاً، أي ليس مركّباً من أجزاء.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا إله غيره، وهذا ثابت بالعقل وليس فقط في الدّين، ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: من الآية ٢٢]، هذه قضايا عقائديّة، لو كان هناك إله ثان، كان سيزاحم الإله الأوّل في الخلق وإرسال الرّسل.. ولكن هناك إله واحد لا إله إلّا هو.

كيف أعرف وجود الله عقليّاً؟ نستدلّ عليه من أثره، نستدلّ عليه من خلقه، نعرف الشّيء من أثره، نحن نرى الأرض والسّماوات والبحار واختلاف اللّيل والنّهار ونرى كلّ هذا الخلق وكلّ هذه الآيات.

هذا مثال للتّقريب فقط: عندما يُقرَع الباب، كلّنا يعلم أنّ هناك قارعاً، أي أنّ الأثر موجود، فلا بدّ من وجود مؤثّر، ولكنّنا سنختلف من الّذي يقرع الباب؛ وذلك لأنّ الباب مغلق، فكلّ شخص يفترض قارعاً، فتختلف الآراء حول من قرع الباب، ولكن لم نختلف بأنّ الباب قد قُرِع، فإذا أخبرني أحدهم وقال: أنا الّذي طرقت الباب، ولم يدّعِ غيره ذلك، فأصبح حكماً عقليّاً أنّه هو الّذي طرق الباب، حتّى يأتي من يُنازعه على ما ادّعى، فالله ﷻ قال: أنا خلقت السّماوات والأرض، فإذاً هو من خلق حتّى يأتي إله آخر ويقول: أنا خلقت السّماوات والأرض، ولن يأتي.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾: لماذا قال: الرّحمن الرّحيم ولم يقل: العزيز الغفّار، أو المنتقم الجبّار، أو الملك القدّوس؟ هذه تجلّيات المولى ﷻ بصفتَيِ

الرّحمن الرّحيم، لذلك بدأ القرآن الكريم بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، لله ﷻ صفات، ومن صفاته الرّحمن والرّحيم، تجلّيات صفة الرّحمن وتجلّيات صفة الرّحيم تتعلّق بكلّ ما أوجد الله للإنسان، الله ﷻ خلق وأعدّ الكون جاهزاً لاستقبال الإنسان، وبعد ذلك أعدّ الإنسان وكلّ شيء بتجلّيات صفتي الرّحمن الرّحيم.

ما الفرق بين الرّحمن الرّحيم؟ هل تنقص صفات الله تبارك وتعالى وتزيد؟ يزيد متعلّق الصّفة أو ينقص متعلّق الصّفة، الرّحمن أوسع وأشمل من الرّحيم، الرّحمن صفة تتعلّق بكلّ البشر، مؤمنهم وكافرهم، طائعهم وعاصيهم، وتتجلّى في الرّزق والهواء والماء والشّمس والقمر... كلّ شيء بصفة الرّحمن لكلّ البشر، لذلك بالآيات التي سبقت، نجد ردّ الله تبارك وتعالى على طلب إبراهيم عليه السلام عندما سأل الله ﷻ بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ [البقرة: من الآية ١٢٦]، أعطي المؤمن والكافر، أمّا الكافر فأمتّعه قليلاً في الدّنيا، فالرّحمن ﷻ يعطي الكلّ من دون استثناء، لا يقول للشّمس: اشرقي على المؤمنين واحجبي عن الكافرين، أمّا الرّحيم، فالله تبارك وتعالى قال: الجنّة يدخلها المؤمنون فلا يمكن أن يأتي الكافر في الآخرة فيقول: أنا بصفة الرّحمن أدخل الجنّة.

فالله ﷻ رحمن في الدّنيا ورحيم في الآخرة، رحمته في الآخرة لمن آمن به فقط، ورحمته في الدّنيا لمن آمن به ولمن كفر به.

(الآية ١٦٤) - ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾:

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية السّابقة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾، فما هي الدّلالة على أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الخالق، وهو إله واحد؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريد منّا أن نصل إلى الإيمان به من خلال العقل، وأن نستدلّ على وجوده من خلال مخلوقاته وما أبدعه في هذا الكون، فقال في هذه الآية الجامعة التي جمعت بعض مخلوقاته: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ...﴾ فالإنسان مخلوق، وعندما خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعدّ له مقوّمات الحياة، فالسّماء تُظلّ الإنسان، والأرض تُقلّه، وهو بين زمان ومكان، والمكين الّذي هو الإنسان يكون بين زمان ومكان، الزّمان من تعاقب اللّيل والنّهار، وتعاقب اللّيل والنّهار آية تدلّ على أنّ الزّمن يسير بالإنسان إلى أجله ونهايته.

بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنّه هو الّذي خلق السّماوات والأرض والزّمان والمكان ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: من الآية ٥٧]، وهذا أمر طبيعيّ؛ لأنّ الأرض التي خُلِق منها الإنسان أكبر من خلقه هو، وعندما حُلّلت المواد التي يتكوّن منها الإنسان ويتكوّن منها طين الأرض، مع تقدّم العلم، تبيّن بأن هناك ستّ عشرة مادّة من المنغنيز إلى الأكسجين

وغيرهما.. يتكوّن منها الطّين، ويتكوّن منها ذاتها الإنسان.

﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾ [طه]، من الأرض خُلِق الإنسان وإليها يعود، يُدفن في الأرض بين التّراب ولقد خُلِق من تراب ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [غافر: من الآية ٦٧].

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: لم يستطع أحد من الخلق أن يدّعي خلق السّماوات والأرض، أو خلق اللّيل والنّهار، أو خلق الشّمس والقمر، أو أنّ تعاقب اللّيل والنّهار من صنعه، فالله سبحانه وتعالى هو الّذي قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾ [الفرقان].

﴿خِلۡفَةٗ﴾: أي أنّ اللّيل يخلف النّهار، والنّهار يخلف اللّيل، تعاقب اللّيل والنّهار يدلّ على حركة الأرض حول الشّمس، فالّذي خلق السّماوات والأرض وخلق تعاقب الليل والنّهار هو الله سبحانه وتعالى.

والفلك: يطلق على السّفينة، وكلمة الفلك هي جمع ومفرد، كما قال الله سبحانه وتعالى عن سيّدنا نوح عليه السلام: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: من الآية ٣٨]، والمراد سفينة واحدة، فسيولة الماء التي تحمل الفلك والرّياح التي تُسيّرها، هي معجزة من معجزات خلق الله سبحانه وتعالى ولولا هذه السّيولة في الماء لما كان هناك فلك تجري في البحر.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾: هل الماء في السّماء أم في الأرض؟ الماء في الأرض، لكنّه ينزل من السّماء، ويغطّي ثلاثة أرباع الأرض ماءُ البحار والمحيطات والأنهار، وتشكّل اليابسة ربع الأرض

فقط، وكلّما اتّسع سطح التّبخّر كانت سرعة التّبخّر أكبر، فتتبخّر هذه المياه وتصعد إلى السّماء، وبعدها يحدث هنالك بخر وتكثيف، وتلقيح مع الرّياح واختلاف بالنّسبة للبرودة والحرارة ممّا يؤدّي إلى نزول الماء، إذاً أصل الماء من الأرض، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٨﴾ [الرّوم]، ولكن في الأرض مياه البحار والمحيطات محفوظة بمواد وهي غير صالحة للشّرب، حفظه الله من الفساد، فالله سُبحانه وتعالى خلق كلّ شيء صالحاً، وما أُفسِد شيء في الأرض والكون إلّا بيد الإنسان، قال سُبحانه وتعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الرّوم: من الآية ٤١]، فلا يوجد فساد في الأرض، ولا في البحر، ولا في الجوّ من خلق الله جلّ جلاله، وإنّما من صنع البشر، البشر هم الّذين أفسدوا البحار ولوّثوا الهواء، هم الّذين أفسدوا القيم، وهم الّذين أفسدوا البشر، بينما الله سُبحانه وتعالى جعل كلّ شيء صالحاً ومُعدّاً لاستقبال الإنسان، ومنها أنّه حفظ الماء في الأرض: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِى ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨﴾ [المؤمنون]، ثمّ تأتي عمليّة تبخّر الماء، ولو أنّنا نريد أن نقطّر ماءً ونجعله صالحاً للشّرب، فإنّنا نحتاج مصانع كبيرة، وهناك معامل إلهيّة تعمل ليل نهار على تبخير المياه وإعادتها إلى الأرض، لذلك قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾؛ لأنّ الأرض تعيش على الماء ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحجّ: من الآية ٥].

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾: الدّابّة: كلّ ما يدبّ على الأرض من إنسان أو حيوان، وكلّ هذه الأمور التي يذكرها ﷻ يدلّ بها على أنّه هو الخالق، يدلّ بها على الآية السّابقة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، ما الّذي أدرانا أنّ الإله واحد؟! لأنّه لو كان هناك إله آخر لقال: أنا خلقت هذا الخلق.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾: أي تحويل الرّياح؛ لأنّ الرياح لو كانت باتجاه واحد لأرهقت الإنسان، لكنَّ تصريف الرّياح رحمة، فمرّة شرقيّة ومرّة غربيّة وأخرى جنوبيّة غربية... وهكذا.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: المسخّر: هو الّذي يُحمَل على حركة لا يستطيع أن يقرّها هو، وإنّما يؤدّي المطلوب منه، مثلاً هذا السّحاب مسخّر ليسقط في دمشق، سخّره الله وتمّ التّبخّر وتمّت عمليّة إعداد الماء في غير دمشق، وساقته الرّياح لتسقط المياه في دمشق، هذا السّحاب مسخّر ليُنزل الماء في المكان الّذي سخّره له المسخّر ﷻ، وهذا يدلّ على أنّ إلهكم إله واحد.

﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: الآيات: معجزات دالّات بيّنات لمن له عقل، والله ﷻ جعل مناط التّكليف هو العقل، لذلك نقول: إنّ دين الإسلام هو دين العقل، ولا يدلّ الإسلام على وجود الله إلّا من خلال استخدام الملكة العقليّة، لذلك قال: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، إذاً هذه الآيات هي التي تدلّ على وجود الله ﷻ؛ لذلك عندما حاجّ النّمرود سيّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ

﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٨]، فاستخدم إبراهيم عليه السلام أحد الآيات التي تدلّ على وجود الله، وهي أنّ الله يأتي بالشّمس من المشرق في كلّ يوم.

وكلّ ما عدّده الله سبحانه وتعالى في هذه الآية هي معجزات تدلّ عقلاً على وجود الخالق، لا يمكن أن تكون خُلقت بالصّدفة، وبهذا التّرتيب وهذا النّظام، وقلنا: إنّ المؤثِّر يُعرَف من الأثر، وأنت عندما تريد أن تُثبت وجود الله فانظر إلى خلق الله، وانظر إلى المعجزات التي خلقها الله سبحانه وتعالى فإنّك ترى تجلّيات الله، هذه هي المحاجّة العقليّة، والإسلام يستخدم العقل والحجّة والبرهان لإثبات وجود الله سبحانه وتعالى، أمّا الملحد فلا يعتدّ بالعقل، فلو سألناه كيف خُلِقت الأرض؟ يُجيب أنّ الكون والشّمس والأرض والكواكب وُجِدت بالصّدفة أو بالتّطوّر، ولا يقتنع أيّ إنسان عاقل أنّ الصّدفة تخلق هذا النّظام، وهذا التّركيب، وهذه الشّمس التي تتحرّك بموازين ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرّحمن]، كلّ شيء عند الله بميزان وبمقدار وحسبان، ولو أنّ الشّمس اقتربت أو ابتعدت من الأرض مقداراً يسيراً من الميليمترات أو السّنتيمترات لأحرقت الأرض أو جمّدتها، فلذلك لا يمكن أن يكون الخلق صدفة، فأعطى الله سبحانه وتعالى كلّ هذه الآيات التي تدلّ على وجوده.

إنّ دين الإسلام دين العقل والعلم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: من الآية ١٩]، ولم يقل: فقل: لا إله إلّا الله، من هنا نحن لا نناقش

الآخرين وخصوصاً في عصر العلم والحضارة والتّكنولوجيا ونقول لهم أو نجبرهم على قول: لا إله إلّا الله، ولكن نقنع النّاس ونعلّمهم أن لا إله إلّا الله؛ لأنّهم سيعلمون وسيصلون من خلال العلم إلى أنّه لا إله إلّا الله.

(الآية ١٦٥) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: رغم أنّك علمت أنّه هو المنعم، وأنّه هو الّذي خلق، وأعدّ لك كلّ هذه النّعم من حولك، خلق لك الماء والهواء والبحار والأنهار والشّجر والنّبات والحيوان، وكلّ ذلك من أجلك أيّها الإنسان، ومع ذلك: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾، ليس كلّ النّاس.

﴿أَندَادًا﴾: النّدّ: هو النّظير والمثيل والشّبيه.

إمّا أن تكون هذه الأنداد وهذه النّظائر، الآلهة التي صنعوها وعبدوها من الأصنام والحجارة أو من الشّمس، وإمّا أن تكون هوى الإنسان، كما قال تبارك وتعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: من الآية ٤٣]، هوى الإنسان هو ندّ، أحياناً الإنسان من ضلاله يعبد نفسه أو يعبد الآخرين، يعتقد أنّه بيدهم ملكوت السّماوات والأرض، يعتقد أنّهم ينفعون ويضرّون، وأنّهم يُحيون ويُميتون، وأنّهم يعزّون ويذلّون، والله سبحانه وتعالى هو وحده الّذي يحي ويميت: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[آل عمران: من الآية ٢٦]، الله سبحانه وتعالى هو وحده المتصرّف وهو

المالك الوحيد، لذلك يجب أن ننتبه ألّا يكون توجّه القلب نحو الأسباب، يجب أن لا نغفل عن ربّ الأسباب وهو المسبّب الحقيقيّ، ورغم كلّ هذه الدّلالات على وجود الله فهناك بعض النّاس ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾: والمؤمنون يعتقدون بأنّ الله هو النّافع وهو الضّارّ، يحبّون الله ﷻ، ودليل حبّهم لله أنّهم يسلّمون لقضائه، فكيف تُعبّر عن حبّك لله؟

تعصي الإله وأنت تظهر حبّـه ... هذا لعمري في القياس بديعُ

لو كان حبّك صـادقاً لأطعتـه ... إنّ المحـبّ لمـن يحبّ مطيـعُ

المحبّة تقتضي الطّاعة ولا يمكن أن تحبّ الله ﷻ وتعصيه. فالمؤمنون يلجؤون إلى الله ﷻ عند المصيبة، كما يشكرونه على النّعمة والعطاء، بينما الّذين يتخذون من دون الله أنداداً عندما يتعرّضون للمصائب ويشتدّ عليهم الكرب والألم هل يلجؤون إلى الّذين يحبّونهم كحبّ الله؟ إذا انقطع في الصّحراء أو كان في طائرة وكادت أن تحترق أو كان مريضاً وشارف على الموت فإنّه يقول: يا ربّ، أمّا الّذي لا يؤمن بالله هل يعتقد عندها وهو في هذه اللّحظات الحرجة بأنّ من يحبّه أو يلجأ إليه، ومن يتّخذه إلهاً من دون الله أنّه سينجيه؟ لا يلجأ إليه في هذه السّاعة؛ لأنّه يعلم بفطرته أنّ الله هو وحده الّذي يُنجيه ويكشف عنه الغمّ والهمّ، وهو الوحيد الّذي يستطيع أن يُزيل عنه ألمه.

هناك سعادةٌ لا يشعر بلذّتها إلّا المؤمن، هذه السّعادة منشؤها اليقين الّذي زرعه الإيمان في قلبه، عندما يعلم الإنسان أنّ الله هو الّذي يخفض ويرفع ويصل ويقطع فإنّه يعيش في انسجام روحيّ مع نفسه وذاته ومحيطه، فإذا أصابته مصيبة قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وإذا نظر إلى النّعم التي يتقلّب فيها لجأ إلى ربّه بذكر المنعم وشكره.

فالمؤمن في سعادةٍ دائمةٍ وهي مبنيّةٌ على قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد].

﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: الظّالم مَن يظلم غيره أو مَن يظلم نفسه، فالّذي يظلم غيره أي يتجاوز عليه في حقوقه، أمّا الّذي يظلم نفسه فالّذي يمتّعها ويعطيها شهوة عاجلة ويمنعها من نعيم دائم، فمن فعل الحرام وعلم أنّ نتيجة الحرام وجزاءه عذاب الله لا شكّ أنّه قد ظلم نفسه.

﴿إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾: يرون بعين اليقين، نحن في الدّنيا لا نرى العذاب عين اليقين، لذلك قال ﷻ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾ [التّكاثر].

فعين اليقين حين يرى الإنسان العذاب حقّاً يوم القيامة.

﴿أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾: عندما يرى العذاب ويعلم أنّ كلّ القوّة لله ﷻ، كلّ ما كان من سلطان المال، من سلطان الجاه، من سلطان الصّحّة، من سلطان الأسباب قد زال وأنّ القوّة لله جميعاً.

(الآية ١٦٦) - ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾:

الله ﷻ كان يتحدّث عن الّذين يحبّون الأنداد أو النّظائر وهي إمّا أن تكون حجراً أو بشراً أو أنّ الإنسان يحبّ نفسه ويعبد هواه، فالّذين كانوا يتعلّقون بغيرهم تبرّأ منهم من كانوا يعبدونهم من دون الله ﷻ. والشّيطان الرّجيم -وقد اتُّبع من الكثيرين من البشر- هو أوّل من يتبرّأ ممّن اتّبعه، ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢]، تبرّأ الشّيطان من الّذين استجابوا لوساوسه، وهو أساس السّوء وأساس كلّ المظالم والجرائم، وما يحيك في صدر الإنسان من مفاسد فإنّما هو وسوسة الشّيطان وتزيينه.

إذاً الشّيطان أوّلاً، ثمّ كلّ من أغواك بالدّنيا يتبرّأ منك في الآخرة.

﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾: سيأتي الإنسان يوم القيامة فرداً: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾ [مريم]، في هذا اليوم: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان: من الآية ٣٣]، ﴿كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدّثر]، إذاً تنقطع الأسباب، لا يبقى أسباب، تعيش هناك في عالم الآخرة مع المسبِّب فقط، أمّا في الدّنيا فنحن في عالم الأسباب، إذا لم تشرب لا تروي الظّمأ، وإذا لم تأكل تجوع، وإذا لم تتحرّك لن تحصل على نتيجة

للعمل؛ لأنّ الله ربط الأمور بالأسباب، الإنسان يضيع في الأسباب، ويعتقد أنّ الأسباب هي الفاعلة بحدّ ذاتها، أمّا في الآخرة فقد تقطّعت الأسباب.

(الآية ١٦٧) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾: الّذين أطاعوا كبراءهم الّذين أضلّوهم أو الّذين اتّبعوا إبليس.

﴿كَرَّةٗ﴾: أي: مرّة أخرى، ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾: ولا توجد مرّة أخرى، ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾: هي عليهم حسرة وندامة يوم القيامة، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾: أُعطيتَ الفرصة وليس أمامك فرصة أخرى، ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ [لقمان]، الآن أنت حرّ في الاختيار، إمّا أن تختار الجنّة أو الكفر والضّلال، لا يُجبرك أحد، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، أمّا في الآخرة: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾.

(الآية ١٦٨) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾:

نلاحظ دقّة الأداء القرآنيّ، وعلينا دائماً أن نضع المعادلة: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النّساء: من الآية ٨٢]، فلو أنّ القرآن كتبه بشر فلا يخطر بباله أبداً أن تكون الجملة بهذا الشّكل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ الحلال الطيّب يأتي معه

الخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لماذا؟ لأنّ المؤمن هو الّذي يستجيب لمتطلّبات الإيمان، أمّا النّاس بمجموعهم فمنهم الكافر ومنهم المؤمن، الله يعطي الدّنيا لمن يحبّ ولمن لا يحبّ، ويعطي الدّين لمن أحبّ، ولكن عندما يعطي الشّمس والهواء والماء والرّزق والخير والصّحة والمال يعطيها لكلّ البشر المؤمن منهم والكافر، فقط عندما يتكلّم عن شيء إيمانيّ يقول تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، إذا كان هناك تكليف يقول تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٧﴾ [الحجّ]، وهكذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: الأكل عنوان عامّ، والإنسان يعيش على مستلزمات الحياة ومنها الطّعام الّذي هو وقود الجسد؛ لأنّ الله عندما يخاطب الإنسان بشكلٍ عامّ لا يقصر خطابه على الّذين آمنوا، وإنّما يشمل بقوله المؤمنين وغيرهم، فهو عَزَّ وَجَلَّ خلق ما في الأرض جميعاً للنّاس جميعاً؛ لأنّ عطاء الرّبوبيّة لكلّ البشر، من آمن منهم ومن لم يؤمن، وكأنّه يقول للكافرين: حتّى ولو لَم تؤمنوا فخذوا بنصيحة المؤمنين واستعملوا الأشياء الحلال؛ لأنّها تُفيدكم في حياتكم، فعندما يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ فهو من باب النّصيحة لغير المؤمن، أمّا المؤمن فعليه الالتزام، كما ورد في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: من الآية ١٧٢]، فهنا أمر تكليفيّ، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ الأمر غير تكليفيّ يخاطب فيه كلّ النّاس يقول لهم: لا تأكلوا الحرام، لماذا؟ إذا أنت أكلت ميتة مؤمناً كنت أو غير مؤمن، من نفسك ستجد طعمها مختلف وتجدها فاسدة، فالله يريد الخير لكلّ البشر وكلّ النّاس، فيقول: كلوا الحلال، ولا يريد الله سبحانه وتعالى الضّرر بأيّ إنسان؛ لأنّ ما يحرّمه الله سبحانه وتعالى فيه ضرر للإنسان بشكل عامّ.

الإنسان الملحد يقول الله سبحانه وتعالى له: لا تأكل ميتة ولا دماً، فقط كُلِ الحلال؛ لأنّ الحلال لا يضرّ الإنسان، هذا الخطاب للنّاس جميعاً، أمّا بالنّسبة للمؤمن فالخطاب يختلف.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾: الخطوات هي المسافة بين خطوة وخطوة، الله سبحانه وتعالى يذكّر أنّ الشّيطان للإنسان عدوّ مبين، الشّيطان عندما طُرد من رحمة الله وأُهبطَ إلى الأرض أقسم بعزّة الله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢﴾ [ص]، ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾: أي باستغنائك عن عبادة خلقك، لأغوينّهم أجمعين ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص].

وأكل الحلال يشمل الطّعام والمال، فكلمة الأكل تُطلق أحياناً على المال: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٨]، فالميراث يكون وبالاً على الورثة إن تعدّى الوارث إلى حقّ غيره، وكذلك أكل الرّبا وأخذ الرّشوة وأخذ أموال الآخرين بالباطل.

(الآية ١٦٩) - ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾:

من الّذي يأمركم؟ إنّه الشّيطان.

﴿بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: ما الفرق بين السّوء والفحشاء؟

السّوء: الذّنوب مثل النّميمة والغيبة...

الفحشاء: هي الذّنب الّذي عليه حدّ كالزّنا أو السّرقة أو غير ذلك، إذاً فهناك فارق بين السّوء والفحشاء، ومن قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء]، يتبيّن أنّ الزّنى فحشاء، فالذّنب الّذي معه حدّ يسمّى (الفحشاء)، والذّنب الّذي لا حدّ فيه بل تجب فيه التّوبة كالنّميمة والغيبة يسمّى (السّوء)، فالشّيطان يغوي الإنسان بالذّنوب الصّغائر أو بالكبائر أي بالسّوء والفحشاء.

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: لها معان متعدّدة:

- منها التّكذيب بما جاء في القرآن أو بما جاء به رسول الله ﷺ.

- ومنها تأويل القرآن على غير ما أُنزل، أو تفسير الآيات حسب الأهواء والمآرب والمصالح الفرديّة.

(الآية ١٧٠) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾:

يعالج القرآن الكريم في هذه الآية قضيّة الاتّباع والتّقليد الأعمى، وهذه القضيّة من الأمراض الخطيرة.

بشكل عامّ التّقليد أمر طبيعيّ؛ لأنّ الإنسان أوّل ما يولد يرى أباه أو أمّه أو أخاه يحرّك يده فيحرّك يده، يراه يقوم فيقوم، يراه يجلس فيجلس، يراه

يصلّي فيصلّي، يراه يفعل فيفعل، إذاً كيف يعرف الطّفل أن يأكل بيده؟ يرى من هو معه فعل ذلك فيفعل مثله. لذلك الأجيال تتكرّر وتختلط بين الآباء وبين الأبناء من خلال الاتّباع والعادات التي تلقّاها الأبناء عن الآباء، لكنّ الإسلام وضع ضوابط تحكّم العقل والشّرع، لاتّباع الأبناء للآباء والأمّهات وللمجتمعات، فإذا رأيت من يخالف الله ﷻ، كأبيك أو أمّك أو أخيك فلا تقلّدهم بالمخالفة، إذاً الاتّباع بشكل أعمى مرفوض، والاتّباع بشكل مضبوط مطلوب، حتّى تحافظ الأجيال على بعضها بعضاً، وحتّى تحافظ على قِيَمها وتراثها، فإذاً هناك خيط دقيق يفصل بين الاتّباع وعدمه، بين جيل وجيل، فالجيل يجب أن يحافظ على ما كان عليه الجيل السّابق، لكن بضوابط شرعيّة وعقليّة وعلميّة.

﴿مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾: ما وجدنا.

فإذا أردت أن تتّبع أباك أو أمّك أو الجيل الّذي سبقك تتّبع بضوابط العقل والعلم والهداية التي هي الشّرع ولا تقلّد التّقليد الأعمى.

(الآية ١٧١) - ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾:

ما معنى ينعق؟ هو صوت يصدره الإنسان، كالرّاعي مثلاً يصدر صوتاً لغنمه ليجمعها عليه، هذا اسمه النّعيق، فتمشي الغنم وراء الرّاعي، وهذا هو الاتّباع الأعمى.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾: هو لا يسمع المضمون

إنّما هو دعاء ونداء فقط، صوت أجوف، لا فكر، لا عقل، لا إقناع، لا حُجّة، بل مجرّد صوت، هذا هو النّعيق.

﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾: دائماً الصّمم يُقدَّم على البكم، لماذا؟

إنسان لا يسمع لن يتكلّم بشيء، السّمع قبل اللّسان لماذا؟ لأنّك تتكلّم بما تسمع، فلو أنّك أتيت بطفل عربيّ وُلِد في بلاد الغرب في فرنسا مثلاً، هل يتكّلم العربيّة إن لم يخاطبه والداه بها؟ طبعاً لا؛ لأنّه يتكلّم بما يسمع، فإذا كان لا يسمع فلن يتكلّم.

﴿صُمُّۢ﴾: الصّمم معناه سدّ في منفذ الأذن، الكافر يسمع لكن لا يعي معاني ما يُقال، وهذا هو المعنى المقصود.

﴿عُمۡيٌ﴾: عن الحقيقة لا يرون الحقائق.

﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾: هؤلاء الّذين يتّبعون الاتّباع الأعمى، الّذين يقلّدون من سبقهم ويقولون: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزّخرف: من الآية ٢٣]، من دون عقل أو علم أو بحث أو أدلّة، وديننا هو دين أدلّة، دين بحث، دين علم، دين حضارة، دين فكر.

(الآية ١٧٢) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾:

في هذه الآية الأمر تكليفيّ طالما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ليس لك حريّة أن تقول: نعم، أو لا، لك حريّة قبل أن تدخل في الإسلام ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، إن كنت لا تريد أن تؤمن فلا تؤمن:

﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، لكن إذا أنت آمنت ودخلت في عقد إيمانيّ مع الله، فأنت مجبر على متطلّبات الإيمان، أنا دخلت في عقد مع الله، وقلت: آمنت بك يا ربّ، فقال لي الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: يا من آمنت بي افعل كذا، أمّا الّذي لم يؤمن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا يُقال له: افعل كذا، لا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: يا أيّها النّاس كتب عليكم الصّيام، وغير المؤمن لا يصوم، إذاً كلّما جاء أمر بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فليُعلم أنّه أمر تكليفيّ لمن اختار الإيمان بالاختيار وليس بالإجبار، الآن يقول لي: طالما أنت مؤمن بي إذاً لا يجوز أن تأكل إلّا ما أحللت لك، وقد وردت آية سابقة تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: من الآية ١٦٨]، قد تسأل ما الفرق بين هذه وتلك؟ الفارق أنّه هنا أمر تكليفيّ أمّا هناك فعلمٌ للنّاس، إخبار للنّاس جميعاً بأن لا يأكلوا إلّا حلالاً؛ لأنّ ذلك في مصلحتهم، أمّا هنا بغض النّظر عن مصلحته، فالمراد الطّاعة وليس من أجل علّةٍ؛ من أجل أنّ هذا الطّعام يضرّني، وبفرض أنّ الطّعام لا يضرّني وقال لي الله: لا تأكل منه، يجب ألّا آكل منه، لماذا؟ لأنّ هناك تحريم التّأديب وليس فقط تحريم الضّرر، ما هو تحريم التّأديب؟ بنو إسرائيل حرّم عليهم ما هو حلال بسبب ظلمهم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠﴾ [النّساء]، إذاً هناك تحريم تأديب، ليس فقط التّحريم من أجل الضّرر، ونحن نمتثل لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنّ الله أمر، وليس لتحقيق مصلحة فقط، فإذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لي: لا تأكل

لحم الخنزير؛ لأنّ فيه الدّودة الشّريطيّة فامتثلت للأمر خوفاً على نفسي من الضّرر، فلا يوجد هنا عبادة ولا إيمان، أمّا إن قال لي: لا تأكل لحم الخنزير، وأنا لا أعرف لماذا وامتثلت، فإنّني أكون عابداً وطائعاً لله، فقد امتثلت لأمر الله سبحانه وتعالى وليس لأنّ فيها ضرراً، فهناك أمور كثيرة لا نعرف العلّة فيها، وأخفى الله سبحانه وتعالى عنّا علّتها حتّى تكون طاعة وعبادة، وحتّى تكون إيماناً، فإذاً عندما يقول لي المولى سبحانه وتعالى: طُف حول الكعبة سبعة أشواط، ارجم بسبع حصيّات، صلِّ المغرب ثلاث ركعات، لماذا؟ لماذا لم يكن أربع ركعات أفضل من ثلاثة في فرض المغرب، وركعتا الفجر إن كانتا أربعاً أفضل، والعشاء يكون عشرة بدل أربع أليس أفضل؟! الجواب: لا؛ لأنّه سبحانه وتعالى هو مَن قال ذلك، العلّة بأنّه تعالى قال لك، ليس بما عرفتُ؛ لأنّي آمنت، ومرتكز الإيمان غيبيّ، لا أقول: آمنت بشيء أمامي، لا أقول: آمنت إلّا بشيء غيبيّ.

﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾: ما هو تعريف العبادة؟ العبادة تعني الطّاعة، طاعة آمر بما أمر، لذلك عندما قالوا: نعبد ما ألفينا عليه آباءنا، أو قالوا: نعبد الأصنام، فلنقل لهم: ماذا قالت لكم الأصنام؟ ماذا قالت لكم الشّمس؟ بماذا أمرتكم؟ عن ماذا نهتكم؟ إذاً هذه لا تكون عبادة، فالعبادة: طاعة لأمر، طاعة لأوامر، هذه هي العبادة، فانظروا هنا لدقّة الآيات، الفارق ما بين الآيات الأولى التي قال فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: من الآية ١٦٨]، والتي ذُكرت هنا: انظروا لدقّة أداء القرآن، ففي الأولى الطّلب ليس عبادةً ولا أمراً تكليفيّاً، أمّا هنا

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فقد جاء الأمر: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾، وأمّا في الآية الأولى فلم يذيّل الآية بقوله جلّ وعلا: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ بل ذيّلها بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ فهناك فارقٌ إذاً، العبادة هي طاعة، عرفت العلّة أم لم تعرف، وإن عرفت العلّة فذلك خير، وإن لم تعرف فيكفيك أنّ الله ﷻ يعرف، فقط أنت امتثل أمر الله ﷻ.

(الآية ١٧٣) - ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ﴾: هذه الآية عدّدت الأطعمة المحرّمة، فما الّذي حرّم؟ أوّلها: الميتة وقد ذكرت سابقاً بالتّفسير، هناك مَيْت بتخفيف الياء، ومَيِّت بتشديد الياء، هناك فارق عندما تكون الياء ساكنة وعندما تكون مشدّدة، يقول ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزّمر]، الياء مشدّدة في كلمة: ميّت، أي مآلك إلى الموت، أنت الآن حيّ لكنّك ميّت أي ستموت، أمّا إذا قلت عن شخص: إنّه ميْت بتخفيف الياء وإسكانها، فهذا يعني أنّه قد مات فعلاً، انظروا لدّقة القرآن الكريم، لو قال الله ﷻ: حُرِّمَ عليكم الميّتة، بتشديد الياء، لكان كلّ شيء قد حُرّم علينا، لا يمكننا أن نأكل شيء أبداً، فلا يمكنك أن تأكل دجاجاً ولا شاةً ولا بقرة ولا أيّ شيء؛ لأنّها كلّها بالذّبح ستموت، لكن طالما قال تبارك وتعالى: ﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾

فإذاً المقصودة التي ماتت، لماذا الميتة، أي ماتت ولم تُذبح؟ لأنّ هناك فارقاً بين القتل والموت، فالقتل هو تخريب البنية وبعد ذلك تخرج الرّوح، أمّا الموت فهو خروج الرّوح وبعد ذلك تتخرّب بنية الجسد. الميْتة مثلاً: الدّجاجة أو الخروف افرض أنّه مات ولم يُذبح، لماذا حُرّم علينا؟ نحن نعلم أنّ هناك أوردة وشرايين، ويوجد دم فاسد ينقّى عن طريق الكلى، ويوجد دم صالح بالإنسان أو بالحيوان أو بكلّ الأحياء التي فيها دم، فإذا مات الإنسان أو مات الخروف أو الدّجاجة.. ولم يُسمح للدّم أن يخرج فماذا يجري؟ الدّم الفاسد يبقى فتصبح فاسدة، لذلك إذا أكلت دجاجاً أو لحم خروف ميت غير مذبوح، فمذاق لحم الميتة يختلف عن مذاق اللّحم لو كان مذبوحاً؛ لأنّ الدّم الفاسد قد خرج عند الذّبح، إذاً علّة تحريم الميتة واضحة، فيها فساد؛ لأنّ الدّم الّذي يجري جزء منه يكون فاسداً لم ينقّى بعد بالكلى، وجزء يكون صالحاً، فالجزء الفاسد يُفسِد اللّحم.

﴿حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ هنا نقطة مهمّة ودقيقة، ذكرنا سابقاً بأنّه لا يجوز أن يتصدّى للتّفسير إلّا من كان عالماً ومتخصّصاً بتفسير القرآن وبسنّة النّبيّ ﷺ لماذا؟ لأنّك لو قرأت الآية: ﴿حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ إذاً الميْتة حرام لكن هل السُّنّة تخصّص عموم القرآن؟ نعم تخصّص لقوله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، قال نبيّنا ﷺ: «أُحلّت لكم ميتتان ودمان، فأمّا الميتتان فالحوت والجراد وأمّا الدّمان

فالكبد والطّحال»[1] إذاً خصّص الحديث عموم القرآن، واستثنى من الميتة السّمك والجراد، ما السّبب؟ السّبب أنّ السّمك والجراد لا يوجد فيهما دم، والطّحال والكبد دم جامد.

﴿وَٱلدَّمَ﴾: حرّم الميتة؛ لأنّ فيها دم، فالأولى أن يحرّم الدّم، إذاً الدّم محرّم باستثناء الكبد والطّحال؛ لأنّ الدّم فاسد ويؤذي الجسد.

﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾: قلنا: إنّ لحم الخنزير فيه الدّودة الشّريطيّة بكثرة، وقد اكتشف العلم حديثاً بأنّ هناك من الجراثيم والميكروبات الموجودة في لحم الخنزير ما ليس موجوداً في أيّ حيوان آخر، والإنسان الّذي يأكل لحم الخنزير قد يصاب بأمراض خطيرة، فالله ﷻ حرّم لحم الخنزير، ونحن نمتنع عن أكل لحم الخنزير؛ لأنّ الله ﷻ حرّمه وليس لضرره في الجسم.

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾: أي نودي فيه بغير اسم الله، فنحن عند الذّبح نقول: بسم الله الله أكبر، إذاً ما أُهلَّ به لغير الله فهو محرّم.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾: الضّرورات تبيح المحظورات، إذاً مَن أكل فعليه إثم إلّا إن كانت هناك ضرورة، والضّرورة تقدّر بقدرها وأنّه إذا كان الإنسان سيموت أو يأكل، فيأكل ما يقيم أَوَدَه، أي ما يستطيع أن يبقى فيه على قيد الحياة فقط، ولا يتجاوز ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾: لماذا ذيّل الآية هنا بأنّ الله غفور رحيم مع أنّه هنا لا يوجد ذنب؟ الجواب: أنّ الله ﷻ إن كان يغفر مع الذّنب أفلا

---

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الكبد والطّحال، الحديث رقم (٣٣١٤).

يغفر مع الضّرورة؟! لذلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو يغفر مع الضّرورة، انظروا لسعة الدّين الإسلاميّ ورحمته وتيسيره، فهو دين اليسر قال رسول الله ﷺ: «يسّروا ولا تُعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا»[1]، وقال ﷺ: «سدّدوا وقاربوا وأبشروا»[2]، لا تضيّقوا على النّاس لا تجعلوا من الدّين حزاماً تلفّ به أقضية النّاس وإنّما خذوا هذا الدّين كما أخذه نبيّنا ﷺ ورفع به من قدر النّاس، فهو رفع النّاس إلى مستوى عطاء القرآن الكريم، وبعضهم يريد أن يهبط بعطاء القرآن الكريم إلى مستوى البشر، هذا هو الفارق، الدّين الإسلاميّ دين سماحة، دين يسر، ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلّا اختار أيسرهما، ولم يكن النّبيّ ﷺ يشدّد على النّاس وكان ﷺ يقول: «لا تشدّدوا على أنفسكم فيشدّد عليكم»[3]، هذا هو الدّين الإسلاميّ لذلك وضع لكلّ أمر استثناء حسب الضّرورة، فالمريض له رخص، كذلك الصّيام فيه رخصة للمسافر والمريض، قال تبارك وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٦]، فهذا هو المبدأ الإيمانيّ والمبدأ الإسلاميّ.

(الآية ١٧٤) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾:

(١) صحيح البخاريّ: كتاب العلم، باب ما كان النّبيّ ﷺ يتخوّلهم بالموعظة والعلم، الحديث رقم (٦٩).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الرّقاق، باب القصد والمداومة على العمل، الحديث رقم (٦١٠٢).

(٣) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في الحسد، الحديث رقم (٤٩٠٤).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: حين يُنزل الله ﷻ الكتب على رسله، تبلّغه الرّسل ويحمِله أولو العلم ليبلّغوه للنّاس، فالّذين يكتمون ما أنزل الله إنّما يصادمون منهج السّماء، ويصبحون عوائق لمنهج الله الّذي جاء لينظّم حركة الحياة، وهذا لا يتأتّى إلّا من إنسان يريد أن يتمتّع بباطل الحياة وزخارفها على حساب النّاس وأكل حقوقهم.

وما نفعهم في ذلك؟ لا بدّ أنّه يوجد لهم نفع، هذا النّفع هو الثّمن القليل، مثل (الرّشوة)، أو الأشياء التي كانوا يأخذونها من أتباعهم ليحرّفوا ويُبدِّلوا أحكام الله على مقتضى شهوات النّاس، فالله يبيّن لهم: أنّ الشّيء لا يُثمّنه إلّا من يعلم حقيقته، وأنتم تُثَمّنون منهج الله، ولا يصّح أن يُثَمِّن منهج الله إلّا الله ﷻ؛ ولذلك يجب أن يكون الثّمن الّذي وضعه الله لتطبيق المنهج ثمناً مربحاً مقنعاً لكم، فإن أخذتم ثمناً على كتمان منهج الله وأرضيتم النّاس بأحكام توافق أهواءهم وشهواتهم، فقد خسرتم في الصّفقة؛ لأنّ ذلك الثّمن مهما علا بالتّقدير البشريّ، فهو ثمن قليل وعمره قصير، والأثمان عادة تبدأ من أوّل شيء مرتبط بحياة الإنسان والّذي به قوام حياته من مأكل ومشرب، لذلك قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، وإذا كانوا يأكلون في بطونهم ناراً، فكيف يكون استيعاب البطون لتلك النّار؟

المؤمن كما قال الرّسول ﷺ يأكل في مَعي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء، أي أنّ الكافر لا يأكل إلّا تلذّذاً بالطّعام؛ فهو يريد أن يتلذّذ به دائماً حتّى يضيق بطنه بما يدخل فيه، لكن المؤمن يأخذ من الطّعام بقدر

قوام الحياة، فسيّد الخلق محمّد ﷺ يقول في الحديث الشّريف: «**ما ملأ آدميّ وعاء شراً من بطن، حسب الآدميّ لُقَيمات يُقِمن صلبه**»[1]، إذاً فالأكل عند المؤمن هو لمقوّمات الحياة وكوقود لحركته، ولكن الكافر يأخذ الأكل لمتعة ذاتيّة، قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمّد: من الآية ١٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾: كما ملأوا بطونهم من شهوات الدّنيا ولذائذها بالحرام، فكذلك يجعل الله العذاب لهم من جنس ما فعلوه بالثّمن القليل الّذي أخذوه، فستُملأُ بطونهم ناراً يوم القيامة، جزاءً وفاقاً لما فعلوا، وهذا لون من العقاب المادّيّ يتبعه لون آخر من العقاب هو:

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: أي أنّ الله سبحانه وتعالى لا يكترث بهم يوم القيامة، ونحن حين نقرأ كلمة (لا يكلّم فلانٌ فلاناً) نستشعر منها الغضب؛ لأنّ الكلام عند البشر وسيلة الأُنس، فإذا ما امتنع إنسان عن كلام إنسان، فكأنّه يبغضه ويكرهه. إذاً ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ معناها أنّه يبغضهم، وحسبك بصدود الله عن خلقه عقاباً وعذاباً.

وقد يقول قائل: كيف نقرأ هنا: أنّ الله لا يكلّمهم، وهو القائل: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون]؟ نقول: صحيح أنّه سبحانه وتعالى يقول لهم: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ ولكن الكلام حين يُنفَى من الله فالمقصود به هو

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشّبع، الحديث رقم (٣٣٤٩).

كلام الرّحمة وكلام الإيناس واللّطف، أمّا كلام العقوبة فهو اللّعنة. وكلام الله للمؤمنين ونظر المؤمنين إليه ﷻ أفضل النّعم التي يُنعم الله بها عليهم يوم القيامة، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة].

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: وبعد أن يحرمهم من الكلام والاستئناس بحضرته؛ ولا يطهرهم من الخبائث التي ارتكبوها، بعد ذلك يعذّبهم عذاباً شديداً أليماً؛ كأن فيه عذاباً سابقاً، ثمّ يأتي العذاب الأشدّ؛ لأنّهم لا بدّ أن يلاقوا عذاباً مضاعفاً؛ لأنّهم كتموا منهج الله عن خلقه، فتسبّبوا في إضلالهم، فعليهم وزر ضلالهم، ووزر فوق أوزارهم؛ لأنّهم أضلوا غيرهم.

(الآية ١٧٥) – ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾:

يذكر الله ﷻ لنا لماذا لا يكلّمهم؟ ولماذا لا يزكّيهم؟ ولماذا يكون لهم في الآخرة عذاب أليم؟ إنّهم قد بدّلوا الضلالة بالهدى؛ والعذاب بالمغفرة، وعندما ترى شدّة العقاب فلا يهولنّك، ولكن انظر إلى فداحة الجرم.

إنّ النّاس عندما يفصلون الجريمة عن العقاب تأخذهم الشّفقة على المجرم؛ لأنّهم لا يرون المجرم إلّا حال محاكمته وعقابه وينسون جريمته، ولذلك فعندما ترى عقوبة ما وتستعظمها، فعليك استحضار الجرم الّذي أوجب تلك العقوبة. ولذلك نجد النّاس غالباً ما يعطفون على المجرمين الّذين يُحاكمون وتصدر بحقّهم عقوبات صارمة؛ ذلك لأنّ الجريمة ربّما مرّ عليها زمنٌ طويل، ولم يروها، وآثارها وتبعاتها انتهت، ولم يبقَ إلّا المجرم؛ فيشفقون عليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾: الباء تدخل على المتروك، فالضّلالة هنا أُخِذَتْ وتُرك الهدى، واستُبدِل العذاب بالمغفرة، وما داموا قد أخذوا الضّلالة بدلاً من الهدى، والعذاب بدلاً من المغفرة، فالعدالة أن ينالهم العذاب الأليم.

﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: هذا تشنيع للعقاب حتّى يَنْفِرَ منه النّاس. ويريد الله ﷻ منّا أن نعجب، كيف يترك الضّالّ الهدى ويأخذ الضّلال، وبعد ذلك تكون النّتيجة أن ينال العذاب ويُحرَم المغفرة. فما الّذي يعطيه الأمل في أن يصبر على النّار؟، هل عنده صبر إلى الحدّ الّذي يجعله يُقبِل على الذّنب الّذي يدفعه إلى النّار؟ وما الّذي جعله يصبر على هذا العذاب؟ أعنده من القوّة ما يُصَبِّره على النّار؟ وما هذه القوة؟ وكأنّ الله ﷻ يقول: أنت غير مدرك لما ينتظرك من الجزاء، وإلّا ما الّذي يُصبِّرك على هذه النّار؟ حتّى تتمادى في طغيانك وضلالك، وتنسى أنّ النّار ستكون من نصيبك، فإذا كنت متيقّناً أنّ النّار من نصيبك؛ فكيف أخذت أماناً من صبرك على النّار؟ وكيف للإنسان أن يصبر على حرّ النّار؟! أعاذنا الله.

(الآية ١٧٦) – ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما تقدّم، وما تقدّم هو الضّلالة التي ساروا فيها وتركوا الهدى، والعذاب الّذي أخذوه بدلاً من المغفرة، والنّار التي يُعذَّبون فيها، وكيف يصبرون عليها، إنّها ثلاثة أشياء ملتقية؛ العذاب، والضّلالة،

والنّار. فالضّلال هو السّبب الأصيل في العذاب، فإذا قال الله ﷻ: عاقبتهم بكذا؛ لأنّهم ضلّوا، فذلك صحيح، وإذا قال: أنزلت بهم ذلك؛ لأنّهم استحقّوا العذاب، فهو صادق، والعذاب في الآخرة يكون بالنّار، إذاً، عندما يقول الحقّ تبارك وتعالى: بالنّار أو بالعذاب أو بالضّلال فمرجعها جميعاً إلى شيء واحد.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾: والّذي يُغيِّر الكتاب ويكتمه إنّما يكره الحقّ.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾: إنّها هوّة واسعة يسقطون فيها، فالشّقاق في القيم المنهجيّة السّماويّة سقوط في هوّة سحيقة لا قرار لها، فلو كان الخلاف في أمور معيشيّة دنيويّة لأمكن للبشر أن يتحمّلوها فيما بينهم، ولكنّ الخلاف في أمر قيميّ لا يقدر البشر على أن يصلحوه فيما بينهم، من هنا فإنّ شُقّة الخلاف واسعة، ولا يقوى على الحكم فيها إلّا الله تبارك وتعالى، ولذلك قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزّمر: من الآية ٣].

(الآية ١٧٧) - ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾:

هذه آية مُحكمة في كتاب الله ﷻ شملت عناصر البرّ، ويجب أن نتوقّف عند مدلولاتها وعند معانيها؛ لأنّها تعطي الصّورة الحقيقيّة للإسلام بكلّ عناصره إيماناً وأركاناً وسلوكاً وعبادات.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾: تحدّثت الآيات السّابقة مطوّلاً عن الاتّجاه في الصّلاة، والأمر بالتّوجّه إلى الكعبة المشرّفة، وأراد الله ﷻ أن يبيّن لنا أنّ الإسلام لا يُعنى فقط بانضباط الحركات، وإنّما يعنيه وجدان القلب إضافة لعمل الجوارح؛ لأنّ الإسلام ليس دعوى كلاميّة تُقال وحسب، وإنّما هو تصديق وإيمان وعمل بالأركان، لذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾: البرّ: هو جوامع كلّ خير، كلّ عناصر الإيمان والتّقوى والطّاعة والإحسان، فالخير الواسع من كلّ أبوابه هو البرّ. ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ بالحركة وبالشّكل وبالمظهر، بالتّوجّه قِبَل المشرق أو المغرب.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾: وكأنّ البرّ ذاتٌ مجسّدة، تُفسَّر بهذا المثال: فلان عادل معنى ذلك أنّه يقيم الحدود ويقف عند الإنصاف، أمّا إذا قُلت: فلان عَدْل، فأصبح العدل مجسّداً في ذاته، هناك فارق بين عَدْل وعادل عندما يكون عَدْل يكون مجسّداً.

أراد الله ﷻ أن يجسّد البرّ في ذاتٍ فقال: ﴿ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾: فالخير الواسع وكلّ

عناصر الإيمان والتّقوى والصّدق والإخلاص كلّها موجودة في هذه العناصر، كأنّ البرّ إنسان فيه صفات فأصبح هو بَرّ.

فما هو البرُّ؟ هل هو في كثرة الصَّلاة أم في كثرة الصِّيام أم في كثرة الإنفاق وكثرة الحجّ وكثرة المواعظ والخطب... بيّن الله في هذه الآية الشّاملة الجامعة معاني البرّ بشكل كامل، ونحن نعرف الإيمان في الحديث المشهور عندما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإيمان فأخبره أنّ الإيمان: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه**»[1]، جاء بالحديث الإيمانُ باليوم الآخر متأخّراً في التّرتيب، أمّا في الآية الكريمة فجاء الإيمان باليوم الآخر بعد الإيمان بالله مباشرة، وبعد الإيمان باليوم الآخر قال: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ عكس الصورة، لماذا؟ هنا أمر هامّ، بعضهم يتحدّث عن الدّين ويفصل الدّين عن يوم الحساب وعن الجنّة والنّار.

بعض النّاس قد يكون مؤمناً بالله أو يطرح الإسلام على أنّه أركان وعبادات ومعاملات، دون إيمان باليوم الآخر وبالجنّة والنّار والحساب والعذاب، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبيّن أنّ تتمّة الإيمان بالله أن تؤمن باليوم الّذي ستُحَاسب فيه بما أمرك الله سبحانه وتعالى به، فسلوك الإنسان في الحياة لا يستقيم إلّا بالإيمان باليوم الآخر.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله، الحديث رقم (٨).

افترض أنّك آمنت بالله وبالملائكة والكتب والرّسل والنبيّين وبالقضاء والقدر ولم تؤمن باليوم الآخر كلّ هذا الإيمان ناقص ولا يعطي ثمرة الإيمان، فأوّل عنصر في قمّة الإيمان أن تؤمن بالله، والقمّة في تطبيق ما أمر الله هو الإيمان باليوم الآخر، فجاء بالقمّتين رغم أنّ الإيمان باليوم الآخر في آخر السّلسلة في الحديث النّبويّ الّذي ذكر أركان الإيمان: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه**»، حتّى تنضبط حركة الإنسان في الحياة وحتّى يعلم أنّه محاسب على كلّ قول وكلّ عمل في هذه الدّنيا، وحتّى لا ينظر إلى الدّنيا بمنظار مشوّه مبتور.

لو كنت في مسرحيّة وشاهدت الجزء الأوّل منها، وهناك ثلاثة أجزاء للمسرحيّة، ولم تشاهد باقي الأجزاء فكلّ المعاني التي تراها في الجزء الأوّل ناقصة وترى الأمر ملتبساً، غير دقيق وغير واضح.

كلّ ما نراه في الحياة الآن إذا لم نقرنه باليوم الآخر، بيوم البعث، بيوم الحساب والجزاء، بيوم العقاب والثّواب، يوم يقوم النّاس لربّ العالمين، سيكون المنظار مختلّاً؛ لأنّك في هذه الحياة الدّنيا قد تشاهد الظالم وتشاهد المظلوم، تشاهد القاتل وتشاهد المقتول، تشاهد الغنيّ وتشاهد الفقير، تشاهد الأمير وتشاهد المأمور، تشاهد أحداثاً مركّبة في الحياة، وتشاهد في هذه الأحداث المركّبة معانيَ متعدّدة، لا يمكن لهذه الصّورة أن تكتمل وتشعر بوجود الله والإيمان به إلّا إذا آمنت أنّ هناك بقيّة لهذا المسرح، مسرح الحياة، فعندما تنظر في الصّورة إلى النّتائج فالعمل يصبح متوازناً. لذلك فقمّة

الإيمانِ الإيمانُ بالله، ثمّ الإيمان باليوم الآخر الّذي هو غيبيّ، كما كلّ عناصر الإيمان الأخرى.

كلّما أتحدّث عن الإيمان أتحدّث عن العقيدة؛ لأنّ الأمر المشاهَد المحسوس الّذي نراه لا يحتاج أن يكون عقيدة. العقيدة هي الإيمان بالأمر الغيبيّ، الغائب عنك والّذي تحتاج فيه إلى مقدّمات وأسباب كي تعقده وتثبته في قلبك، أمّا الأمر المشهديّ فلا يحتاج إلى عقيدة؛ لأنك تشاهده عياناً ليل نهار، وفي كلّ دقيقة، لا أقول: إنّني أؤمن أنّ هناك ماء في هذا الكأس الموجود أمامي؛ لأنّني أراه، ولكن أؤمن بأنّ هناك من بنى هذا المسجد، رغم أنّني لم أره، لكنّي رأيت أثر الّذي بناه، وهذا غيبيّ وغير مشهديّ. كلّ عناصر الإيمان غير مشهديّة، وأهمّ عناصر الإيمان غير المشهدّية هي: الإيمان بالله ﷻ لأنّنا نرى آثاره وتجلّياته ولا نرى الله، فالله بالنّسبة لنا غيب، يرانا ولا نراه، واليوم الآخر غيبيّ، سمعنا عنه ولم نره، أمّا الإيمان بالكتب والنّبيّين فهو الإيمان بالموجودات، قد تكون رأيت ولكن لم ترَ التّكليف، من عاصَر الأنبياء من أقوامهم رأوهم بأمّ أعينهم، لكنّهم لم يروا الوحي يتنزّل على أنبيائهم، نحن نرى القرآن فهو مشهديّ، لكن كونه كلام الله فهو غيبيّ، لأنّه عندما نزل به جبريل عليه السلام على قلب النّبيّ ﷺ وأخبره لم نره، والملائكة والجنّ أيضاً مخلوقات غيبيّة، أخبرنا من آمنّا به بوجودها، وطالما نحن آمنّا بالله ﷻ فإذاً نحن نصدّق ما يقول، فنعود في كلّ ما أخبرنا به من الإيمان إلى من أخبر، والله هو الّذي أخبر، أنت آمنت بالله ورسخ الإيمان في عقلك وقلبك، آمنت من أثر صنع الله في مخلوقاته، ومن آياته،

آمنت بصدق الأنبياء في البلاغ عن الله، فعندما آمنت بالله، آمنت بكلّ ما أخبر عنه، هو أخبرنا أنّ الملائكة هم من خلقه: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التّحريم: من الآية ٦]، وأخبرنا أنّ الجنّ مخلوقات مكلّفة: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات]، أخبرنا أنّ الأنبياء مكلّفون من قِبَلِه ﷻ، ونحن نصدّق بالخبر الصّادق الّذي يكون من الله، وبلّغنا به النّبيّ ﷺ. فلا يمكن أن يكون البرّ والخير والتّقوى وجوامع الخيرات إلّا إذا ارتكزت على عقيدة ثابتة. وأركان العقيدة ثابتة وهي: الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه من الله ﷻ، هذه عقيدتنا.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: لماذا قال: والملائكة والكتاب، ولم يقل: الكتب؟ الجواب: أنّ من يؤمن بهذا الكتاب (القرآن) يؤمن بكلّ الكتب السّماويّة؛ لأنّه يجمع كلّ الكتب، وكلّ الكتب من عند الله ﷻ، فبمجرّد إيمانك بالقرآن فقد آمنت بالإنجيل والتّوراة والزّبور وصحف إبراهيم وصحف موسى وكلّ ما أُنزل على الأنبياء السّابقين عليهم السلام.

﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: البرّ من آمن وآتى، وضع لنا عناصر الإيمان وأوّلها العقيدة.

التّرتيب هنا يختلف عن التّسلسل الّذي أورده النّبيّ ﷺ للعناصر العادية للإيمان؛ لأنّها تتعلّق بالبرّ وبالخير الواسع، أي بالعمل في الدّنيا لذلك واو العطف تدلّ على أنّه لا يكفي الإيمان بل لا بدّ من الإيتاء، من البذل، لا بدّ من أمور حركيّة تُدلّل على الأمور الاعتقاديّة، الله ماذا يريد منّا؟ الله لا

يزيد في ملكه إيماننا ولا ينقصه كفرنا، ولو أراد لجعل النّاس كلّهم مؤمنين: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس].

الحديث الآن عن البرّ الّذي هو جوامع التّقوى وجوامع الخير، وعلى الأمور العقائديّة ترتكز الأمور الحركيّة، والأمور الحركيّة منها: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾؛ لقوله ﷻ: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: من الآية ٤٦]، لماذا قدّم المال على البنين؟ البنون أغلى، ولكنّ المال هو الّذي يأتيك بالزّوجة وبعد ذلك بالولد، إذاً المال هو المادّة التي يتحرّك بها الإنسان في كلّ ما يشتهي ويحبّ؛ لذلك قُدِّم المال. إذاً أوّل عنصر حركيّ يدلّ على البرّ هو أن تؤتي المال على حبّه، أن تُنفق المال وأنت مُحتاج ومحبٌّ له.

آتى غير أتى، آتى معناها أعطى، وأتى معناها قَدِمَ.

﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: لها معنيان:

- إما أن يعطي المال على حبّه للمال.
- وإمّا أن يعطي المال على حبّ الإعطاء.

فهاء الضّمير في ﴿حُبِّهِۦ﴾ تعود إمّا على المال أو على الإنفاق، فيصحّ الوجهان. فلا يقولنّ قائل: إنّ الإسلام منحصر بعبادات، ركوع وسجود وصيام وقيام، بل هو أمور تعبديّة ضمنها أمور حركيّة، وقدّم الحركيّة على التّعبديّة، فبعد أن قال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، قال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، مع أنّه من المعروف أنّ الصّلاة ركن من أركان الإسلام، وهي عماد الدّين، فأنت هنا لا تتحدّث عن الإيمان، وإلّا لأوردت أركان الايمان كما جاءت في الحديث الشّريف، ولو كنت تتحدّث عن الإسلام لذكرت شهادة أن لا إله إلّا الله، وإقام الصّلاة أوّلاً.. ولكنّك هنا تتحدّث عن الحركة في الحياة، عن الخير في الحياة، عن التّقوى، عن جوامع الخيرات التي أرادها الله، فأرادها مشتملة، ليس الإيمان في جانب، والعبادة في جانب، والتّقوى في جانب، لكن الإيمان مع الأركان التّعبديّة والحركيّة كلّها مجتمعةً تؤدّي الغرض من الإسلام.

﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ﴾ أعطى المال، ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: والأغلب المقصود بها على حبّه للمال لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ [الفجر].

﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: هذه ليست مصارف الزكاة كلّها، فجزءٌ منها من مصارف الزكاة وجزءٌ منها ليس من مصارف الزكاة، إذاً هي ليست زكاة، لذلك قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «إنّ في المال حقّاً سوى الزكاة»(١) ثمّ تلا هذه الآية: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب الزكاة، باب أنّ في المال حقّاً سوى الزكاة، الحديث رقم (٦٦٠).

﴿ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾(١).

لماذا أدخل اليتامى وذوي القربى في عناصر البرّ والتّقوى والخير الواسع؟ ولم يُدخلهم في آية الزكاة التي حدّدت مصارفها: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التّوبة]؟ لماذا وردت هنا بشكلٍ مُطلق؟ لأنّ الله ﷻ يريد أن يكون الخير من الإنسان أوّلاً لليتامى ولذوي القربى، بغضّ النّظر عن الفرض وعن أيّ شيء، أي أن يكون الخير بفطرة الإنسان، ونابعاً من حركة الإنسان في الحياة ومن وجدان الإنسان، أن يكون له اهتمام باليتامى والأقربين.

﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؛ لأنّ الإنسان لا يمكن أن يعيش سعيداً في مجتمعه، ويرى مِن أرحامه مَن هم بفقر وحاجة، لو أنّ كلّ غنيّ عاد بفضل ماله على دائرة قرابته بما أنعم الله عليه من مال، لما وُجِد في المجتمع فقير؛ لأنّ الله فرض في أموال الأغنياء ما يسع الفقراء.

أنت تتحرّك في الحياة ومعلّق فيك غيرك أيضاً؛ لأنّ الله ﷻ استدعى الإنسان إلى الوجود وضمن له الوجود بالرّزق، الله ﷻ يدعوك للإنفاق: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٥]، أنت لا تقرض الله، ولكن عندما تعطي خلق الله فكأنّك أقرضت الله؛ لأنّه هو الّذي استدعى الإنسان إلى الوجود، فأوّل من هو بحاجتك وأوّلُ من يجب أن تعطيه ممّا

---

(١) سنن الدّار قطني: كتاب الزكاة، باب تعجيل الصّدقة قبل الحول، الحديث رقم (١١).

أعطاك الله ذوو القربى، أي أرحامك وقرابتك، وهذا ليس صدقة وصلة وحسب، وإنّما هو بناء للمجتمع، يقولون: نريد إصلاح المجتمعات وحركات إصلاح وبرامج.. إذا أصلحت العلاقة بينك وبين أبويك وبين أقاربك صلح المجتمع، لكن مشكلة المجتمع الّذي نريد إصلاحه أنّ فيه أخاً عدوّاً لأخيه، وإخوة على خلاف على الميراث، وأقارب متشاكسون متخاصمون، وخلافات ضمن الأسر وتفكّك فكيف يمكن أن يصلح المجتمع؟! إذا كانت الخليّة الأولى مضطربة فلا يمكن أن يصلح باقي الجسد، والإسلام عُنِي بإصلاح الخليّة الأولى في المجتمع، وهي الأسرة والقرابة، ومن ثَمَّ عُنِي باليتيم وهو من فقد المعيل أي أباه.

تحدّث القرآن الكريم بشكلٍ بَيّن عن ذلك: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ [الماعون]، مَنْ هذا الّذي يكذّب بالدّين؟ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون]، اختصر الدّين كلّه بعمليّة حركيّة: ﴿يَدُعُّ﴾، ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾، بين اليتيم والمسكين وُجد الدّين.

فهل هذا دين إرهاب أو قتل؟! علينا دائماً أن نكرّس الدّين الصّحيح، وهو الّذي أنزله الله ﷻ، وليس الدّين الّذي أرادوه ولبّسوه علينا.

فبذل المال، رغم الحاجة إليه والتّعلّق به وحبّه، لذوي القربى واليتامى هو إثبات لحقيقة الدّين، والإنسان الّذي يعطي صدقة للفقير البعيد وفي أرحامه من هو بحاجة قد لا تُقبل صدقته؛ لأنّ الرّحم أولى، وقد جاء في

الحديث الشّريف: «**لا صدقة وذو رَحِم مُحتاج**»[1].

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾: المسكين من السّكون وهو الّذي لا عمل له، أو الفقير الّذي لا يملك قوت يومه. اختلف العلماء بين المسكين والفقير، أمّا هنا فهما بحال واحد.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي المسافر المقطوع في الطّريق.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: من هو السّائل؟ قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾ [الضّحى]، لئن تُخطئ في العطاء أفضل من أن تُصيب في المنع، إذا جاءك سائل فلا تنهره لوجود نصّ قرآنيّ، ولا تُمحّص وراء هذا السّائل، ويُعطى السّائل ولو جاء على فرس.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: هو عتق رقبة كانت مملوكة.

يقول تبارك وتعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾ [البلد]، العقبة هي شيء يقف حائلاً بينك وبين الجنّة، فلكي تمرّ من هذه العقبة عليك: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد]، وليس قطع رقبة، أو ذبح رقبة، ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦﴾ [البلد]، هذا هو إسلامنا عتق الرّقاب، وليس قطع الرّقاب، أمّا الأحكام المتعلّقة بالرّقّ والعبيد وملك اليمين، فقد شوّهها بعضهم وفسّرها خطأً، وأسقطوا ما يجدونه في تاريخنا المعاصر على ما ورد في كتاب الله تبارك وتعالى، والنّصّ القرآنيّ يتعلّق بأحداث معيّنة، أي عندما يُقول سبحانه وتعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد]، فقد كان هناك

---

(١) المجموع: ج١٥، ص٣٣٥.

عبيد، والأحكام الشّرعيّة التي تأتي في القرآن الكريم تُعالج قضيّة موجودة، فإذا توقّفت هذه القضيّة يُوقف الحكم، فلماذا لا يُلغى الحكم؟ لأنّنا لا ندري بعد مرور الأعوام وتقادم الأزمان ربّما يعود الرّقّ، ونحن نشاهد ونرى مع مرور الأيّام تراجع النّاس القهقرى عن القيم والأخلاق والدّين، فقد تأتي أيّام ويعود الرّق فيكون الحكم موجوداً. ولا يجوز أخذ حكم متعلّق بالرّقّ وتطبيقه على القرن الواحد والعشرين، ويُقال: ملك يمين، وأحرار وعبيد.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ الإسلام حارب استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، يكفي دليلاً على ذلك قول سيّدنا عمر ﵁ في القرن السّابع الميلاديّ قبل أن يولد آلاف الفلاسفةِ والعلماءِ والقانونيّين ورجالِ حقوق الإنسان ومؤسّسات الأمم المتّحدة... قبل كلّ ذلك: "متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحراراً"، وقد كان عمر ﵁ تلميذاً في مدرسة النّبيّ ﷺ.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾: لماذا لم يُتبعها: وصام رمضان وحجَّ البيت، وهي من أركان الإسلام؟ لأنّ الأمر لا يتعلّق بأركان الإسلام، فالحجّ فرض على من استطاع إليه سبيلاً، والصّيام لمن افترض عليه ولم يكن على سفر أو كان مريضاً، أمّا الصّلاة فهي دائمة لا تسقط بحال، وأمّا الزكاة فهي عنوان؛ لأنّها تتعلّق بالمال، لذلك قال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾: الموفي بالعهد، والعهد غير العقد، العقد فيه أخذ وردّ، والعهد لا يكون فيه أخذ ولا ردّ، وصدق العهد من الإيمان.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾: لماذا قال هنا: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مع أنّ الواو حرف عطف، فينبغي أن تكون (والصّابرون)؟ وما عطف على مرفوعٍ مرفوعٌ مثله، كلّ ما ورد في الآية هو عطف على خبر الحرف المشبّه بالفعل (لكنَّ): ﴿وَٱلۡمُوفُونَ﴾... يكون مرفوعاً، لكن هنا اختلف الإعراب من أجل مسألة بلاغيّة، فنُصبَت على الاختصاص، أي أمدح وأخصّ الصّابرين؛ لأنّ كلّ هذه الأمور التي ذُكرت في هذه الآية الكريمة تحتاج الى الصّبر، والصّبر هو شطر الإيمان، لذلك قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: من الآية ١٠]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة]، ولم يقل: إنّ الله مع المصلّين، وإنّما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ لأنّ الصّبر هو الدّليل على صحّة أدائك للصّلاة، فإن أعطت الصّلاة الثّمرة فهذا دليل أنّك تصبر على المصاب وعلى الامتحان، لذلك خصّ بالمدح الصّابرين فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾. فتغيّرت حركة الإعراب هنا؛ لأنّ العرب واللّغة العربيّة، عندما يكون هناك مرفوع وعطف على مرفوع وأتى منصوباً فالأمر يسترعي الانتباه، هذا يعني أنّ هناك أمراً ما، لأمرٍ أراد الله ﷻ أن يلفت الانتباه إليه.

﴿ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾: البأس: أي حال الفقر والحاجة إلى المال.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: المرض مع الألم.

﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾: في الشّدائد، وأثناء القتال.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾: صدقوا بقول: لا إله إلّا الله.

فقول العبد: لا إله إلّا الله مع الكذب لا يُنجيه، تدخل الجنّة إن كنت صادقاً بقول: لا إله إلّا الله، فالله يقول لك: أولئك الّذين صدقوا بقول: لا إله إلّا الله، من هم الّذين صدقوا؟ الّذين فعلوا كلّ هذا: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾: التّقوى: هي أن تجعل بينك وبين الشّيء حاجزاً، تتّقي الله: أن تجعل بينك وبين صفات الجلال حاجزاً، يعني صفات المنتقم الجبّار شديد العقاب، تجعل وقايةً، فهذه الوقاية هي: التّقوى أي كلّ جوامع الخير، حتّى تُنجيك من العذاب ومن النّار.

(الآية ١٧٨) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾:

نقف هنا عند مدلول هذه الآية تحديداً، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الله سبحانه وتعالى

يقول: أنا لا أكلّفكم اقتحاماً على إرادتكم، لكنّكم أنتم آمنتم، ومن لم يؤمن فليس مكلّفاً، هل قال أحدٌ: إنّ الإيمان بالإجبار؟ لكن إن أنت اخترت الدّين فعليك العمل بمتطلّباته، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يا من آمنتم بي خذوا بتكليفي، فليس هناك اقتحام على الإرادة، وهنا ينبغي الانتباه إلى أنّ من يأتي ممّن انتسب إلى الإيمان في هذا العصر ليقول: أنا حرّ، أنت لست حرّاً هنا، أنت حرّ أنّ تؤمن أو تكفر، حرّ أن تأخذ بالإسلام أو لا تأخذ به، لكن إن اخترت الإسلام فلست حرّاً أن تخرّب الإسلام، ولست حرّاً في أن تتفلّت من تعاليمه، ولست حرّاً في أن تزعم أنّ الإسلام لم يحرّم الرّبا والخمر، وأنّ حجاب المرأة ليس مفروضاً... إلخ، لست حرّاً في أن تلصق بالدّين ما ليس منه، ولا أن تحلِّل ما حرّم الله ولا تحرّم ما أحلّه، هناك قضايا ثابتة بالدّين وثابتة بنصوص الكتاب والسُّنّة، ولا اجتهاد في مورد النّصّ، فليسمع القاصي والدّاني، شهادةُ حُسنِ سلوكنا هي ديننا فلسنا بحاجة لأن نقدّم شهادة حسن سلوك لأحد، وأن نميّع الدّين ونقول: إنّ هذا ليس من الدّين وهذا ليس صحيح لا يوجد بالدّين، ونُحلّل الحرام ونُحرّم الحلال و... ثمّ نقول: هكذا الإسلام، لا ليس الإسلام هكذا، الإسلام هو ما قاله الله تعالى وما جاء به رسول الله ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾: لماذا يوجد قصاص؟ لو لم يكن هناك قصاص لتحوّلت الدّنيا إلى غابة، القصاص من أجل أن يكون هناك حياة، فالقصاص في القتلى، ليس الإنسان حرّاً في أن يقتل

إنساناً، لا بدّ أن يكون هناك قصاص.

﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾: فإن قتل حرّ عبداً، أو قتل ذكرٌ أنثى، فما معنى هذا؟ الآن يأتي المتطرّفون والّذين لا يفهمون من الدّين شيئاً ويفسّرون هذه الآية: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ فإذا افترضنا أنّ ذكراً قتل أنثى، فما هي الدّيّة؟ إذا الذّكر قتل أنثى وإذا الحرّ قتل عبداً أو إذا عبد قتل حرّاً، ما الحكم؟ إذا كان الإنسان لا يعلم بأمور التّفسير فهذه هي المشكلة، مشكلة الجهل بالدّين، لذلك نقول: إذا أردتم أن تحاربوا التّطرّف والتّكفير والتّشدّد والإرهاب، وجميع الجماعات التّكفيريّة التي أخذت من الإسلام ستاراً، عليكم بالعودة إلى العلوم الدّينيّة الشّرعيّة؛ لأنّ الّذي يحارب حقيقة هو العالِمُ وهو الإنسان المتعلّم إنّما يُحارب بالعلم، أمّا الّذين يقعون فرائس في شِباك هؤلاء التّكفيريّين فهم الجهلة فقط.

وما تجب معرفته أنّ هذه الآية وردت فيما يتعلّق بحالة الرقّ التي كانت موجودة زمن التّنزيل والمعالجة التّدريجيّة لها، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النّساء: من الآية ٤٣]، هذه الآية نزلت أوّلاً في الخمر قبل أن ينزل النّصّ بتحريمها، كذلك هذه الآية وردت في قبائل كانت متنازعة، فهذه القبائل المتنازعة كانت إن قتل حرّ عبداً أو قتل عبد حرّاً فلا يقتل شخص واحد مقابله بل يُقتل مئة شخص وهكذا... فوُضع تقنين خاصّ لهذه الحالة، وبعد ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ

﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾ [المائدة: من الآية ٤٥]، بعد ذلك لا يوجد هذه أُنثى وهذا رجل، هذا عبد وهذا حرّ.. كلّ ذلك اسمه نفس، وكلّ القتل قتل، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: من الآية ٣٢]، انتهى الحكم إذاً، هذه حالة محدّدة لخلافات كانت بين قبائل والثّأر الّذي كان موجوداً، فكانت هذه الآية لمعالجة هذا الأمر لتقييد هذا الانفلات القبليّ الّذي كان موجوداً قبل الإسلام، قيّده أوّلاً وبعد ذلك أطلق الحكم الّذي هو: ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ...﴾، ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا...﴾، لم يعد هناك تفريق، رجل قتل أنثى.. فهل الأنثى أقلّ من الرّجل؟ والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات]، لم يقل: أكرمكم الذّكر أو الأنثى بل قال ﷻ: ﴿أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ والخطاب يوجّه دائماً للجميع: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النّحل]، إذاً العمل الصّالح والجزاء والعقاب والمسؤوليّات والتّكاليف والواجبات والحقوق يتساوى فيها الذّكر والأنثى، فلا يحتجّنّ أحدٌ بهذه الآية كمن يحتجّ بقوله: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النّساء: من الآية ٤٣]، يقول لك: لا تصلّ، هذه آية في القرآن، هكذا يستخدم أعداء الدّين الآيات، ويجتزئون منها، ويأخذون الآية على غير محملها وفي غير سياقها، وفي غير محلّها، ويسقطونها على حكم آخر، ينزلون الآية على حكم شرعيّ لا يتعلّق بها.

﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾: من عُفي له، فبذلك قد فتح نافذة اسمها العفو، ليس اسمها القتل أو الكره أو الحقد، وقال: ﴿أَخِيهِ﴾ رغم أنّه يوجد اقتتال بينهما، فهم قبائل ويوجد ثأرٌ بينهم، لكنّه قال: ﴿أَخِيهِ﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: من الآية ١٠]، فجعل الله ﷻ بين المؤمنين رابطة الأخّوة. جاء رجل إلى أحد الخلفاء فقرع الباب، فقال له الحاجب: من يريد أن يدخل على الخليفة؟ قال: قل له: أخوك، فقال الحاجب للخليفة: إنّ أخاك بالباب، قال: أدخله، فدخل فنظر إليه وقال: لِمَ تدّعي أنّك أخي؟ فقال له: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾، فقال الخليفة: رحمٌ مقطوعة، والله لأكوننّ أوّل من يصلها، وأمر له بصلة.

﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾: حتّى بالدّيّة يجب أن يكون أداؤها بإحسان.

﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾: تخفيف عن الثّأر وعوامل الانتقام.

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: توعّد من تجاوز وبغى بعد أن نزلت الآيات في موضوع القصاص بالعذاب الأليم، طبعاً لا عقوبة إلّا بنصّ.

(الآية ١٧٩) - ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾:

﴿وَلَكُمۡ﴾: أي أنّ فيها خيراً لكم كلّكم؛ لأنّ الله عندما يشرّع، يشرّع لكلّ البشر لا يشرّع لك فقط، إذا أنت اعتديت على غيرك، أنت تنظر إلى تشريع القصاص على أنّه عليك، بينما هو لغيرك؛ لأنّك أنت المعتدي، إذاً

قوله ﷻ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ﴾ كمجموعة، كمجتمع، كأمّة.

﴿الْقِصَاصِ﴾: من قصّ الأثر أي تتبّع الجريمة.

﴿حَيَوٰةٌ﴾؛ لأنّه لولا القصاص والعقوبة ما كانت هناك حياة، ولأكل النّاس بعضهم بعضاً، فلماذا تنظر إلى المعاقَب كإنسان ولا تنظر إليه كمجرم؟ لماذا تقول: هذه العقوبة شديدة، قانون العقوبات في الإسلام جاء للرّدع والمنع، وليس للقطع، فإن لم تمتنع ولم ترتدع فيكون الجزاء، لذلك وُضِعت القوانين الجزائيّة وشُرِعَت العقوبات، ولا يمكن لحياة أن تستمرّ ولا يمكن لحياة أن تتقدّم إلّا من خلال العقوبات الجزائيّة وهذا أمر هامّ، لو لم نقتصّ من القاتل، ونعاقب السّارق... لأصبحت الحياة فوضى لا تُطاق، ورغم وجود محاكم وعقوبات وقصاص فإنَّ النّاس لم يرتدعوا.

﴿يَٰٓأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ﴾: من له عقل يعرف أنّ في القصاص حياة وليس موتاً، هذا الحدّ وُضِع للحياة ولم يُوضَع للموت، وُضِع من أجل أن يحيا الآخرون، فالمجرم والقاتل والسّارق والزّاني يجب أن يطبّق عليه الحدّ، العقوبات تمنع الجريمة، وتحمي المجتمع، إذاً هل في القصاص من القاتل ممات أم حياة؟ فأنت عندما تحكم على الجاني، فأنت قد أحييت الآلاف؛ لأنّك منعت الجريمة، وهذا هو الأساس في قانون العقوبات، ﴿يَٰٓأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ﴾ ذوو العقول يعلمون أنّ هذه الأحكام هي التي تحيا بها الأمم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: كما لك حقوق، فعليك أيضاً واجبات، تأخذ حقّاً مقابله واجب تؤدّيه للوطن وللمجتمع.

(الآية ١٨٠) - ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾:

ربّما يعترض أحدهم ويذكر قول النّبيّ ﷺ: «**لا وصية لوارث**»[1]، ونحن نعلم أنّ السُّنّة تخصّص عموم القرآن، الآن يأتي أحدهم ويقول: هذه الآية في القرآن: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ ﴾ والوالدان يرثان، نجيبه أن هذه الآية قبل أن يخصّص الله للوالدين نصيباً من الميراث، فعندما أصبح للوالدين ميراثٌ نُسِخ الحكم ولم يعد هناك وصيّة للوالدين، وأيضاً يوجد معنى آخر ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ هذا في المال، لكن قد يكون الخير أشمل وأوسع من المال، لكن قال المفسّرون: المقصود بالخير هنا الزّيادة في المال الّذي يترك، فالأبوان كانا لا يرثان قبل أن يرد في الميراث نصيب للأب والأمّ، وكانت العرب قبل الإسلام تورّث الأبناء ولا تورّث الآباء والأمّهات، معتبرين جيل الآباء والأمّهات مضى وانتهى وقته ودائماً تتّجه العواطف إلى الأبناء والبنات، فأوّل ما نزل التّشريع نزل إن كان هناك وصيّة فللوالدين، بعد ذلك أصبح هناك حصّة في الميراث للوالدين فلم يعد هناك وصيّة لهما.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾: ﴿ إِذَا ﴾ و﴿ إِن ﴾ هل يوجد بينهما فرق؟ دعونا نضع إن مكان إذا: كتب عليكم إن حضر أحدكم الموت، هذا مستحيل أن يكون قرآناً؛ لأنّ (إن حضر) معناها قد يحضر الموت وقد لا يحضر، فهل هناك من لا يموت؟ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّكَ

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الوصايا، باب لا وصيّة لوارث، الحديث رقم (٢٧١٤).

﴿مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزّمر]، الموت كُتب على كلّ إنسان، نقول مثلاً: إن جاء أحمد فأكرموه، معناه يمكن أن يأتي ويمكن ألّا يأتي، أمّا قولي: (إذا جاء أحمد) فأنا متأكّد أنّ أحمد سيأتي، فكلّ حرف في القرآن الكريم له معنى، انظروا لدقّة القرآن: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ معناها سيحضر الموت، وهو منفصل عنك، حضر وكأنّه ذات مجسّدة وسيأتي لا محالة، وأنت غير قادر على أن تردّه عن نفسك: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: من الآية ٣٤].

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾: لماذا لم يقل: إذا ترك؟ لأنّه لو استُعملت (إذا) لأعطت معنى أنّ كلّ النّاس تموت ويوجد معها مال، أمّا ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ فقد يترك مالاً وقد لا يترك، قد يكون فقيراً عندما يموت، وهذا الفرق بين (إذا) و(إن).

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾: أوّل ما يوصي به الإنسان يبدأ بالوالدين، وهما أفضل النّاس على وجه الأرض، وأوجبهم حقّاً عليه، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، مَن أحقّ النّاس بحسن صحابتي؟ قال: «أمّك»، قال: ثمّ مَن؟ قال: «ثمّ أمّك»، قال: ثمّ مَن؟ قال: «ثمّ أمّك»، قال: ثمّ مَن؟ قال: «ثمّ أبوك»(١).

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾: هذا حقّ وواجب على مَن؟ على المتّقي، وإن لم

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، باب من أحقّ النّاس بحسن الصّحبة، الحديث رقم (٥٦٢٦).

تكن مُتّقياً لله فأوصِ لمن تريد، ولكن إن أنت تركت خيراً، فهذا الخير يجب أن يكون أوّلاً للوالدين، بعد ذلك للأقربين، وتترك الأولاد لماذا؟ لأنّ هنا لا الوالدان ولا الأقربون كانوا يرثون، كانوا يورّثون فقط الأبناء، حتّى البنات كنّ يُحرمن من الميراث.

(الآية ١٨١) - ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾:

لأنّ الوصيّة إن لم تكن مكتوبة موثّقة فهناك من يُبدّل ويغيّر، فالإثم يقع على الّذي بدّل، وليس على الّذي أوصى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى مطّلع يسمع نجوى الإنسان، ويعلم ما تُخفي الصّدور.

(الآية ١٨٢) - ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾:

في سورة (النّساء) نزلت الآيات فحدّدت المواريث، ووضعت للوالدين نصيباً مفروضاً واضحاً من الميراث، وللأولاد نصيب معروف، لذلك الوصيّة في الثّلث فقط، كما ورد في الحديث: قال سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه: كان النّبيّ صلى الله عليه وسلم يعودني وأنا مريض بمكّة فقلت: لي مال، أوصي بمالي كلّه؟ قال: «لا»، قلت: فالشّطر؟ قال: «لا»، قلت: فالثّلث؟ قال: «**الثّلث، والثّلث كثير**»[1]، فأقرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ الوصيّة لا تتجاوز الثّلث، فإذاً لا يحقّ لك

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب النّفقات، باب فضل النّفقة على الأهل، الحديث رقم (٥٠٣٩).

أن توصي بالميراث لا للوالدين ولا للأولاد، لقوله ﷺ: «لا وصية لوارث»[1]، فكلّ من له سهم في الميراث لا وصيّة له، وأولى النّاس بالوصيّة الأقارب، من أين عرفنا ذلك؟ من هذه الآية، أقرب النّاس بدرجة القربى والّذين ليس لهم سهم في حصص الميراث، وهم بحاجة طبعاً، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾ [النّساء].

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾: ما معنى الجنف؟ الجنف هو الانحناء عن الحقّ والعدل، ومن هنا جَنَفُ العمود الفقريّ، أي: انحناؤه عن الاعتدال وتقوّسه.

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾: يعني أنّه تدخّل لأجل الإصلاح.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: لو حضر المؤمن مجلساً فيه رجل يوصي لمن بعده وصيّة فيها حيف أو ظلم أو جور، أو وصّى بما يخالف الشّرع فحاول أن يصلح ما في هذه الوصيّة فلا إثم عليه، أي أصلح هذه الوصيّة بما يرضي الله تبارك وتعالى أو أنّه أقنع هذا الرّجل أن يوصي بما يُرضي الله، ولا يتجاوز في وصيّته الثّلث، وأن يوصي للأقربين، وألّا يوصي لوارث، وأن لا يخالف الشّرع في الوصيّة، فلا إثم عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: يعني إصلاح موضوع الوصيّة أن تكون وفق الضّوابط الشّرعيّة هو أمر هامّ؛ لأنّ الوصيّة آخر ما يفعله الإنسان، وآخر

---

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الوصايا، باب لا وصيّة لوارث، الحديث رقم (٢٧١٤).

فعل سيحاسب عليه قبل أن يترك الدّنيا، نعم هو يكتب الوصيّة قبل الوفاة، لكنّ أثرها سيكون بعد وفاته، لذلك لا بدّ من إصلاح هذه الوصيّة، وأن يفعل الإنسان كلّ ما يستطيع ليحكّم الشّرع فيما يوصي به وفق الضّوابط الشّرعيّة.

ويظلّل كلّ هذه الآيات وكلّ هذه الأمور بغفران الله ﷻ ورحمته التي وسعت كلّ شيء.

(الآية ١٨٣) - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾:

فرض الله تبارك وتعالى صيام شهر رمضان في شعبان من السّنة الثّانية للهجرة، فكيف هيّأ النّبيّ ﷺ المسلمين والمجتمع لاستقبال رمضان، ماذا فعل قبل رمضان؟ ماذا يجب علينا أن نعدّ لاستقبال هذا الضّيف الكريم؟ لله درّك يا رمضان، كم لك من أياد تسديها، كلّما آذنت شمسك بالشّروق، وحلّ طيفك في الدّيار، فعن سيّدنا سلمان الفارسيّ رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يومٍ من شعبان فقال: «**أيّها النّاس، قد أظلّكم شهر عظيم، شهر مبارك شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوّعاً، من تقرّب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدّى فريضة فيما سواه، ومن أدّى فيه فريضة كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصّبر، والصّبر ثوابه الجنّة، وشهر المواساة، وشهر يُزاد فيه رزق المؤمن، من فطّر فيه صائماً كان له مغفرة لذنوبه وعتق**

رقبته من النّار، وكان له مثل أجره، من غير أن ينتقص من أجره شيء»، قلنا: يا رسول الله، ليس كلّنا يجد ما يفطّر الصّائم، قال: «**يُعطي الله هذا الثّواب من فطّر صائماً على مذقة لبن أو تمرة أو شربة من ماء، ومن أشبع صائماً سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ حتّى يدخل الجنّة، وهو شهر أوّله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النّار، فاستكثروا فيه من أربع خصال، خصلتان ترضون بها ربّكم، وخصلتان لا غنى لكم عنهما، فأمّا الخصلتان اللّتان ترضون بهما ربّكم فشهادة أن لا إله إلّا الله وتستغفرونه، وأمّا اللّتان لا غنى لكم عنهما فتسألون الله الجنّة وتعوذون به من النّار**»[1] بهذا الحديث الجامع الشّامل هيّأ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام المجتمع لاستقبال رمضان، ونحن نستقبل رمضان الكريم المبارك بهذه الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ إذاً عندما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فلنعلم أنّ هناك أمراً تكليفيّاً، أمّا بعد قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو أمر إخباريّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾: وكُتب فعل مبنيّ للمجهول، ليس كتب الله عليكم الصّيام، إنّما ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ لماذا جاء الفعل مبنيّاً للمجهول؟ الجواب: أنّ هناك طرفين، هناك طرف هو الرّبّ

---

(١) شعب الإيمان: الباب الثّالث والعشرون من شعب الإيمان وهو: باب في الصّيام، فضائل شهر رمضان، الحديث رقم (٣٦٠٨).

الّذي تعاقد مع العبد بعقد الإيمان، وهناك العبد الّذي تعاقد مع الرّبّ ﷻ فآمَنَ به، فخذ منه التّكليف دون النّظر إلى مشقّته، انظر إلى رفعة التّكليف وسموّه، إلى عطاء التّكليف، وليس إلى مشقّة التّكليف، فستعلم بعد قيامك بتنفيذ التّكليف ما هو العطاء لهذا التّكليف.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾؛ لأنّكم آمنتم، من لم يؤمن لم يُكتب عليه الصّيام، نحن لا نجبر النّاس على أمور الإيمان ومتطلّبات الإسلام، وإنّما من آمن فهو الّذي اختار؛ لأنّه آمن، إذاً ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي فرض عليكم الصّيام، لكن النّبيّ في الحديث الّذي قدّمت به وأهّل به المجتمع بقدوم رمضان قال: «**أيّها النّاس**»، ولم يقل: يا أيّها الّذين آمنوا، لماذا؟ الفارق واضح، لاحظوا بقيّة الجملة النّبيّ ﷺ قال: «**أيّها النّاس قد أظلّكم شهر**» هذا الشّهر يظلّ المؤمن وغير المؤمن، لا يوجد في خطاب النّبيّ ﷺ تكليف، وإنّما إخبار، هو يخبر المجتمع بأنّ هذا الشّهر قد حلّ، قد أظلّ ببركته المؤمن وغير المؤمن؛ لأنّ بركة شهر رمضان وعطاءه وفيوضاته تكون على كلّ النّاس، على الفقير المؤمن وغير المؤمن، على المجتمع بمجمله، المجتمع يصبح وحدة متكاملة متعاضدة، يصوم المجتمع في وقت واحد، ويفطر على مأدبة الإفطار في وقت واحد، المجتمع في وقت واحد في صلاة التّراويح، المجتمع في وقت واحد ينفّذ الأوامر، المجتمع في وقت واحد ينتهي عن المنهيات، في الصّوم مجتمع متكامل إيمانيّ يتحقّق فيه قوله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو**

تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى»[1]، يصبح المجتمع مجتمعاً مثاليّاً ببركة القرآن، وبركة رمضان تحلّ على كلّ النّاس وليس على المسلمين فقط، فالمسلم في رمضان يصبح مَلَكاً طهوراً، المسلم في رمضان يعطي الفقير، المسلم في رمضان يصبر على أذى الجار، المسلم في رمضان لا يسبّ ولا يشتم، ليس الصّيام عن الطّعام والشّراب فحسب، وإنّما الصّيام عن اللّغو والرّفث أيضاً، فإن سابّه أحد أو خاصمه فليقل: إنّي صائم، إذاً فخير الصّائم يعود على الغير، وهذه هي المدرسة التّدريبيّة التأهيليّة، أن يشعّ صفاء رمضان وروحانيّته على بقيّة الأزمنة وليس فقط في شهر رمضان، وهذا ما أراده المولى ﷻ بهذه المدرسة التّدريبيّة الرّمضانيّة، مدرسة رمضان هي أن يشعّ الخير على الغير، وأن يكون هذا الإنسان الصّائم صابراً، أن يكون هذا الإنسان الصّائم لا يؤذي الجار، أن يكون هذا الإنسان الصّابر لا يغتاب ولا ينمّ ولا يكذب ولا يسرق ولا يرتشي، يردعه الصّيام، فإذا ردعه الصّيام في رمضان فقد تأهّل في معهد، معهد تأهيل إنسانيّ راقٍ جدّاً، وليس معهد تنميّة بشريّة وليس معهداً لتأهيل مدرّبين، معهد تأهيل اسمه الصّيام، هذا هو معنى الصّيام، إذاً قول النّبيّ ﷺ: «**أيّها النّاس قد أظلّكم شهر عظيم**»؛ لأنّ الشّهر العظيم المبارك هو شهر قد أظلّ النّاس جميعاً، لم يقل: كُتب عليكم، أمّا الآية القرآنيّة فجاءت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾.

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، الحديث رقم (٢٥٨٦).

ما معنى الصّيام في اللّغة العربيّة؟ معناه: الإمساك، والإمساك ليس فقط عن الطّعام والشّراب، وكلمة الصّيام: قد تشمل الإمساك عن الكلام أيضاً كما في قول السّيدة مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: من الآية ٢٦]، إذاً صيام عن الكلام، لكن معنى الصّيام الاصطلاحيّ الشّرعيّ: هو الامتناع عن الطّعام والشّراب وسائر المفطرات (شهوتي البطن والفرج) من الفجر إلى غروب الشّمس.

نقرن بين تفسير الآية وتطبيق وتأهيل النّبيّ ﷺ للمجتمع لدخول رمضان، فمع الآية نُدخل الحديث النّبويّ، إذاً الصّيام كان في كلّ الأديان وفي كلّ المجتمعات ولكلّ البشر، لكن ربّما اختلفت أحكام الصّيام، قد يكون الصّيام عن نوع من الطّعام، قد يكون الصّيام أيّام متعدّدة من دون توّقف، قد يكون الصّيام عن الكلام، إذاً كلّ الأنبياء جاؤوا بالصّلاة وبالصّيام، إذاً ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: ليست الغاية من الصّوم الإمساك عن الطّعام والشّراب فقط، وإنّما الغاية هي التّقوى، لذلك لم يقل: لعلّكم تجوعون أو لعلّكم تعطشون، وإنّما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، والتّقوى بالمعنى العامّ الشّامل جوامع كلّ العبادات والطّاعات، ولقد عُرّفت بعدّة تعريفات منها التّعريف الشّهير لسيّدنا الإمام عليّ كرّم الله وجهه عندما سُئل عن التّقوى فقال: "التّقوى الخوف من الجليل والعمل بالتّنزيل"، أي العمل بكتاب الله، والرّضى بالقليل، والاستعداد ليوم الرّحيل، هذه الكلمات تشمل كلّ أنواع

الطّاعات، إذاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تأهيلٌ لتحقيق التّقوى.

شهر رمضان مدرسة تأهيليّة تدريبيّة لتحقيق التّقوى المطلوبة. فيرقّي النّبيّ ﷺ المجتمع المسلم بتوجيهه، «**قد أظلّكم شهر عظيم، شهر مبارك شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوّعاً، من تقرّب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدّى فريضة فيما سواه، ومن أدّى فيه فريضة كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه**»، إذاً هناك موسم في رمضان لتضاعف الحسنات والخيرات والرّحمات والبركات، لذلك هو شهر مبارك، شهر التّجلّيات، إن قمت بفريضة كأنّك قمت بسبعين فريضة، وإن تقرّبت بخصلة من الخير فكأنّك أدّيت فريضة فيما سواه، إذا قمت باللّيل تطوّعاً فكأنّك قمت بعدّة فرائض، هو مجموعة متكاملة من العبادات التي تعود بالخيرات على البشر جميعاً مسلمين وغير مسلمين، على المجتمع بأكمله ويتابع النّبيّ ﷺ: «**وهو شهر الصّبر، والصّبر ثوابه الجنّة، وشهر المواساة، وشهر يُزاد فيه رزق المؤمن**»، هو شهر الصّبر؛ لأنّ الصّائم صابر، في رمضان تمتنع عمّا ألفته من عادة؛ وذلك أنّ الإنسان اعتاد أن يأكل ويشرب وينام ضمن ترتيب أَلِفه، وفي رمضان تغيير للعادات، ففي كلّ حركة تغيير في المجتمع، نغيّر من أسلوب حياتنا كما أمر ربّنا ﷻ، فلا بدّ من الصّبر على هذا التّغيير. إذاً مفتاح أيّ عملية تغيير هي بالصّيام، لذلك نجد أنّ النّبي ﷺ عندما أمر الشّباب بالزّواج قال: «**يا معشر الشّباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوّج ومن لم يستطع فعليه**

بالصّوم فإنّه له وِجاء»[1]، وقاية بالصّوم وقاية بعمليّة التّغيير، بالامتناع عن الطّعام والشّراب، أصبح الإنسان في حالة جديدة، تغيير شامل طرأ على حياته لا بدّ له من الصّبر عليه، لذلك كان رمضان شهر الصّبر. وهو شهر المواساة؛ لأنّ الصّائم يشعر بغيره، يشعر بالفقير، من مقاصد الصّيام أن تشعر بألم الجوع والعطش، فتذكر الفقير، لذلك شرع لك إن لم تستطع أن تصوم عن الطّعام أن تُطعم الطّعام، إذاً هو عمليّة تكافل في المجتمع، هو شعور بآلام المحتاجين، بآلام المهجّرين، بآلام البؤساء والفقراء، لذلك هو شهر الصّبر والمواساة، وهو شهر يزداد فيه رزق المؤمن، يقول ﷺ: **«ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا»**[2]، تجد النّاس جميعهم يخرجون زكاة أموالهم ويتصدّقون في رمضان، قال النّبيّ ﷺ: **«من فطّر فيه صائماً كان له مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النّار، وكان له مثل أجره، من غير أن ينتقص من أجره شيء»**، هذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلّكم تتّقون بكلّ هذه المعاني التي أوردها النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام.

(الآية ١٨٤) - ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾:

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب النّكاح، باب قول النّبيّ ﷺ: **«من استطاع منكم الباءة فليتزوّج فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج»**، الحديث رقم (٤٧٧٨).

(٢) مسند البزّار: المجلّد الأوّل، مسند عبد الرّحمن بن عوف، الحديث رقم (١٠٣٢).

﴿أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾: هو أيّام طبعاً، فمعظم العلماء قالوا: إنّ هذه الآيات كانت بداية لفريضة الصّيام حيث أنّ المسلم كان مخيّراً في أن يصوم أو لا يصوم، وكان الصّوم لمدّة ثلاثة أيّام في العشرة والعشرين والثّلاثين من الشّهر، ثلاثة أيّام فقط في الشّهر، بعد ذلك جاءت الفريضة بصيام شهر رمضان بأكمله، لذلك نجد أنّ الآيات لا يوجد فيها تكرار، فيها تدرّج في الحكم، والتّدرّج في الحكم في القرآن الكريم يأتي لأجل إلف العادة، كذلك كان التّدرّج في تحريم الخمر؛ لأنّ النّاس ألفت أن تشرب الخمر في المجتمع، فدائماً الإسلام دين تيسير، والله ييسر لعباده، والعباد يريدون العسر، لذلك من سياق الآيات يتبيّن التّيسير، فإذا كان المسلم مريضاً أو على سفر يُفطر ويقضي بعد ذلك عدّة من أيّام أخر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره فرأى رجلاً قد اجتمع النّاس عليه، وقد ظلّل عليه فقال: «**ما له؟**»، قالوا: رجل صائم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ليس من البرّ أن تصوموا في السّفر**»[1]، إذاً ليس من البرّ الصّيام في السّفر، وكلمة سَفَرَ الشّيءُ أي ظهر ووضح، والسَّفَرُ: انتقال وفي الانتقال تغيير للعادات، ليست القضيّة أنّه سافر بالطّائرة أو بالسّيّارة أو على الفرس بمشقّة أو دون مشقّة، أطلقها الله سبحانه وتعالى فهي رخصة.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: لو أنّ الأمر يتعلّق بالإفطار لكان المولى سبحانه وتعالى قال: فأفطر، لاحظوا دقّة الأداء

(١) صحيح مسلم: كتاب الصّيام، باب جواز الصّوم والفطر في شهر رمضان، الحديث رقم (١١١٥).

القرآنيّ وعظمة كتاب الله قال ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ماذا؟ ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ حُذفت فأفطر؛ لأنّه لم يفطر؛ ذلك أنّ الّذي أمره بالصّيام رخّص له بالإفطار بقوله تبارك وتعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ هل رأيتم كم أنّ الدّين يسر؟ وكيف أنّ التّكفيرين والقساة الّذين يريدون أن يحوّلوه إلى دين قسوة وعنف وتكفير، وهو دين يسر، حتّى كلمة أفطر لم يذكرها الله ﷻ، فالمسافر والمريض لهما رخصة الإفطار ثمّ الصّيام بعد رمضان بعدد الأيّام التي أفطراها كما قال ﷻ: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: يطيقون معناها يقدرون، وقال بعض المفسّرين: حذفت (لا)؛ إذ الأصل كما يرون لا يُطيقونه، لكن الأرجح أنّ الآية واضحة ولم تحذف (لا)؛ لأنّ هذه الآيات ليست هي التي أشارت إلى فريضة شهر رمضان، هذه الآيات هي أحكام الصّيام بشكل عامّ، قبل الحكم فيما يتعلّق برمضان، الآن الآيات بشكل عامّ الّذين يطيقونه يقدرون أن يصوموا أو أن يدفعوا فدية. فخيّرهم الشّارع بادئ الأمر بين أن يصوموا أو يُطعموا، هذا التّطوّع بالخير، فإن لم تستطع أن تصوم فعليك أن تفدي صيامك بإطعام غيرك، هذا الدّين لا يقتل الغير، بل يُطعم الغير، ويعطي الغير، ويرحم الغير.

﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: أيّ مسكين؟ إذا أنت لم تستطع الصّوم بسبب المرض، هنا الآيات لا تتعلّق برمضان، هذا الكلام قبل أن يُفرض صيام شهر رمضان، أمّا إن كنت لا تستطيع الصّيام فتفدي ذلك، أي تطعم في كلّ يوم عن صيامك طعام مسكين.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ﴾: فمن أطعم مسكينين أو أكثر فهو خير له.

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: هو يهيّئ المجتمع الإسلاميّ لصيام شهر كامل، هذه الآيات هي آيات درّجت الحكم فيما يتعلّق بالصّيام وأحكامه، صيام شهر رمضان قبل أن تأتي الفريضة، ثمّ أتى الأمر بالفريضة ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ فرض صيام شهر رمضان بأكمله وانتهى الموضوع، أمّا الآن: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾ لا يأتي أحدٌ فيقول: الله قال في القرآن: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، وأنا لا أطيق الصّيام أُطعم الطّعام، هذا التّخيير كان أوّلاً ثمّ أتت الآية التّالية فحسمت الموضوع وبيّنته، فهذا التّخيير انتهى بعد فرض صوم رمضان كركن تعبّدي، ركن من أركان الإسلام هذا تدريج بالحكم أراده المولى سبحانه وتعالى حتّى يعتاد المجتمع على صيام شهر رمضان بأكمله.

(الآية ١٨٥) - ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾:

الآن تبدأ الأحكام المتعلّقة بشهر رمضان.

﴿شَهۡرُ﴾: من الإشهار، وهو الإعلان، الشّهر يتعلّق بالقمر، واليوم

يتعلّق بالشّمس، لذلك شهر يُشهر عندما ترى القمر هلالاً، وكلّ العبادات من زكاة وصيام وحجّ تتعلّق بالشّهور.

﴿رَمَضَانَ﴾: من الرّمضاء وهي الحرّ الشّديد، أو أنّه عندما نزل الأمر الإلهيّ بصوم رمضان كان رمضان في أشهر الحرّ.

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾: إذاً قيمة شهر رمضان بأنّه كان الوعاء الزّمنيّ لاستقبال القرآن الكريم.

نعود إلى الحديث الّذي أَهَّل به النّبيّ ﷺ المسلمين لقدوم رمضان، ماذا قال فيه؟ «**أيّها النّاس قد أظلّكم شهرٌ عظيمٌ مباركٌ**»، شهر عظيم مبارك فيه ليلة خير من ألف شهر، نزل القرآن الكريم في هذه اللّيلة المباركة التي هي ليلة القدر، إنّ نزول القرآن في شهر رمضان أي أنّ الظّرف الزّمانيّ لاستقبال الفيوضات الإلهيّة كان في رمضان، فجُعل رمضان محلّاً للصّيام، لو نزل القرآن في رجب لكان: كتب عليكم الصّيام في رجب، إذاً قيمة رمضان من نزول القرآن فيه، وإنّما كان الصّيام ورمضان إجلالاً لنزول القرآن، فالّذي يصوم ولا يقرأ القرآن ولا يلتفت إلى القرآن ولا يعمل به فليس له من صيامه إلّا الجوع والعطش كما قال نبيّنا ﷺ. إذاً الحديث الّذي أَهَّل به النّبيّ ﷺ المجتمع لقدوم رمضان وقال: فيه ليلة خير من ألف شهر، هذه اللّيلة هي ليلة التّجلّي الإلهيّ لنزول القرآن، لذلك نزلت كوكبة من الملائكة، ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [القدر].

هذه الآيات المتعلقة بفرضيّة الصّيام في شهر رمضان، وهو شهر

الرّحمات والخيرات والبركات، فيه إجابة الدّعاء، شهر الصّبر، شهر المغفرة، شهر الرّحمة، الشّهر الّذي تنزّل فيه القرآن الكريم على قلب سيّد الأنام محمّد صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم، ولا شكّ بأنّ فريضة الصّيام تحمل الإنسان على الامتناع عن الطّعام والشّراب، وترك شهوة البطن والفرج، لذلك تحتاج إلى الصّبر، وشهر رمضان هو شهر الصّبر وهو شهر الانتصارات أيضاً، فيه جرت أوّل معركة بين الحقّ والباطل وهي غزوة بدر، وكان فيها النّصر العزيز المؤزّر للإسلام والمسلمين، وفيه فتح المسلمون مكّة المكرّمة.

عندما كلّفنا الله ﷻ التّكاليف، كلّفنا ليعطينا وليس ليحرمنا، لذلك في نهاية آيات فريضة الصّوم بيّن الله ﷻ بأنّه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر، فإذا وجدتم تعسيراً في أمر من أمور الدّين، فاعلموا أنّه من اجتهاد الإنسان وليس تنزيلاً من ربّ الإنسان، فنبيّنا محمّد ﷺ بعث هادياً ومبشّراً ونذيراً وميسّراً وليس معسّراً، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٦]، والله ما كلّف إلّا على الوُسع، فلا يقولنّ قائل: إنّني لا أستطيع أداء هذه الفريضة، فالله ﷻ كلّف الإنسان على قدر وسعه وطاقته، وهو أعلم به، ولو لم يكن بمقدور الإنسان الصّيام ما كلّفه الله ﷻ به، واستثنى طبعاً المريض والمسافر من هذه الأحكام: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وتذييل الآية التي تتحدّث عن شهر رمضان جاء: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٨٥﴾؛ لأنّك في

نهاية شهر الصّوم أو في نهاية كلّ يوم من صيام رمضان تشعر بلذّة العطاء، صحيح بأنّك مُنعت ولكنّك أُعطيت، مع المنع هناك منح وعطاء تشعر بتلك التّجليّات، تشعر بالقرب من المولى سبحانه وتعالى لذلك فإنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول: «**ثلاثة لا تردّ دعوتهم، الإمام العادل، والصّائم حين يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام وتفتح لها أبواب السّماء ويقول الرّبّ عز وجل: وعزّتي لأنصرنّك ولو بعد حين**»[1]، فإذاً هذا القرب وهذه التّجليّات وهذه الرّحمات تتعلّق طبعاً بنزول القرآن، القرآن الكريم الّذي هو رحمة للبشريّة جمعاء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: من الآية ٨٢]، فيه شفاء من أمراض النّفوس، يعالج بقيمه وتعاليمه، وهو رحمة؛ لأنّه يهدي النّاس إلى سبيل الرّشاد، وإلى الصّراط المستقيم، ويقود الإنسان إلى سعادة الدّنيا والآخرة، والمتأمّل في القرآن الكريم يجد أنّ آيات أحكام الصّوم فُتحت بآية واحدة وقُطعت بآية.

وبعد ذلك أتمّ المولى سبحانه وتعالى الحديث عن الصّيام وقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، ولكنّه قطع ما بين فرض الصّوم وما بين أحكام الصّوم قطع بآية واحدة، هذه الآية لها مدلول عظيم وكبير وهي الآية المتعلّقة بالقرب من الله سبحانه وتعالى وبلذّة التّعب في سبيل مرضاته:

(الآية ١٨٦) - ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾:

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب صفة الجنّة، باب صفة الجنّة ونعيمها، الحديث رقم (٢٥٢٦).

هذه الآية قطعت ما بين فريضة الصّوم وما بين أحكام الصّوم، لها معنىً عظيم هو أنّك عندما تُمنع تُمنح، وأعظم المنح أن تشعر بالقرب من الله تبارك وتعالى.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى﴾: إذ أنّه من الطّبيعي ومن الضّروري أن يشعر العبد بالقرب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾.

وردت مادّة السّؤال في القرآن الكريم عدّة مرّات وهي من عظمة هذا التّنزيل وهذا التّشريع، فبعد أن نزل القرآن الكريم دفعة واحدة من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا، نزل منجّماً على قلب المصطفى ﷺ، ليؤدّي دوره في الهداية مع سيّدنا رسول الله ﷺ حسب الأحداث، ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: من الآية ٣٢]؛ تثبيتاً لفؤاد النّبيّ ﷺ، وإجابةً على التّساؤلات، فهذه الآيات تأتي إجابة على تساؤلات البشر، هي موجودة في اللّوح المحفوظ لكن تتنزّل عند السّؤال.

والسّؤال في القرآن يأتي مثلاً: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: من الآية ٢١٩]، و﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: من الآية ٢١٩]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٩]، ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب]، نلاحظ أنّ مادّة السّؤال دائماً فيها جواب ﴿قُلْ﴾؛ لأنّ السّؤال موجّه لسيّدنا رسول الله ﷺ والإجابة ستكون من سيّدنا رسول الله ﷺ للسّائل فتأتي ﴿قُلْ﴾ دائماً، باستثناء آية واحدة فقط

هي ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥﴾ [طه]، هي الوحيدة التي أضاف الله سبحانه وتعالى الفاء على (قل) لماذا؟ لأنّه لم يكن قد سُئل النّبيّ ﷺ عن هذا السّؤال فإن سألوك فقل، أمّا كلّ الآيات التي نزلت على النّبيّ ﷺ قد سُئل عنها، سألوه عن الأهلّة فجاء الجواب: ﴿قُلۡ﴾، سألوه عن الإنفاق فجاء الجواب ﴿قُلۡ﴾، سألوه عن السّاعة فجاء الجواب ﴿قُلۡ﴾، إذاً دائماً ﴿قُلۡ﴾ إلّا هذه الآية، ما سألوه هم بعد، لكنّ العالِم العليم بالبشر عَلِمَ أنّهم سيسألونه، فهي الآية الوحيدة التي نزلت قبل أن يُسأل النّبيّ ﷺ عن الجبال لذلك جاء الجواب: ﴿فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥﴾ ﴿فَقُلۡ﴾ أي عندما تُسأل عن الجبال فقل يا محمّد: هكذا، وفي قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ حذف الله سبحانه وتعالى فيها ﴿قُلۡ﴾، وهي من تجليّات الصّوم وعظمة الدّعاء إلى الله سبحانه وتعالى، قال النّبيّ ﷺ: «**الدّعاء هو العبادة**»(١)، «**الدّعاء مخّ العبادة**»(٢)، وإذا لم يكن حظّك من الدّعاء الإجابة فليكن حظّك العبادة، فهو عبادة فأنت تتعبّد عندما تسأل الله سبحانه وتعالى.

فإذاً هنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون الجواب مباشراً حتّى أنّه لم يقل للنّبيّ: قل يا محمّد، وإنّما أجاب مباشرة لشدّة القرب للسّائل، لذلك الدّاعي إلى الله قريب إليه، أي أُلغيت المسافات، حتّى كلمة (قل) أُلغيت، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ ليس: قل: إنّي قريب، بل ﴿فَإِنِّي

(١) سنن أبي داود: كتاب سجود القرآن، باب الدّعاء، الحديث رقم (١٤٧٩).

(٢) سنن التّرمذيّ: كتاب الدّعوات، باب فضل الدّعاء، الحديث رقم (٣٣٧١).

﴿قَرِيبٌ﴾ من شدّة القرب، لذلك كما قلنا: فإنّ الدّعاء هو مخّ العبادة، والإنسان يتوجّه بالدّعاء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الضّراء وفي السّرّاء، وهناك أدعية كثيرة تعلمناها من القرآن الكريم دعا بها الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والدّعاء بها مُجاب، منها: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: من الآية ٨٧]، المهمّ أن تسأل، ولا تقل: إنّني دعوت ودعوت ولم يستجب لي، قال ﷺ: «**لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل**»، قيل: يا رسول الله، وكيف يستعجل؟ قال: «**يقول: قد دعوت ولم يستجب لي**»[(١)]، طبعاً قد تكون هناك أسباب، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: من الآية ٦٠]، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾، سُئل النّبيّ ﷺ: أقريب ربّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ عندما تتدبّر القرآن فدائماً حاكِم الأمور، وقل: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النّساء: من الآية ٨٢]، تصوّروا لو أنّ بشراً خطّ القرآن الكريم بيده من فكره، ماذا سيكتب؟ إذا سألك عبادي عنّي قل: إنّي قريب أجيب دعوة الداعِ، أم أنّه يقول: إذا دعانِ؟ لأنّك قد تنظر أنت ببشريّتك أنّ هذه الجملة زائدة، فماذا يفعل الدّاعي؟ أليس يدعو؟! لكنّه أكّد تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِذَا دَعَانِۖ﴾؛ لأنّك أنت تدعو الله وربّما قلبك معلّق بالأسباب، فأراد الله تبارك وتعالى أن يقول لك: إنّ من شروط

---

(١) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: ج٣، باب من اسمه إبراهيم، الحديث رقم (٢٤٩٧).

استجابة الدّعاء أن تتوجّه بالدّعاء لي فكرَّر الأمر، فهو دعا ولكن قد يكون دعا بلسانه وقلبه يتطلّع إلى فلان، القلب ينظر إلى المال، القلب ينظر إلى صاحب الجاه، إلى صاحب السّلطان، إلى صاحب الحاجة التي يريدها منه، إذاً فهو معلّق بأسباب الدّنيا ويدعو، هنا الدّعاء لا يكون متوجّهاً إلى الله تبارك وتعالى، يجب أن يكون هناك صفاء في جهات الإرسال حتّى يستقبل عن الله ﷻ، وهذا لا يتمّ أبداً إذا توجّه الإنسان بالدّعاء باللّسان وقلبه منشغل بغير الله ﷻ، لذلك هناك حديث عن رسول الله ﷺ: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السّائلين**»[1] لماذا؟ ما معنى هذا الحديث؟ نبيّ الله إبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النّار، وفي اللّحظات التي ألقي فيها في النّار اعترضه جبريل عليه السلام فقال له: هل لك من حاجة يا إبراهيم؟ فقال له: أمّا إليك فلا، وأمّا لربّي فعلمه بحالي يغني عن سؤالي، فكان الجواب: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء]، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء]، كان يدعو بذكر الله، كان قلبه معلّقاً بالله ﷻ فكانت الإجابة: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء]، كلّ الأنبياء لهم أدعية، والأدعية التي وردت في

---

(١) شعب الإيمان: العاشر من شعب الإيمان وهو باب في محبّة الله ﷻ، فصل في إدامة ذكر الله، الحديث رقم (٥٧٤).

القرآن الكريم كثيرة على لسان الأنبياء، لكنّ نبيّنا ﷺ قال: «**إنّ لكلّ نبيّ دعوة مستجابة، وإنّي خبّأت دعوتي شفاعة لأمّتي يوم القيامة**»(١)، أرجأها رسول الله ﷺ كي يشفع لنا بها يوم القيامة، إذاً فأوّل شرط من شروط صحّة الدّعاء التّوجّه القلبيّ الخالص إلى الله سبحانه وتعالى، وتناول الحلال لقوله ﷺ: «**أطب مطعمك تكن مستجاب الدّعوة**»(٢).

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾: فليستجيبوا معناها إذا أردت أن تُستجاب دعوتك أجب المتطلّبات التي أمرك بها الله، لا يمكن أن تكون مُقيماً على معصية وتلجأ إلى الله سبحانه وتعالى، فالمعاصي حجاب عن الله، إذا أردت أن تكون مُجاب الدّعوة، وأن تكون قريباً من الله سبحانه وتعالى فمن الطّبيعي أن تستجيب لأوامر الله، لذلك جاءت الآية: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ إذاً هذه شروط الدّعاء فليستجيبوا لي، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ هو يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾؛ لأنّه اختار كلمة ﴿عِبَادِي﴾ لم يقل: عبيدي، عبد مفرد، يُجمع على عباد ويُجمع على عبيد، ما الفرق بين العباد والعبيد؟ العبيد مقهورون بالعبوديّة، أمّا العباد فيأتون طائعين مختارين، لذلك يستخدم المولى سبحانه وتعالى عباد ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: من الآية ٦٣]، وليس عبيد الرّحمن، ولكنّنا عبيد للرّحمن وعباد للرّحمن، لماذا نحن عبيد؟ عبيد بالأمور التي نحن مقهورون بها مثل: الحياة، الموت، الصّحّة، الأجل، حركة القلب، ... هذه نحن

---

(١) شعب الإيمان: الثّامن والأربعون من شعب الإيمان، الحديث رقم (٧٣٢٨).

(٢) مجمع الزّوائد: كتاب الزّهد، باب فيمن أكل حلالاً أو حراماً، الحديث رقم (١٨١٠١).

مقهورون بها فنحن عبيد، أمّا نحن عباد بالاختيار، باختيارنا للطّاعة أو للمعصيّة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]، فالإنسان حُمِّل أمانة الاختيار، لذلك يسمو ويرقى إلى مستوى عباد الله، لذلك قال القائل:

وممّا زادني شرفاً وتيهاً | وكدتُ بأخمصي أطأ الثّريّا
دخولي تحت قولك: يا عبادي | وأن صيَّرت أحمد لي نبيّاً

الله ﷻ يقول: ﴿عِبَادِى﴾ إذاً هم اختاروا الإيمان، فهم يدعون، وإذا سألك يا محمّد عبادي -عبادي؛ لأنّهم اختاروا الطّاعة- عنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الدّاع إذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي، لماذا؟ أليسوا هم مؤمنين بالله؟ لو لم يكونوا مؤمنين لم يكونوا دعوا الله ولم يلجؤوا إليه ﷻ، لو كان القرآن من عند إنسان لم يقل: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾، لكنّ هذا الكتاب من عند الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، تدبّر الآيات لماذا جاءت هنا: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾؟

الإيمان بأنّني حكيم في إجابة الدّعاء، فقد أمنع عنك هذه المسألة ولا أجيب أنت تدعوا بماذا؟ أنت تدعو بمقاييسك للخير، الإنسان بشكل عامّ لا يدعو إلّا بالخير من حيث يحسبه خيراً، ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فُصّلت: من الآية ٤٩]، لا يريد إلّا الخير، فأنت تدعو بأمر ما وتعتقد أنّ فيه خيراً، ولكنّ الله ﷻ يعلم لو أنّه أجاب هذا الدّعاء هو شرّ لك، فبصرفه وعدم إجابته لدعائك يكون قد أجاب وحقّق لك الخير، فيكون قد أجاب

دعوتك، كيف؟ سآتي بمثل -ولله المثل الأعلى-، لو أنّ ابنك طلب منك أن تشتري له مسدّساً وألحّ عليك، هل تشتري له أو تمنعه؟ لا بدّ أنّك تمنعه ولا تشتري؛ لأنّك لو اشتريت له المسدس فإنّ فيه الأذى له، ولا يمكن أن يحقّق له الخير، هو بمقياسه يرى أنّ فيه خيراً، أمّا أنت فبحكمتك ترى أنّ فيه شرّاً، ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ هذا معناه يؤمنوا بحكمتي، تدعو وتكون محقّقاً لشروط الدّعاء، وترى أنّه إن لم يكن هناك استجابة للدّعاء من المولى سبحانه وتعالى؛ فَلِأنّ هذه الدّعوة فيها شرّ، ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء]، لا يعلم مقاييس الخير إلّا الرّبّ وليس العبد.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾: ما معنى الرّشاد؟ هو الوصول إلى الطّريق، إلى الغاية التي تريدها، وهي أن يتحقّق لك خير الدّنيا وخير الآخرة، فإذا استجبت لأوامر الله وآمنت بحكمته سبحانه وتعالى فيما أمر وفيما نهى وفيما أعطى وفيما منع عند ذلك تكون قد دخلت في ذلك الرّشاد.

هذه الآية جاءت بهذا التّرتيب فلا يُقال: إنّ القرآن الكريم مقطّع؛ لأنّك ترى بأنّ الآيات تتعلّق بالصّوم وبعدها آيات تتعلّق بالدّعاء... ولا تعرف ما هو الرّابط؟ عليك أنت أن تتبيّن الرّابط؛ لأنّ القرآن الكريم جاء بمجمله لهداية الإنسان بكلّ الأحوال، لم يأت كتاب قصّة، ولم يأت كتاباً له أبواب وفصول، وتعاريف وسرد لموضوعات ككتب البشر، وإنّما هو لكلّ حركات وسكنات الإنسان في هذه الحياة، علمتَ الرّوابط بين موضوعاته وآياته أم لم تعلمها؟

(الآية ١٨٧) - ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾:

إذاً لا يوجد انقطاع بين الآية التي فرض فيها الصّيام وبين الآية التي بيّنت أحكام الصّيام حيث فصَلتْ بينهما آية الدّعاء؛ لأنّ الدّعاء جزء من الصّيام، وهو من أهمّ العبادات.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ﴾: طالما تسمع كلمة أحلّ إذاً كنت تعتقد أنّه كان محرّماً الرّفث إلى النّساء.

﴿الرَّفَثُ﴾: هو مقدّمة الجماع، عندما يأتي الرّجلُ أهلَه، وكان المسلمون بادئ الأمر يعتقدون بأنّه لا يجوز للإنسان أن يقرب زوجته خلال شهر الصّيام أي كلّ شهر رمضان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ﴾؛ لأنّ بعضهم حرّم على نفسه ليلة الصّيام أن يقرب أهله، وليلة الصّيام هي من غروب الشّمس إلى الفجر.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾: أي ما يتعلق بالجماع ومقدّماته، هو حلال ليلة الصّيام، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرّوم].

انظروا لدقّة الآيات، المشكلة بالإنسان أنّنا لا نرتقي إلى كمالات كلام الله، لو أنّنا نسمو لكمالات كلام الله لم يكن هناك مشكلة في الوجود، عندما قال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ ماذا يجول في ذهن الإنسان؟ يذهب بذهنه إلى شهوة الجنس؛ لأنّه مُنع أثناء الصّيام منها كما مُنع من الطّعام والشّراب، وسُمح له الطّعام والشّراب باللّيل فيُسمح له بها، لكن التّنزيل مباشرة أعطى المرأة حقّاً، لم تستطع قوانين الأرض ولن تستطيع أن تُعطيه للمرأة عندما قال ﷻ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ وكأنّ النّساء فقط للجنس قال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ فأعظم من هذا مساواةً وحقوقاً للمرأة، لا يمكن أن تأتي في جملة على وجه الأرض أبداً، أعطوني كلّ القوانين وكلّ الأنظمة لا يمكن أن تأتي بجملة ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾: اللّباس هو السّتر الّذي يلتصق بالإنسان فكأنّ الرّجل هو ستر للمرأة، كما المرأة ستر للرّجل، المرأة والرّجل لهما الدّور نفسه، هذه مساواة وهذا عطاء وهذه قيمة المرأة، وليست المرأة للمتعة كما يعتقد الجهلة من النّاس، فما أعظم هذه الآيات القرآنيّة التي تبيّن العلاقة بين الرّجل والمرأة، وتعطي المرأة الحقوق كاملة.

قال ﷻ: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٢١﴾ [النّساء: من الآية ٢١]، (هو عقد الزّواج) بعض الّذين يهاجمون أحكام الشّريعة الإسلاميّة يقولون: هناك طلاق في الإسلام، والإسلام أباح الطّلاق لأسباب ولضرورات، وليس

الطّلاق حسب هوى الرّجل ورغبته، قال فيه رسول الله ﷺ: «**أبغض الحلال إلى الله ﷻ الطّلاق**»(١)، إذاً: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ أي ليست العلاقة بين الزّوجين علاقة جنسيّة فحسب.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: أي تخونون أنفسكم، وكنتم في حرج من هذا الموضوع، حرج إذا أتى الرّجل أهله في ليالي رمضان.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: الله سبحانه وتعالى يفتح باب التّوبة للعبد حتّى يتوب.

﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾: عمّا فعلتموه، وهنا مقاييس الخير، عن السيّدة عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أيّ ليلةٍ ليلةُ القدر ما أقول فيها؟ قال: «**قولي: اللّهمّ إنّك عفو كريم تحبّ العفو فاعف عنّي**»(٢). مقاييس العفو أنّه إذا عفا الله عنك فما أجمل حياتك هذه، وما أسعدك في الآخرة.

﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: كتب لكم الله الإعفاف والإنجاب، العلاقة الزّوجيّة بين الرّجل والمرأة هي علاقة إعفاف وإنجاب، وليست سعياً وراء شهوته وأن يُصبح عبداً أسيراً لها.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾: بعض الصّحابة وقع في الحرج عندما نام واستيقظ قبل الفجر، فاعتقد أنّه عندما نام لا يجوز له أن يأكل أو يشرب، فجاء الحكم أنّه يجوز

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الطّلاق، باب في كراهية الطّلاق، الحديث رقم (٢١٧٨).

(٢) سنن التّرمذيّ: كتاب الدّعوات، الحديث رقم (٣٥١٣).

لك أن تأكل وأن تشرب حتّى يتبيّن لك الخيط الأبيض، أي ضوء الفجر، هناك فجر كاذب وفجر صادق فكان في عهد رسول الله ﷺ مؤذّنان؛ أحدهما يُؤذِّن بليل، والآخر يُؤذِّن للفجر، إذاً يستطيع الإنسان أن يأكل ويشرب حتّى الفجر هذا هو الحكم.

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾: أي إلى المغرب.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾: هذا حكم يتعلّق بالاعتكاف، من المعلوم أنّ الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان سنّة عن النّبيّ ﷺ، حتّى لا يعتقد بعض النّاس طالما أنّه أحلّ له الرّفث إلى النّساء في ليل رمضان ففي الاعتكاف تحلُّ المباشرة، لماذا في الاعتكاف لا يحلّ الرّفث؟ لأنّ مَن دخل المسجد مُعتكفاً فكلّ أمر يتعلّق بالدّنيا يجب أن يُطرَح خارج المسجد، كان الصّحابة مع سيّدنا محمّد ﷺ يقولون: كنّا نخلع أقذارنا وهمومنا مع نِعالنا عند دخولنا إلى المسجد. فالمسجد لا يباشر به إلّا العبادة، طالما أنت اعتكفت في المسجد لا يجوز أي أمر من الأمور غيرِ العبادة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾: عندما يكون هناك نهي عن أمر: فلا تقربوها، فهذه حدود حدّها الله ﷻ، لا تقرب من الحدّ فتقع فيه، كما قال عليه الصّلاة والسّلام: «والمعاصي حمى الله، من يرتع حول الحمى يوشك

أن يواقعه»[1]، هذه الحدود يجب أن لا تقربها، هناك فارق بين التّحريم ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء]، لا تقرب مثل اجتنب، وهذا أشدّ من التّحريم، أي ابتعد حتّى عن الحدود، ابتعد عن الشّبهة، لا تجلس في مكان فيه خمر تُدار حتّى لا تقع في شبهة.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾: الآية تعريفها في اللّغة: المعجزة، ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾ [الشّعراء]، ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [الشّعراء]، تلك معجزات الكتاب المبين، كلّ آية هي معجزة.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي أحكامه التي تتنزّل، وكلّها معجزات، وفي كلّ كلمة معجزة.

بدأ آيات الصّوم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ والغاية من فريضة الصّيام الاقتراب من تحقيق الغاية الكبرى وهي التّقوى، والتّقوى أعلى درجات الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥﴾ [الذّاريات]، لم يقل: إنّ المؤمنين، بل قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذّاريات].

الإحسان من جنس ما افترض الله عليك وأنت تزيد منه، فهكذا

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب البيوع، باب الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبّهات، الحديث رقم (١٩٤٦).

تصبح من المتّقين، عندما يفترض الله عليك عبادة كالصّوم، فالغاية منها ليس تعذيب النّفس ومنعها عن الطّعام والشّراب، وإنّما الارتقاء بها لتصل إلى الغاية وهي غاية تحقيق التّقوى، لذلك ابتدأت آيات الصّوم بقوله تبارك وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾، وانتهت أحكام الصّوم بقوله ﷻ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝١٨٧﴾.

(الآية ١٨٨) - ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٨﴾:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ﴾: الأكل لا يُطلَق على ما يدخل المعدة من طعام فقط، المال هل يؤكل؟ ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ هنا يتحدّث عن المجتمع المسلم، لكن ما علاقة النّهي عن أكل الأموال بالباطل بالصّيام؟

الصّيام ليس للجوع والعطش، وإنّما للتّقوى والقرب من الله ﷻ، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، لكن ما هي شروط إجابة الدّعاء؟ وقد ذكر النّبيّ ﷺ: «**الرّجل يطيل السّفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السّماء يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذّي بالحرام فأنّى يستجاب لذلك؟**»(١). الّذي غُذّي من حرام ويأكل المال بالباطل فلا يمكن أن يُستجاب له، ولا يكون من المتّقين، وصيامه امتناع عن الطّعام والشّراب فقط.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزّكاة، باب قبول الصّدقة من الكسب الطّيّب، الحديث رقم (١٠١٥).

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾: من أكل بباطل جاع بحقّ، من يأكل أموال النّاس فإنّه سيجوع، ومثاله: رجل يملك دنيا عريضة ولا يستطيع أن يأكل طعاماً يأكله أكثر النّاس فقراً في هذه الدّنيا، فكلّ هذا المال الّذي جمعه من حرام يكون بالنّسبة له لا قيمة له. من يأكل حقّ غيره من الميراث، أو يأكل حقّ أخواته البنات، أو جمع مالاً من حرام وورّثه لأولاده ماذا يكون حالهم من هذا الميراث؟ الجواب: من أكل بباطل جاع بحق.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾: أكل مال النّاس بالباطل يكون بدفع الرّشوة، والرّشوة تُدفع لمن يحكم في أيّ قضيّة من القضايا، ليس فقط قضاة المحاكم، بل كلّ من يكون له حكم في قضيّة ما، مثال: أتيت إلى كوّة مصرف لتقبض مالاً وكان هناك مَن يقف بالدّور، فدفعت رشوة وأخذت دور غيرك، فأنت أكلت مالاً بباطل؛ لأنّك أخذت زمن غيرك، لا تستطيع أن تعمل هذا الشّيء إلّا بدفع رشوة، فأكل المال بالباطل يحتاج إلى رشوة.

﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾: أين ذكر الرّشوة في هذه الآية؟

﴿وَتُدْلُواْ﴾: من الدّلو، والحبل الّذي يعلّق به الدّلو اسمه الرِّشاء، من هنا جاءت كلمة الرّشوة، لذلك جاءت الجملة ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ﴾ أي الرّشوة.

﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: الإثم هو الذّنب.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: لا يمكن أن تأكل حقّ غيرك، إلّا وأنت تعلم أنّك تأكل حقّ غيرك، فكلّ فساد بالمجتمع السّبب الأساس فيه هو أكل المال بالباطل، الفساد هو تغير موازين العدل في المجتمع، فعندما يكون هناك سرقة

واختلاس وغصب ورشوة فهذا فساد وسببه أنّ الإنسان يريد أن يأكل حقّ غيره.

حتّى الزّنى هو اعتداء على حقّ الغير، أتى فتى من قريش النّبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزّنا، فأقبل القوم عليه وزجروه فقالوا: مه مه، فقال: «**ادنه**»، فدنا منه قريباً فقال: «**أتحبّه لأمّك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «**ولا النّاس يحبّونه لأمّهاتهم**»، قال: «**أفتحبّه لابنتك؟**»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «**ولا النّاس يحبّونه لبناتهم**»، قال: «**أفتحبّه لأختك؟**»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «**ولا النّاس يحبّونه لأخواتهم**»، قال: «**أتحبّه لعمّتك؟**»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «**ولا النّاس يحبّونه لعمّاتهم**»، قال: «**أتحبّه لخالتك؟**»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «**ولا النّاس يحبّونه لخالاتهم**»، قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللّهمّ اغفر ذنبه، وطهّر قلبه وحصّن فرجه**»، فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيء[1]، فعالجها النّبيّ ﷺ على أنّها اعتداء على حقوق النّاس، وتعدّي على حقوق الغير.

وتسهيل الفساد هو فساد ويكون ذلك عن طريق الرّشاء أي الرّشوة، لذلك لعن رسول الله ﷺ الرّاشي والمرتشي والرّائش، يعني الّذي يمشي

(١) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: ج١، الحديث رقم (٥٤٣).

بينهما[1]؛ لأنّ الرّشوة هي عمليّة تُحضَّر من أجل إفساد المجتمع بشكل كامل، ونحن نقول: إنّنا بحاجة إلى القيم الأخلاقيّة، فأيّ قيم أخلاقيّة يمكن أن تكون كالقيم الموجودة في هذه الآيات؟ تسدُّ كلّ منافذ الفساد.

وليس بعامرٍ بنيانُ قومٍ ... إذا أخلاقُهم كانت خَرابا

وإذا أُصيب القومُ في أخلاقهم ... فأقمْ عليهم مأتماً وعَويلا

لا يظنّ أحد أنّه بفساد الأخلاق يمكن أن يعمّر بلداً، لذلك قال نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام: «إنّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[2]. ولذلك قال ربّنا تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: من الآية ١١٢]، وليس كما رغبت، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصّلت]، فهذه قمّة الاستقامة

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: باقي مسند الأنصار، من حديث ثوبان رضي الله عنه، الحديث رقم (٢٢٤٥٢).

(٢) سنن البيهقيّ الكبرى: كتاب الشّهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها التي من كان متخلّقاً بها كان من أهل المروءة، الحديث رقم (٢٠٥٧١).

والأخلاق، فالدّين لا يدعو إلى الحسن فقط، إنّما يدعو إلى الأحسن، عن الحسن عن الحسن عن الحسن بن أبي الحسن عن الحسن عن جدّ الحسن عليه الصّلاة والسّلام: «**إنّ أحسن الحسن الخُلق الحسن**»[1].

فإذا أردنا أن نبني المجتمع فيجب أن نكرّس الأخلاق، والأخلاق لا تأتي إلّا من الضّوابط الشّرعيّة.

(الآية ١٨٩) - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)﴾:

السّؤال الّذي وُجّه للنّبيّ ﷺ عن الأهلّة حقيقةً لم يكن مقصوداً منه معرفة أحكام الشّرع، وإنّما هو سؤال تعجيز للنّبيّ ﷺ من قِبَل اليهود والمشركين في ذلك الوقت، فالنّبيّ ﷺ لم يكن عالم فلك، وإنّما بُعِث ﷺ هادياً ومبشّراً ونذيراً وداعياً إلى الله، لذلك فإنّه لا يمكن أن يجيب النّاس في ذلك الوقت إلّا وفق قدرة عقولهم على تقبّل المعلومات، فالعقول لا تطيق المعاني العلميّة في ذلك الوقت؛ لأنّه لم يكن معروفاً أنّ الأرض كرويّة، ولا شيء عن علوم الفضاء وما فيه من مجرّات ونجوم وشمس وقمر، قال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: من الآية ٥]، وإنّما يُنتظر حتّى يأتي زمن يكشف النّاس عن الحقائق العلميّة، فالشّمس ضياء؛ لأنّ

---

(١) مسند الشّهاب: ج٢، إنّ أحسن الحسن الخُلق الحسن، الحديث رقم (٩٨٦)، الحسن الأوّل ابن سهل، والثّاني ابن دينار، والثّالث البصريّ، والرّابع ابن عليّ رضي الله عنه.

نورها ذاتيّ، والقمر مُضاء بانعكاس ضوء الشّمس عليه فهو نور، إذاً ما نراه هلالاً له علاقة بالشّمس وليس بالقمر. وفي ذلك الوقت لو أراد النّبيّ ﷺ أن يبيّن للنّاس ما هي حقيقة ظهور الهلال صغيراً ثمّ يكبر ثمّ يكبر لطاشت عقولهم ولما استوعبت بأنّ الأرض كرويّة تدور، وأنّ ضوء القمر نور ينعكس من أشعة الشّمس وضيائها، فالقرآن الكريم يعطي إجابات أوّلاً تحيل النّاس إلى الوظيفة الإيمانّية التي يريدها الله سبحانه وتعالى من البشر؛ لأنّ القرآن الكريم كتاب هداية وليس كتاب فيزياء وفضاء، لكن لا يمكن أن تأتي فيه آية أو كلمة تناقض العلم مهما تطوّر، وفي أيّ وقت من الأوقات عبر الأزمان ولو بعد آلاف الأعوام، ولكنّ الحقائق العلميّة جاءت مكتنزة في كتاب الله سبحانه وتعالى، لذلك يُعطي الجواب الّذي يُفيد النّاس، فماذا أجاب المولى سبحانه وتعالى على هذا السّؤال؟

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾: التّوقيت، أنت توقّت الشّهر بالقمر، أمّا اليوم فبالشّمس، إذاً يتعلّق بالزّمن.

الأهلّة وظهور الهلال بهذا الشّكل هي توقيت للنّاس، والموضوع يتعلّق بالأهلّة، والعبادات مرتبطة زمنيّاً بالهلال.

هناك حقائق علميّة كثيرة أشار إليها القرآن الكريم، مجرّد أنّه حدّد بأنّها مواقيت للنّاس والحجّ أيضاً، ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٧]، مجرّد ارتباط هذا الأمر أو هذه العبادة بالهلال، كما في الصّيام: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٥].

أنت لا تشهد الشّهر، وإنّما تصوم لرؤيته، وأنت تشهد الشّهر عند دخول شهر رمضان، فكيف يدخل الشّهر؟ يدخل بالتّوقيت الّذي يكون من خلال رؤية الهلال.

من النّاحية العلميّة أشار القرآن إلى كرويّة الأرض، وأشار إلى أنّ الشّمس مصدر النّور بالنّسبة للقمر.

حقيقة الهلال هو أنّ الأرض تدور، والقمر يدور، والأرض أثناء دورانها حول الشّمس تقع كتلتها بين الشّمس والقمر، فتحجب نور الشّمس الّذي يقع على القمر حجباً كليّاً أو جزئيّاً، وحسب حجبها لضوء الشّمس عن القمر يبدو الهلال صغيراً ثمّ يكبر ويكبر، وعندما يصبح القمر بدراً فإنّ أشعة الشّمس تكون مسلّطة على القمر بشكل كامل، والأرض في وضعٍ لا تحجب شيئاً من ضوء الشّمس عن القمر.. إلى ما هنالك من حقائق علميّة بيّنها القرآن الكريم عندما قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ [الحجر: من الآية ١٩]، أي: إنّ شكل الأرض ممدود، أي: إنّها كرويّة، ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزّمر: من الآية ٥]. وكثيرة الآيات التي تدلّ على كرويّة الأرض، المهمّ أنّ الجواب يخدم قضيّة إيمانيّة، كما سئل النّبيّ ﷺ عن عدد أصحاب الكهف: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ [الكهف: من الآية ٢٢]، فماذا قال القرآن الكريم؟ ترك النّاس بسؤالهم وأجاب على المهمّ الّذي يُفيد النّاس: بأنّهم فتية آمنوا بربّهم.

أنت تستفيد في كثير من القضايا دون أن تعلم ماهية القضايا، مثال الكهرباء تستفيد منها دون معرفة حقيقتها.

ما هو المهمّ بالنّسبة للأهلّة، هم سألوا النّبيّ ﷺ فأجابهم بما يخدم مصالح البشر وهي المواقيت لهم، والحجّ أيضاً له مواقيت، فبالنّسبة للحجّ هناك ميقات مكانيّ وميقات زمانيّ، فالحجّ له زمن وله مكان، عندما تُحرِم لدخولك إلى مكّة المكرّمة من الميقات.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: في الآيات السّابقة جاءت: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ وهذه الآية جاءت: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾.

الّذين يشكّكون في كتاب الله من المستشرقين والجهلة، نقول لهم: إنّه لا يمكن أن يتصدّى لتفسير القرآن الكريم إلّا المختصّون بعلوم الشّريعة والمختصّون باللّغة العربيّة؛ لأنّ القرآن الكريم قرآن عربيّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف]. مَن لا يعرف اللّغة العربيّة وأحكامها ومفاتيح الإعراب فيها فإنّه لا يفهم عن القرآن بل قد يشكّك فيه.

أولئك الّذين لووا عنق الآيات، والّذين أرادوا أن يستخدموا القرآن الكريم لمصالحهم الضيّقة والآنيّة، حرّفوا كتابَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حرّفوه تفسيراً ولم يستطيعوا أن يُغيّروا في نصّه؛ لأنّه محفوظ بحفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ من المعروف أنّ اسم (ليس)

مرفوع، وخبرها منصوب، فأحياناً يقدّم الخبر كما تقول: زيد مجتهد ويصحّ القول: المجتهد زيد، هنا ﴿ٱلۡبِرُّ﴾ اسم (ليس)، وليس خبرها، هناك جاء الخبر مقدّم ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾[1]، هنا ناحية إعرابيّة للمختصّين، تُشير لدقّة وعظمة كتاب الله ﷻ، وهناك من يتّهم القرآن الكريم والإسلام بظلم المرأة، وبأنّ الإسلام لا يريد حريّة الإنسان، لكنّ الإسلام يتعامل مع المرأة كإنسان، وهي صنو الرّجل، والقرآن الكريم بيّن ذلك في كثير من الآيات، كقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات]، وفُسّرت في آيات الصّوم: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٧]، هذا الاندماج والمساواة بين المرأة والرّجل لا يوجد في أيّ قانون من القوانين الوضعيّة بالنسبة لحقوق المرأة، لكنّ المشكلة في فهمنا وبترنا لحقيقة ديننا، في فهمنا لعظمة إسلامنا، لماذا تطرّقْتُ للمرأة هنا؟ لأنّه كان من عادات العرب عند عودتهم من حجّ بيت الله، وبعد غياب ثلاثة أشهر أو أربعة أن يدخلوا بيوتهم من ظهورها أو من خلف البيوت ليفاجئوا الزّوجة، وكأنّ هناك شكّاً في عفّتها.

فالقرآن الكريم يريد أن يصحّح المفاهيم التي كانت سائدة، ووضع مفاهيم العفّة والثّقة بين الرّجل والمرأة، فقال: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ﴾ البرّ هو من عمل

---

(١) قرأ حفص عن عاصم وحمزة بن حبيب: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾، وقرأ القرّاء الباقون: ﴿ليسَ البرُّ﴾، وكلّ منها قراءة متواترة.

الخير، وهذا ليس من أعمال الإيمان والخير والتّقوى أن تشكّك بأهلك وأسرتك، فتضطرب الأسرة، أن تأتي وكأنّك تتجسّس على أهل بيتك، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ والتّقوى عمل قلبيّ وليست مظاهرَ وشكليّاتٍ، المهمّ أن تتحقّق التّقوى، لاحظ جوَّ الآيات منذ بدأنا بآيات الصّوم وحتّى وصولنا لهذه الآية دائماً هناك جوٌّ للتّقوى.

بجهلنا عن حقيقة ديننا حوّلنا العبادات إلى طقوس وشكليّات، نركع ونسجد ونفعل الأوامر من دون تحقيق الغاية. الغاية والأساس هو التّقوى؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى عندما فرض هذه الفرائض وفرض العبادات فلأجل ترقية الإنسان، والأديان جاءت لمصلحة الإنسان، رحمة للبشريّة وليس تعذيباً لها، وما كان لرحمة السّماء أن تكون وسيلة لشقاء النّاس أبداً، والآية الكريمة التي نستند إليها دائماً هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، ليس شقاءً للعالمين، وليس إرهاباً للعالمين، وليس تكفيراً وقتلاً للعالمين، وليس إجباراً للعالمين، وإنّما رحمة للعالمين. فالرّحمة أساس ومنبع كلّ عمل الخير، والغاية الأساسية هي تحقيق التّقوى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾: الفلاح هو النّجاح، وأساس كلمة الفلاح من الفِلاحة، عندما تفلح الأرض وتزرعها تحصد، ونتيجة العمل والتّعب والزّرع، تأخذ الثّمرة والنّتيجة الفلاح، والنّجاح في النّهاية يكون لتحقيق الغاية وليس للوسيلة والطّريقة.

نحن مكلّفون بالصّوم، والصّوم لا يتحقّق بالامتناع عن الطّعام

والشّراب فقط، بل عن اللّغو والرّفث، والوصول إلى الغاية وهي التّقوى.

(الآية ١٩٠) - ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾:

في هذه الآية انتقل القرآن الكريم إلى قضيّة أحكام القتال، وهذا الموضوع مهمّ بالنّسبة لنا؛ لأنّ الحركات الإرهابيّة والمتطرّفة والتّكفيريّة استغلّت واستثمرت وحرّفت معاني بعض الآيات القرآنيّة من خلال فهم خاطئ وتفسير مبتور غير دقيق وغير صحيح لهذه الآيات، وغيّروا معاني ما أنزل الله سُبحانه وتعالى، وهذا تحريف لكتاب الله سُبحانه وتعالى.

ربّما يقول قائل: لماذا انتقل القرآن الكريم من موضوع إلى موضوع آخر؟ إنّ القرآن الكريم هو كلام الله وفضل كلام الله على كلام النّاس كفضل الله على النّاس، وهنا فارق كبير بين أن يكون القرآن الكريم قصّة، أو كتاب من صنع بشر فيكتب بتسلسل، وبين أن يكون كتاب هداية، فهذا الكتاب (القرآن الكريم) هو أحكام للإنسان، وهو من ربّ الإنسان، الّذي يعرف دخائل ومخارج هذا الإنسان: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ [الملك: من الآية ١٤]، ويتعلّق بكلّ حركة للإنسان في الحياة وبعد الحياة، أي في عالم الغيب وما يتعلّق بمآل الإنسان، وما يتعلّق بصلاح الإنسان في هذه الدّنيا، وهو الرّسالة التي يريدها المولى سُبحانه وتعالى من خلقه ومن عباده، وكلّ الأديان التي جاءت إنّما جاءت من أجل الإنسان: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا

﴿تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣]، فإذاً هنا بعد أن تحدّثت الآيات عن أحكام الصّيام وأحكام التّقوى والأهلّة... جاءت الآن بما يتعلّق بالجانب الحربيّ، جميع حركات التّطرّف والتّكفير والإرهاب وأعداء الإسلام منذ الخوارج وحتّى الآن عبر الأزمان، اختصروا سيرة النّبيّ ﷺ وسنّته وسلوكه والقرآن الكريم بالغزوات وبالقتال، فالجانب القتاليّ هو جانب من جوانب الحياة ولا يمرّ زمن من الأزمان إلّا وهو جانب من جوانب حياة النّاس، يحدث اعتداءات ومشاجرات بين النّاس فيحدث قتال، إذاً هو جانب، وهذا الجانب لا يتعلّق بآية واحدة يأخذونها ويلغون مئة وعشرين آية تتعلّق بالحوار والمسالمة، ويأخذون آية واحدة ويبترونها عن أسباب النّزول، عن أجواء السّورة، عن الحكم الشّرعيّ، عن تطبيق النّبيّ ﷺ، عن فهم اللّغة العربيّة، كلّ هذه الأمور ألغاها الإرهابيّون والتّكفيريّون واستثمروا هذه الآيات وأدخلوا الاضطراب الفكريّ إلى عقول المسلمين، وباعوا بعض المسلمين من خلال الإيهام بأنّ الإسلام هو جهاد وحسب، وأنّ الإسلام هو قتال، وكلّ الآيات المتعلّقة بالقتال لا تأخذ من كتاب الله سبحانه وتعالى ومن سنّة النّبيّ ﷺ إلّا حيّزاً بسيطاً، وهو الحيّز المطلوب لناحية من نواحي الحياة، أنّه قد يتعرّض المسلمون للقتال، فما هي أحكامه؟ جاءت أحكام القتال وهي أوّل آية في كتاب الله تتعلّق بالقتال، وقبل تفسير هذه الآية لا بدّ أن نبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى لم يأذن للمسلمين في مكّة بالقتال أبداً، لا علاقة للقتال بالدّعوة الإسلاميّة؛ لأنّ الدّعوة الإسلاميّة لها سبيل ولها طريق، فالدّعوة الإسلاميّة هي: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ

سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥]، لماذا؟ لأنّ الدّين يتعلّق بعقيدة الإنسان، وعقيدة الإنسان لا يمكن أن تأتي بالإجبار، فإذاً أنت تريد أن تُجبر القالب فماذا عن القلب؟ القالب ممكن أن يُجبَر، أمّا القلب فهل يستطيع أحد أن يُجبر القلب؟ والإيمان ما وقر في القلب، وليس في القالب، أوّلاً: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، وطريق الدّعوة إلى الله محدّد في نصّ كتاب الله، فأنت لا تستطيع أن تلغي الآيات المحدّدة للدّعوة، وتأتي إلى آيات أُخرى وتقول: يجب أن ننشر الإسلام بالقوّة، ومن لا يقول: (لا إله إلّا الله) يُقتل، وتأتي بأحاديث وتُفسّرها على غير محملها.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾، إذاً بادئ ذي بدء عندما أذن الله للمسلمين بالقتال -إذا أردنا أن نرجع لأحكام القتال في الإسلام- قال سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحجّ: الآية ٣٩ ومن الآية ٤٠]، فإذاً هنا اعتداء على الإنسان واعتداء على الوطن، هذا أوّلاً فمن الواضح تماماً هنا فيما يتعلّق بأحكام القتال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ من الّذي يحدّد ما هو الّذي في سبيل الله؟ فقاتلوا في سبيل الله ليس معناه دعوة إلى الله، والنّبيّ صلى الله عليه وسلم أوضح ذلك فقال: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل

دون أهله فهو شهيد»[1]، فإذاً الدّفاع عن الأرض وعن الوطن أمام غوائل المعتدين والطّامعين هو القتال المصرّح به والمأمور به، والّذي أمر الإسلام به المسلمين.

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾: إذاً البدء بالقتال ممنوع، العدوان ممنوع، العدوان على أيّ إنسان أو حيوان أو شجر أو حجر محرّم بشكل قاطع.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾: إذاً قاتلوا في سبيل الله مَن؟ الّذين يقاتلونكم، ماذا نستنتج من هذه الآية؟ أوّلاً: أنّ الّذين أرادوا أن يحلّ العنف بدلاً من اللّطف من خلال هذه الآيات مكروا وأرادوا أن يحرّفوا كلام الله عن موضعه، نحن أُمرنا بردّ العدوان لا الابتداء بالعدوان، أُمرنا أن نقاتل النّاس ليس لكونهم مشركين، بل لكونهم معتدين، أنت لا تقاتل المشرك إذا لم يعتدِ عليك، والدّليل هذه الآية: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ لم يقل: لا تعتدوا على المسلمين، إنّ الله لا يحبّ المعتدين منكم على المسلمين، بل قال: ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ بشكل عامّ، حتّى أولئك المشركون الّذين تقاتلونهم يجب ألّا تعتدوا أثناء القتال، إذاً ليس عليك البدء بالقتال إنّما عليك ردّ ودفع العدوان، أنت لا تبدأ بعدوان وإنّما تنهي وتردّ العدوان، إذاً هذا الأمر واضح وهذا يبيّن بشكل قاطع بأنّ الإسلام ما قاتل من أجل إجبار النّاس على عقيدته، لذلك عندما قال النّبيّ ﷺ: «أُمِرتُ أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، ويقيموا

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب الديّات، باب فيمن قُتل دون ماله فهو شهيد، الحديث رقم (١٤٢١).

الصّلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّ الإسلام، وحسابهم على الله»[1]، عندما يقول: النّاس ليس المقصود كلّ النّاس، هو كان يتحدّث عن فئة المشركين الّذين نقضوا العهد عندما وُقّع صلح الحديبية الّذي نقضوه معه ﷺ، فعندما نقضوه أشار إلى هؤلاء النّاس: «أُمِرتُ أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله»؛ لأنّهم هم الّذين نقضوا العهد، كان يوجد عهد بينهم وبينه ﷺ وعندما يقول: (النّاس) يجب أن نفهم هنا أن ليس المقصود مطلق النّاس؛ لأنّ الله جلّ وعلا يقول مثلاً: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢﴾ [النّصر]، هل رأيت كلّ النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً؟ طبعاً لا، مجموعة فقط هي التي دخلت، لكن أحياناً يُطلق العامّ على الخاصّ، إذاً فالّذي لا يفهم أسرار اللّغة العربيّة يحرّف مفهوم القرآن ويحرّف مفهوم حديث النّبيّ ﷺ، إذاً يُفهَم النّصّ من سبب النّزول، من اللّغة العربيّة، من الحكمة من النّصّ القرآنيّ، من الأحداث التي واكبت تسلسل هذه الآيات، وأنت يجب أن تأخذ القرآن جملة واحدة، يعني لا يمكن أن تأتي إلى آية وتبترها من سياقها العامّ، وتأخذ هذه الآية وتعتبرها شعاراً وتقول: هذا هو الجهاد، ويجب علينا أن نجاهد كلّ الكافرين.

وفسّرنا بأن كلمة الكفر عندما تأتي في القرآن الكريم فالمقصود بها

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾، الحديث رقم (٢٥).

السّتر، وهي تتعلّق بالعقيدة لا تتعلّق بالممارسة، فعند الاعتداء فإنّه حقٌّ مشروعٌ لكلّ الشّعوب، حتّى في القوانين الوضعيّة الأرضيّة، حقّ مشروع بأنّه إذا اعتدى عليك أحد أن تردّ عنك الاعتداء، أن تدافع عن نفسك، أمّا أن تبدأ أنت بالقتال أو تبدأ بالعدوان فهذا لم يؤمر به المسلم، ولم يأت في كتابنا على الإطلاق، والإسلام طالما أنّه يقول: لا إكراه في الدّين، وطالما أنت تدعو إلى الله سبحانه وتعالى، فلماذا تُقاتل؟ إذاً لم تكن على حقّ، إذاً أنت لم تكن مقتنعاً أنّك على حقّ وتجبر الآخرين، الإنسان المقتنع أنّه على حقّ يُقنع الآخرين من خلال قناعته ومن خلال سلوكيّاته، لذلك فإنّ الإسلام لم ينتشر بالسّيف، والّذين ادّعوا أنّ الإسلام انتشر بالسّيف أرادوا تحوير الوقائع والحقائق، فالإسلام جاء لحماية حريّة الاختيار للنّاس وبعد ذلك: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، إذا أنت منعت النّاس من حريّة الاختيار فهنا يكون الإكراه على الدّين، أمّا طالما أنّ الإنسان يختار فعليه أن يختار ما يشاء، هذه الآيات واضحة ولا يمكن أن نأتي بآية تناقض مفاهيم القرآن الكريم ونقول: هذا هو تفسير هذه الآية، إذاً هناك نقص في التّفسير وليس نقصاً في القرآن الكريم، وهو خلل في تفسيرنا لكتاب الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٨﴾ [الأنفال: من الآية ٥٨]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾ [آل عمران: من الآية ٥٧]، لنلاحظ كلمة إنّ الله يحبّ: الله سبحانه وتعالى يحبّ المحسنين، ويحبّ المقسطين، ويحبّ المصلحين، ويحبّ المتّقين، لا يحبّ الظّالمين، ولا يحبّ المعتدين، لاحظ هذه الآيات وهذه

العلاقة التي تربطنا بربّنا سبحانه وتعالى، إذاً القتال فقط لكونهم معتدين، وهذا حقّ، حتّى عندما تتحدّث عن القتال، فهل يجوز لإنسان أن يُقاتل هكذا دون ضوابط؟ وإنّما القتال يكون ضمن ضوابط، هذه الضّوابط هي السّلطة المشروعة والموجودة في البلاد... إلخ، ضمن أحكام كثيرة لا يمكن أن تقرّرها فئة أو مجموعة، وأن تقرّر بأنّ هذا هو الحكم الشّرعيّ.

(الآية ١٩١) - ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾:

يتحدّث عن معركة وعن أناس اعتدوا على المسلمين وهذا أمر طبيعيّ أن يردّ المسلمون الاعتداء عن أنفسهم، ولا ينبغي أن تبتر الآية من السّياق.

﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾: الثّقاف ما هو؟ هو أن تلمّ بأطراف أشياء متعدّدة، ويقال: ثقاف، إن أصلح اعوجاج العود وجعله مستوياً، والثّقافة تصلح من عقول النّاس، فهذه معانٍ في اللّغة العربية، لكن هنا: ﴿حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ أي حيث وجدتموهم.

﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾: تُشير إلى المعاملة بالمثل، بردّ الاعتداء.

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾: لماذا؟ لأنّ الفتنة تتسبّب في قتل الكثير من البشر، فهي أشدّ من القتل، وهي السّلاح الّذي يُستخدم من أجل القتل، فعندما تُثار فتنة في المجتمع قد تتسبّب في قتل هذا المجتمع بمجمله من جرّائها، لذلك نقول: مهما حاول الإرهابيّون والمتطرّفون أن يثيروا الفتنة فأوّل

ردّ يكون بمنع وسدّ منافذ الفتن في البلاد، من خلال العودة إلى التّفسير الصّحيح للقرآن الكريم والتّأويل السّليم للسُّنّة النّبويّة المطهّرة.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ﴾: لماذا؟ لأنّ للمسجد الحرام حرمة وقُدسيّة، وجعل الله من دخله آمناً، أي يجب أن يُؤمَّن على نفسه وماله.

﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ﴾: إن هم قاتلوكم وبدأوكم القتال عند المسجد الحرام، عندها تردّ عن نفسك، ولا يمكنك القول: لا يجوز القتال في المسجد الحرام، فكيف لا أدافع عن نفسي إذا أتى من يقتلني.

﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾: انظروا لأداة الشّرط، ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾ وليس اقتلوهم بدون سبب، فإن قاتلوكم فردّوا العدوان. هذه الآيات نزلت بعد صلح الحديبية الّذي جرى بين قريش والنّبيّ ﷺ في السّنة السّادسة للهجرة عندما خرج النّبيّ ﷺ وخرج معه المسلمون، وقد اشتاقوا إلى زيارة البيت الحرام والطّواف حوله، ووصلوا إلى الحديبية على مشارف مكّة وجرت مفاوضات بين النّبيّ ﷺ وبين المشركين، واتّفق معهم على أن يعود ولا يدخل مكّة في هذا العام، لكن عندها صَعُبَ على المسلمين كيف قَبِلَ أن يعود دون دخول مكّة وأن يعود في العام المقبل، وكادوا أن يرفضوا إلّا أن يدخلوا مكّة عنوة ولو بالقتال، فاشتدّ ذلك على النّبيّ ﷺ فدخل على زوجه أمّ سَلمة رضي الله عنها، وهنا نرى أثر الزّوجة وأثر مشورتها، ونرى أهمّيّة دور المرأة، فقال: «**هلك المسلمون، أمرتهم أن يحلقوا وينحروا فلم يفعلوا**»، قالت أمّ سَلمة: يا نبيّ

الله، أتحبّ ذلك؟ اخرج ثمّ لا تكلّم أحداً منهم، فإنّهم قد دخلهم أمر عظيم ممّا أدخلت على نفسك من المشقّة في أمر الصّلح ورجوعهم بغير فتح، فأشارت عليه أن يتحلّل، وعرف النّبيّ ﷺ صواب ما أشارت به ففعله، فلمّا رأى الصّحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به، وكان اتّفاق الحديبية هذا فتحاً كبيراً، وعندما رجع ﷺ نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ١﴾ [الفتح]، وقد عدّ الصّحابة الفتح المقصود في الآية هو الصّلح مع أهل مكّة.

﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: إذاً جزاء الكافرين المعتدين الّذين اعتدوا وبيّنت الآيات هذه الأحكام.

(الآية ١٩٢) - ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٢﴾:

إذا توقّفوا عن عدوانهم فإنّ الله غفور رحيم، ودائماً الله سبحانه وتعالى يريد منّا أن نعفو ونصفح ونُحسِن، وهذا هو حال المؤمنين، وهذا هو حال الإسلام، وهذا هو مفهوم القرآن الكريم، لذلك جاءت نهاية الآية إذا انتهى العدوان فإنّ الله غفور رحيم.

(الآية ١٩٣) - ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾:

هذه الآيات تتعلّق بالمشركين فهم كانوا يصدُّون المسلمين عن الإسلام، إذاً لها سبب ولها مبرِّر واضح وليست الآية هكذا مطلقة إنّما ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ هم يريدون أن يفتنوا المسلمين ويمنعوهم عن الدّين ويعتدوا عليهم، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ﴾ فأنت إذاً لا تجبر النّاس على الدّين،

وإنّما تحمي حريّة اختيار النّاس للدّين، فهذه حماية حريّة الاختيار.

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: إذاً فإن انتهوا فلا عدوان إلّا على الظّالمين، والظّالم هو المعتدي.

﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا﴾: هذه مشاكلة لفظيّة، والمشاكلة: ذكر الشّيء بلفظٍ مماثل لوقوعه في صحبة مماثله، مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: من الآية ٣٠]، هذا في اللّغة العربيّة يُسمّى مشاكلة لفظيّة، فالله تبارك وتعالى ليس ماكراً ولا يمكر، لكن هذه مشاكلة لفظيّة، يمكرون أي يبيّتون بخفاء، والله يردّ مكرهم وتبييتهم وكيدهم، وهكذا هنا المعنى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الأصل لا عدوان، والعدوان على الظّالمين، هو ردّ ظلم الظّالمين، وهذا من قبيل المشاكلة اللّفظيّة.

(الآية ١٩٤) - ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

﴿الْحَرَامُ﴾: أي ما يحرم هتكه، والحلال: هو ما يحلّ لك أن تفعله.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾: الأشهر الحُرُم هي ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم ورجب، حرّمت العرب قبل الإسلام على نفسها القتال فيها وأقرّها الإسلام، وهذه الأشهر الحرم لا يجوز فيها القتال، لكن إذا قاتلوكم في الشّهر الحرام فقاتلوهم وردّوا عدوانهم، لا يجوز لك أن تقعد وتقول: إنّني مثلاً في رجب، وشهر رجب هو شهر حرام أو شهر ذي القعدة أو ذي الحجّة فيأتي من يعتدي عليك ويقتلك وتقول: هذا شهر حرام لا أستطيع أن أقاتل فيه

وأدافع عن نفسي، لا، فلا بدّ من ردّ هذا العدوان.

﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ﴾: ما معنى الحرمات؟ وما معنى القصاص؟ إذا سرق أحدٌ منك فهل أنت عملاً بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ﴾ تسرق منه؟ أو تستعيد ما هو مسروق، وتحاسبهُ على هذه السّرقة، لا أن تسرق، إذاً لا يحلّ إتيان الحرام أو أن ترتكب هذا الشّيء الحرام بأن تقوم أنت بالحرام بنفس هذا الفعل، وإنّما أن تردّ عليه، لذلك جاءت الآية هنا ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ﴾ فمثلاً إن قام أحد باعتداء الزّنى فهل ردّ القصاص بالزّنى؟! وهل ردّ القصاص بالسّرقة؟! لا يجوز، فالرّدّ بما هو مشروع وليس بما هو محرّم، وهذا الأمر يجب أن يكون واضحاً، والقصاص لا يكون إلّا بما شرعه الله ﷻ، فكلّ ما يُفعل تحت عناوين إسلاميّة، نجد من خلال تفسير الآيات بشكل صحيح وسليم أنّه مردودٌ على فاعله دينيّاً وشرعيّاً وقرآنيّاً، قبل أن يكون إنسانيّاً وأخلاقيّاً وقانونيّاً من خلال القوانين الوضعيّة، إذاً لا يستغلنّ أحد كتاب الله ﷻ ويحرّف الآيات ليحقّق غاياته. والّذي يحدّد شرح الآيات هو سلوك وسيرة النّبيّ ﷺ وتسامحه، ماذا كان يفعل؟ عندما يكون هناك قتال كيف قاتل؟ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أخبر أنّه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فلمّا قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاهِ، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق النّاس يستظلّون بالشّجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرَةٍ وعلّق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابيّ فقال: «**إن هذا اخترط عليّ سيفي**

وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً فقال: من يمنعك منّي؟ فقلت: الله ثلاثاً»[1]، ولم يعاقبه مع أنّه جاء معتدياً ورفع السّيف عليه ليقتله، ومع ذلك فإنّ النّبيّ ﷺ لم يجبره على قول: لا إله إلّا الله، فكلّ هذه الحجج والشّعارات التي نراها هي سوداء كأمثال قلوب الّذين يرفعونها والتي يكذبون بها على الله ورسوله قبل أن يكذبوا بها على خَلْقه.

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾: هنا مشاكلةٌ لفظيّةٌ أيضاً، وهي ذكر الشيء بلفظ غيره، والمعنى: مَن اعتدى عليكم فردُّوا عدوانه، فهذه اسمها مشاكلة، أتت هنا: فاعتدوا عليه، فأنت في الحقيقة لا تعتدي إذا اعتدي عليك، إذا استخدم غيرك الحرام أنت لا تستخدم الحرام، وإنّما أنت تردّ العدوان، وأنت تحاسب هذا المعتدي بما شرّعه الله سبحانه وتعالى، وليس بما حرّمه الله سبحانه وتعالى، وهذا معنى المشاكلة، لا اعتداء في الإسلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: من الآية ١٩٠].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: نعود إلى التّقوى، دائماً يذكّر المولى سبحانه وتعالى بموضوع التّقوى، والتّقوى هي جماع كلّ الخير، وهي أن تتّقي الله وأن تتّقي النّار وأن تجعل بينك وبين الأعمال السيّئة التي تسيء إلى النّاس والتي تسيء إليك حاجزاً، فأساس التّقوى هو الإحسان وديننا دين الإحسان، والإحسان يكون بكلّ شيء، جاء في الحديث الشّريف قوله عليه

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الجهاد والسّير، باب من علّق سيفه بالشّجر في السّفر عند القائلة، الحديث رقم (٢٧٥٣).

الصّلاة والسّلام: «**إنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء**»[١]، لذلك فإنّ الله ﷻ يحبّ المتّقين؛ لأنّ المتّقين محسنون، يحسنون إلى خلق الله، أنت لا تحسن إلى الله وهو غنيّ عنك وعن إحسانك، والله ﷻ في الحديث القدسيّ يقول: «**يا عبادي، إنّكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**»[٢]، إذاً فأنت لا تقدّم لله ولا تُحسن إليه، لكن إن أردت أن تُقرض الله فتعامل مع خلقه بالإحسان؛ لذلك هنا كرامة الإنسان، وهنا حقوق الإنسان، وهنا حريّة اختيار الإنسان، وهنا عدم إيذاء الجار، هذا هو ديننا الإسلاميّ وهذا هو مفهوم القرآن الكريم وتفسيره.

(الآية ١٩٥) - ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾:

الله ﷻ يشرّع كلّ ما يتعلّق بحياة الإنسان وقد يتهيّأ لك بأنّ هناك قَطْعاً بين الآيات، بأن كان يتحدّث عن موضوع وانتقل إلى موضوع آخر، والحقيقة هناك وحدة في الأمر هي وحدة الإنسان وحياته وما يتعرّض له في

(١) صحيح مسلم: كتاب الصّيد والذّبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذّبح والقتل وتحديد الشّفرة، الحديث رقم (١٩٥٥).

(٢) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

مناحي حياته، فالإسلام إنّما جاء من أجل الإنسان: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وجاء الدّين لسعادة البشريّة ولم يأت لشقائها، الدّين من عند الخالق، خالق الإنسان هو أعلم بما يصلح الإنسان، وطالما أنّ القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ فإذاً هو يعطي كلّ ما يتعلّق بهذا الإنسان وما سيتعرّض له الإنسان في حياته ومآله بعد مماته، إذاً ترى الصّورة واضحة عندما تقرأ كلام الله ﷻ، ترى الصّورة الأولى الحياة الدّنيا، والحياة الآخرة هي العليا؛ لأنّها هي الحياة المستمرّة الدّائمة، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: من الآية ٦٤]، وعندما يموت الإنسان يقولون: انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، إذاً هذه الدّنيا زائلة، والإنسان عليه أن يأخذ من أخلاق ربّه حتّى يصلح حاله ويصلح نفسه ويصلح غيره، فدعوة الأديان ليست دعوة تتعلّق فقط بحياة الإنسان بعد الممات في الدّار الآخرة، إنّما تتعلّق أيضاً بإصلاح أحوال المجتمعات، فإذا صلُح الفرد صلُح المجتمع، فالفرد هو الوحدة الأولى واللّبنة الأساسيّة لبناء المجتمع، فإذا صلُحت الأسرة صلُح المجتمع، فيربّي القرآن الفرد في المجتمع من كلّ مناحي حياته ويوجّهه إلى ما يتعلّق بأحكام الصّيام، وما يتعلّق بأحكام المال، وما يتعلّق بأحكام القتال، وما يتعلّق بأحكام السّنن الحضاريّة، ماهي السّنن الحضاريّة؟ وأين تجدها؟ السّنن الحضاريّة هي كلّ قصص القرآن، أنتم تعرفون أنّ ثلاثة أرباع القرآن الكريم هو قصص، والقصص القرآنيّ يختلف عن القصص البشريّ، القصص القرآنيّ أوّلاً هو

الصّحيح الحقّ، ثانياً هو قصص يتعلّق بأحداث وشخصيّات أراد الله ﷻ أن يقصّها علينا وبعضها يتكرّر في كلّ زمان، ونستنتج منها ما يصلح النّواحي الاقتصاديّة والاجتماعيّة في حياتنا، لذلك أنت تجد هذا الانتقال ما بين آية وأخرى، بين حكم وآخر، بين موضوع وآخر، لكن في النّتيجة هذه المواضيع كلّها تتعلّق بحياة الفرد وحياة المجتمع، هنا الآية الكريمة:

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: طبعاً لها عدّة تفاسير، هناك عموميّة للمعنى وخصوصيّة للّفظ، فقد تكون خصوصيّة اللّفظ نتيجة أسباب النّزول بأنّها تتعلّق مثلاً بالإعداد للقتال... وعموميّة المعنى تتعلّق بكلّ شيء؛ لأنّ اللّغة العربيّة التي جعلها الله ﷻ وعاءً لكتابه الكريم هي لغة خاصّة، اللّغة الخاصّة فيها كلمات، هذه الكلمات تحتمل معانيَ كثيرة ومتعدّدة، فإذا لم تفهم اللّغة العربيّة لم تفهم القرآن الكريم.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الإسلام يدعو للإنفاق في سبيل الله، وحدّدها الله ﷻ: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة]، الفقير والمسكين واليتيم و... كلّ حلقات ودوائر المجتمع أراد الله ﷻ القادر أن يعطي غير القادر، وعندما استدعى الله ﷻ هذا الإنسان إلى الحياة تكفّل برزقه، وإذا منّ الله عليك بأنّ حركة حياتك أدّت إلى أموال ورزق وعطاء أكثر من حاجتك، فعليك أن تتكفّل بمن كانت حركة حياته أقلّ عطاءً، لذلك جُعل الإنفاق ركناً من أركان الإسلام

وهو الزكاة، فأنت تتعبّد الله بأن تصلح حال عباده، ولا يصحّ إسلامك إذا أنت لم تنفق إلى الغير زكاة مالك، والزكاة هي اقتطاع جزء من المال، لذلك أمر بالإنفاق في سبيل الله وحدّد المصارف المسكين والفقير وابن السّبيل...

﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾: التّهلُكة على وزن تَفعُلة وهي الوحيدة في اللّغة العربيّة، وهلاك الشّيء خروجه عن صلاحه لتأدية مهمّته التي وكّله الله بها، وإذا خرج الشّيء عن صلاحه ليؤدّي مهمّته فقد هلك، فهناك هلاك للإنسان، هلاك للحيوان، هلاك للنّبات، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: من الآية ٨٨]، إذاً أنفقوا في سبيل الله والّذي لا ينفق كأنّه يلقي بنفسه إلى التّهلكة، والتّهلكة خروج الشّيء عن صلاحه، إذاً هي دعوة إلى صلاح المجتمع: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ بمعنى أنّك تودي بنفسك عندما لا تنفق في سبيل الله، عندما لا تشعر بحاجة الآخرين، عندما لا تكون عوناً للآخرين، عندما لا تنقل الخير للآخرين، فأنت تودي بنفسك إلى التّهلكة وليس بالآخرين.

﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾: فعل أمر واسع المعنى، أحسنوا في كلّ الوجوه ولكلّ النّاس، بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، لاحظوا تتالي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾ وتأتي بعدها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أيّ دين هذا؟ كيف لنا أن نقبل إنساناً يرفع السّيف أو يرفع البندقيّة أو يرفع شعار القتل ويقول: (الله أكبر) أو أنّه يرفع أيّ شعار إسلاميّ آخر أو يتحدّث عن الإسلام، دين يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾.

﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾: ما هو الإحسان؟ الإسلام انتشر بالإحسان ولم ينتشر بالقتل وبالسّيف وبالإرهاب وبالقوّة، بالإحسان، والإحسان له معانٍ متعدّدة وكثيرة وواسعة، لكن ديننا هو الإحسان بكلّ شيء، مثلاً: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصّلت: من الآية ٣٤]، لم يقل: ادفع بالحسنى.

يامن تأتيك العداوة مِنَ الّذي ومِنَ التي

ادفع فديتكَ بالتي حتّى ترى: إذا الّذي

وأحسنوا في كلّ شيء، إذا أردت أن تعمل عملاً فأحسن حتّى يحبّك الله، إذا كنت في وظيفتك فأحسن، إذا كنت في مصنعك فأحسن، إذا كنت في زراعة أرضك فأحسن، إن كنت في القتال فأحسن، في كلّ أمر من أمورك، في مجتمعك، وقد جاء في الحديث الشّريف: «إنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء»(١)، فإذا شاع هذا المعنى يصبح الإحسان شعاراً للإسلام وهو الحقيقة وهو أعلى المراتب المطلوبة، فعندما يشيع الإحسان تتقدّم المجتمعات، لماذا يُنظَر للإسلام من خلال سلوك المسلمين؟ ولا يُنظر إليه من خلال عقيدتهم!! هذا هو القرآن الكريم أمامكم، هذه عقيدة المسلمين، لذلك قال الشّيخ محمّد عبدو -عندما ذهب إلى لندن وغيرها من دولٍ غربيّة ووجد النّظام والنّاس تقف بدورها بانتظام ويلتزمون بالقوانين

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الصّيد والذّبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذّبح والقتل وتحديد الشّفرة، الحديث رقم (١٩٥٥).

والأنظمة- قال: وجدت إسلاماً بلا مسلمين، وعندما عدت إلى مصر وجدت مسلمين بلا إسلام؛ لأنّ الإسلام يدعو إلى احترام الآخر، يدعو إلى احترام القانون، الإسلام يدعو إلى احترام النّظام، الإسلام يدعو إلى المحبّة، يدعو إلى الإحسان، هذا هو معنى الإحسان، الإحسان بكلّ شيء، فإذا أحسنت فأنت تتقدّم بالعلم، وتتقدّم بالتّقنيّة، تتقدّم بالاقتصاد، تتقدّم بالحركة الاجتماعيّة، تتقدّم في كلّ شيء، إذا كان شعار ديننا الإحسان فلماذا تركنا كلّ هذا؟! وندور حول آيات نفسّرها خطأً، كالآيات المتعلّقة بالغزوات أو بردّ عدوان أو بالقتال، ونترك كلّ آيات القرآن الكريم ونذهب إلى المكان الّذي يريد أعداؤنا أن نذهب إليه.

الدّين دين الإحسان، إحسان في كلّ شيء، نحن نعلم الإحسان بالمعنى العامّ والبسيط، أن تحسن، أن تعطي، جاءت هنا تحقّق هذا المعنى، لكن الإحسان أوسع وأشمل بكثير، أوّلاً الآيات وبعد ذلك نأتي لحديث النّبيّ ﷺ، فالآيات: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦﴾ [الذّاريات]، من هم المحسنون؟ ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذّاريات]، فإذاً ليست القضيّة فقط أن تعطي السّائل والمحروم، هذا غير الزّكاة؛ ذلك بأنّه عندما يتحدّث عن الزكاة يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ [المعارج]، وعندما لا يقول: حقّ معلوم فهو يتحدّث عن صدقة،

قال ﷺ: «**إنّ في المال حقّاً سوى الزكاة**»[1]، إذاً الإنسان المحسن، محسن في كلّ شيء، محسن على نفسه؛ لأنّه يزكّيها ويطهّرها بالعبادات، محسن على غيره؛ لأنّه يعطي، وعندما سُئل النّبيّ ﷺ عن الإحسان قال: «**أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[2]، لو توقّفنا عند هذا الحديث، كلّ مؤمن بالله جعل نصب عينيه بأنّ الله يراني، أي يراقبني، لذلك وضعوا في المراكز التّجاريّة والفنادق والمطارات والأماكن ذات الشّأن أجهزة مراقبة، آلات تصوير تصوّر وتراقب حركة النّاس، وأنت تفعل الشّيء وأنت مراقَب، يراك صاحب المصنع، يراك صاحب المركز التّجاريّ، يراك صاحب السّوق، يراك صاحب الكازية، يوجد آلات تصوير للمراقبة، هنا النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام يقول عن الإحسان: «**أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»، مراقبة من الله، لكن أنت لم تنتبه بأنّه قال أوّلاً: تعبد الله كأنّك تراه أنت، وليس هو يراك فقط، تراه أنت فإن أنت فعلت الشّيء وتعتقد بأنّه يراك فإنّك تفعل أحسن وأفضل شيء، تصوّر مثلاً لو أنّك تريد أن تفعل شيئاً أمام من تحبّ، والدك أو والدتك، أمام زوجتك أو ولدك أو أمام صاحب سلطان أو أمام صاحب المال، فأنت ترتدي أفضل الملابس وتتكلّم بأفضل الكلام وتُحسن بكلّ طريقة من الطّرق، لماذا؟ لأنّك تراه

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب الزكاة، باب أنّ في المال حقّاً سوى الزكاة، الحديث رقم (٦٦٠).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عليه السلام النّبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام، الحديث رقم (٥٠).

أمامك، فشعور الإنسان بأنّه يتعبّد الله وهو يرى الله قبل أن يراه الله، فهذا بالضّبط هو معنى الإحسان، فمعنى الإحسان في كلّ شيء، فهذا الدّين دين الإحسان، ولا يمكن بحال أن يكون دين قتل لا يمكن أن يكون دين إرهاب هو دين الإحسان بكلّ شيء، ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [التّغابن: من الآية ١٤]، ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النّحل]، إذاً دائماً يصعّد الأمر نحو الإحسان، يصعّد الأمر نحو العفو، يصعّد الأمر نحو العطاء، يصعّد الأمر بالمحبّة، يصعّد الأمر بالرّحمة، لا يصعّد الأمر بالقتل، لا يصعّد الأمر بنشر الحقد أو البغض أو القتل أو الإرهاب، على الإطلاق، لذلك ذيّل الآية بأنّ الله يحبّ المحسنين، لاحظوا قوله ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: من الآية ٥٤]، لماذا نحن عندما نربّي أطفالنا نغرس في نفوسهم أنّ الله ﷻ سيعذّبك في النّار؟ لا تفعل هذا ولا تأكل هذا، وإن لم تطع أباك سيحرقك الله بالنّار، لماذا لا نستخدم صيغ الحبّ التي وردت في القرآن الكريم؟ إنّ الله يحبّ، إنّ الله لا يحبّ، هذه تربيّة قرآنيّة، هذا قرآن لم آت بشيء من عندي هذا من القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لماذا نسينا وتركنا صيغ الحبّ في خطابنا مع النّاس حتّى أصبحوا يعتقدون أنّ الحقد والكره وتقطيب الحاجبين وعبوس الوجه هو المعبّر عن الدّين؟! الحبّ هو الّذي يعبّر عن الدّين، الإحسان هو الّذي يعبّر عن الدّين، العطاء هو الّذي يعبّر عن الدّين.

(الآية ١٩٦) - ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾:

الحجّ هو الرّكن الخامس من أركان الإسلام يأتي بعد صيام رمضان.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾: الواو واو العطف، والعطف يكون عطفاً لمتشارِكَين أو مُتغايرَين، والحجّ غير العمرة، وعطف العمرة على الحجّ هنا من عطف متغايرين، الحجّ غير العمرة، فالحجّ له وقت: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٧]، أمّا العمرة فتصحّ في كلّ وقت، إذاً هذا فارق، الحجّ يوجد فيه وقوف بعرفة (الحجّ الأكبر)، والعمرة لا يوجد فيها وقوف بعرفة، إذاً هذا فارق آخر، إذاً مشاركة ومغايرة، لكنّه تبارك وتعالى قال: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ وكأنّهم كانوا يقومون بالحجّ والعمرة ناقصة قبل الإسلام أو بعد الإسلام من دون معرفة الأحكام المتعلّقة بأمور الحجّ، وجاءت بعض الأحكام التّفصيليّة هنا عن الإحرام وما يتعلّق بالحجّ، لكن نلاحظ قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ فهل يحجّ أحد أو يعتمر لغير الله رغم كلّ الصّعوبات المتعلّقة بالحجّ؟! نعم، مَن يَحجّ بمال حرام فكأنّه حجّ لغير الله. والأصل أن يكون الطّريق إلى الحجّ مؤمّناً، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ

﴿ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾ [آل عمران: من الآية ٩٧]، فلا تحتلْ حتّى تذهب إلى الحجّ، ولا تدفعْ رشوة لتحصل على أذون للوصول إلى الحجّ، وطالما أنّ الحجّ لله، فقد قال لك: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾ فيجب أن تتحقّق الاستطاعة، يجب أن يتوفّر الزّاد، يجب أن يُؤمَّن الطّريق، يجب أن يكون المال الّذي تحجّ به مالاً حلالاً، من كسب طيّب، زائداً عن نفقة عيالك إلى أن تعود، وأن تكون بريئاً من الدَّين للآخرين، أو تستأذنهم في الحجّ ويُنظِرونك في دَينهم.

والحجّ: هو قصد إلى معظّم، القصد إلى بيت الله الحرام.

لا بدّ لنا عندما نتحدّث عن مناسك الحجّ التي وردت في كتاب الله تعالى أن نتحدّث عن معنى المناسك، هذه المناسك المتعلّقة بالطّواف، المتعلّقة بالسّعي بين الصّفا والمروة، المتعلّقة بالوقوف في عرفات، ومشعر المزدلفة، ومنى، وبعد ذلك طواف الإفاضة، والسّعي بين الصّفا والمروة، ومن ثمّ زيارة الحبيب المصطفى ﷺ، إذاً بهذا تكون قد اكتملت شعائر الحجّ.

ما هو بيت الله الحرام؟ الله سبحانه وتعالى جعل هذا البيت مثابة للنّاس وأمناً، وقال سبحانه وتعالى في آيات أخرى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران]، فالله سبحانه وتعالى وضع هذا البيت، معنى البيت بشكل عام بالنّسبة للإنسان في الحياة الدّنيا، من البيتوتة: المكان الّذي يرتاح فيه الإنسان، المكان الّذي يأوي إليه الإنسان في نهاية تعبه وعمله ويلقي بهمومه ومشاغله ويستريح

فيه، فكيف إذا كان هذا البيت من صنع الله، أو هو بيت لله، أنت إذا جاءك ضيف فإنّك ستكرم هذا الضّيف في بيتك، فكيف إذا كان المضيف هو الله ﷻ إذاً كلّ الرّحمات كلّ البركات كلّ الخيرات تستدعي دخول الإنسان إلى بيت الله ﷻ. سيقول قائل: إنّ المساجد في كلّ بقاع الأرض هي بيوت لله، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النّور: من الآية ٣٦]، هذه البيوت نعم هي بيوت لله ﷻ لكن اختار مكانها خلق الله، وليس من وضع الله ﷻ بأمر من الله، نحن نعرف بأنّه في أيّة مدينة وفي أيّة قرية أو حيّ من الأحياء يتّفق أهله على تحييز قطعة من الأرض، ويبنون عليها مسجداً، فإذا بنوا مسجداً على هذه البقعة أصبح لا يمكن مباشرة أيّ عمل فيه إلّا العبادة في هذه القطعة من الأرض، إذاً هي باختيار النّاس، وهذا الفارق بين أن يكون البيت الحرام الكعبة المشرّفة هي بيت باختيار الله، وبين أن يكون من اختيار البشر، فالله تبارك وتعالى قبل أن يوجد البشر قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]، وُضِع فعل مبني للمجهول، وطالما قال: وُضع للنّاس، بالمبني للمجهول، فآدم من النّاس، فإذاً هو قبل آدم عليه السلام، من الّذي وضع هذا البيت؟ إنّهم الملائكة، إذاً هذا هو التّفسير الحقيقيّ للبيت الحرام أو للكعبة المشرّفة، لذلك الصّلاة في المسجد الحرام تعدل مئة ألف صلاة في غيره من المساجد، لماذا؟ لأنّ هذه القدسيّة أتت من اختيار الله ﷻ لهذا المكان ليكون بيتاً له يتوب ويثوب المؤمنون إليه كلّما ألقت الدّنيا بهمومها وبذنوبها وبمشاكلها عليهم،

يستدعيهم ربّهم للحجّ أو العمرة فيأتون إلى هذا البيت، طبعاً الحجّ مرّة في العمر وهو فرض بدليل الآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: من الآية ٩٧]، إذاً هو مرهون بالاستطاعة، والاستطاعة كما بيّنها النّبيّ هي أن يَأْمَنَ الحاجّ الطّريق وتتأمّن لديه مصاريف السّفر و..... إلخ. وقد يقول قائل: إنّ شعائر الحجّ مرتبطة بسيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام أبي الأنبياء، هذا الكلام صحيح، لكن إبراهيم الخليل -لو أنّنا دقّقنا في الآيات- أمره الله أن يرفع القواعد من البيت، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة]، إذاً هو قام برفع القواعد، البعد الثّالث الّذي هو الارتفاع، فمكان البيت كان محدّداً، ودليلنا على ذلك أيضاً بأنّ إبراهيم الخليل عليه السلام عندما وضع هاجر والطّفل إسماعيل الرّضيع تركها في تلك المنطقة المقفرة القاحلة التي لا زرع فيها ولا ماء وقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم]، إذاً بهذه الكلمات، بهذه الدّعوات العظيمات لسيّدنا إبراهيم الخليل كانت فريضة الحجّ وكانت مناسك الحجّ، وارتبطت شعائر الحجّ بأبي الأنبياء سيّدنا إبراهيم عليه السلام، من هنا بانت بعض هذه القضايا، لماذا؟ لأنّ الآية بدأت بهذه الكلمة: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ لماذا قال: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾؟ فلا بدّ من أن تكون كاملة وتامّة لله، حتّى لا تكون بمال حرّمه الله فكيف يكون الحجّ لله وهو بمال محرّم عند الله؟! لذلك يقول بعض النّاس:

إنّه يذهب إلى الحجّ ليسقط عنه الذّنوب، أنت تسقط الذّنوب المتعلّقة بالله، لكنّك لا تسقط الذّنوب المتعلّقة بخلق الله ﷻ إلّا أن تعيد الحقوق إلى أصحابها، فهذا أمر هامّ جدّاً حتّى لا يعتقد الإنسان بأنّه إذا ذهب إلى الحجّ أسقط بذلك كلّ الّذي فعله قبل أن يذهب أو بعد أن يعود من الحجّ، أنت عندما ترتكب ذنباً بحقّ الله، تقصّر بحقّ الله، فأنت لا تظلم الله، أنت لا تسيء إلى الله؛ لأنّ الله ﷻ غنيّ عنك وعن عبادتك، أمّا إن أنت سرقت أو أكلت الميراث أو ارتشيت أو فعلت شيئاً من الأفعال غير الأخلاقيّة المنكرة، وأسأت إلى إنسان فلا يمكن للحجّ أن يؤدّي مهمّته إلّا إذا أرجعتَ الحقّ لأصحابه وهذا معنى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾: أُحصرتم: مُنعتم، حُصرتم لسبب ما من إتمام مناسك الحجّ، ومن المعلوم أنّ الحجّ يستوجب إحراماً من الميقات، والميقات حدّده نبيّنا ﷺ ونحن نعلم بأنّه لا يمكن أن تأخذ القرآن الكريم من دون أن تأخذ كلّ ما يوجد في القرآن الكريم، ما معنى هذا الكلام؟ معنى هذا الكلام أنّ القرآن الكريم يقول لك: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، هناك الكثير من القضايا لم ترد في القرآن، وإنّما تُرك التّشريع فيها لسيّدنا رسول الله ﷺ، إذاً فرسول الله يشرّع، الميقات والإحرام لم يرد في القرآن الكريم بالتّفصيل، من الّذي علّمنا؟ رسول الله ﷺ، فإذا أنت أحرمت لتؤدّي الحجّ أو العمرة فإن أُحصرت، مُنعت لسبب ما من الأسباب مُنعت من أن تؤدّي هذا الحجّ، فماذا تفعل؟ هذه أحكام تتعلّق الآن بالحجّ،

﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ الهدي شاة أو بقرة أو ناقة تُؤدّى؟ لماذا سميّت هدياً؟ لأنّها تُهدى إلى البيت الحرام، هي الذّبيحة التي تُذبح لتوزّع على فقراء الحرم أي تسمّى لله، هذه تسمّى الهدي، كانوا يسوقون الهدي سابقاً وعند مكان الإحصار يذبحون الهدي ويوزّعونه ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ أي لم تستطيعوا، كنتم محرمين ولم تستطيعوا أن تؤدّوا فعليكم إذاً بالفدية، والفدية تكون بالهدي أو بما يتعلّق بالهدي من الشّاة.

﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾ لماذا لا تحلقوا رؤوسكم؟ لأنّ الحلق هو علامة على إنهاء الإحرام، ما لإنسان المحرم كيف ينهي إحرامه؟ بحلق شعره أو تقصيره.

﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾: عندما كانوا يأخذون الهدي معهم أو الشّياه يأخذونها إلى الحرم من أجل الذّبح وتوزيعها على الفقراء.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ﴾: من لا يستطيع، بسبب مرض أو لا يستطيع أن يحلق ففدية، نرجع لآيات الصّوم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾ [البقرة]، فدية، إذاً أنت تفدي هذه الفريضة بأنّك تطعم المسكين، هذا معنى الفدية، وهنا الفدية أيضاً بأنّك لا تستطيع؛ لأنّك أُحصرت؛ أو لأنّك ممنوعٌ بمرضٍ، بأذى... فالفدية من صيام ثلاثة أيام، بيّنها النّبيّ ﷺ، أو صدقة، إطعام ستّة

مساكين بيّنها النّبيّ لم ترد بالقرآن، أو نُسك، ما هو النّسك؟ هو ذبح شاة.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ كان أحدهم يحرم للعمرة يؤدّي العمرة ثمّ يتحلّل من الإحرام، أي يلغي الإحرام[1]، فهذا عليه أن يذبح شاة ويوزّعها على الفقراء، كلّ عبادة لها أثر على العباد، معنى ذلك أنّك عليك شيئاً يجب أن تعمله فيجب أن تكون فديته تفيد الآخرين، لا تقتل الآخرين، لا ترهب الآخرين، لا تَكْذِب على الآخرين، لا تحقد على الآخرين، وإنّما دائماً تعطي الآخرين، هذا هو الشّرع وهذا هو الدّين.

فإذا أردت أن تتمتّع بهذه الفترة، والمقصود بـ تتمتّع، بأن لا تبقى محرماً ما بين العمرة وما بين الحجّ، فعليك أن تعطي الآخرين، كيف تعطي الآخرين؟ بأن تذبح شاة وتوّزعها على الفقراء.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾: لا يوجد معه مال، طبعاً ثلاثة أيّام وسبعة أيّام هي عشرة، لماذا أكّد بكلمتي عشرة كاملة؟ الجواب: حتّى لا تعتقد أنّ السّبعة لوحدها أو الثّلاثة لوحدها، ثلاثة في الحجّ وسبعة عند العودة إلى الوطن.

﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾: أي أن لا يكون مُقيماً بمكّة من أهلها أو حول البيت الحرام، أمّا من كان سكنه بالبيت الحرام فليس عليه الهدي.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: واتّقوا الله إذاً في كلّ أمر من

---

(١) ويُسمّى هذا الحاجّ متمتّعاً.

أوامر الله، دائماً يظلّل هذا الأمر ويُغلّف بشعار هو تقوى الله، من بداية آيات الصّيام حتّى وصلنا نهاية تفاصيل الإحرام، بالنسبة للحجّ العنوان هو التّقوى، وقلنا: إنّ التّقوى هي دائماً أن تتّقي السّلبيات، تتقي النّار بأن تكون صالحاً، تتّقي أن تفعل كذا وكذا، فالتّقوى هي أن تجعل بينك وبين الشّيء حاجزاً، هذا هو معنى التّقوى، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ كما أنّه كلّف، فقد رَخَّص، وذلك بأنّك إن لم تستطع فعل كذا فعليك فدية كذا؛ وإن لم تستطع أن تفعل كذا تذبح شاة، وإن لم تستطع فعل كذا فصم ثلاثة أيّام.

لاحظوا بالنّسبة للفدية، الفدية: صيام أو صدقة أو نُسك، أوّلاً الصّيام يتعلّق بالشّخص نفسه أمّا الصّدقة فتتعلّق بالآخرين، والنّسك يتعلّق بعدد أكبر؛ لأنّه ذبح شاة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾: لمن لا يأخذ بأوامره.

(الآية ١٩٧) - ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾:

﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾: أعمال الحجّ وواجباته وأركانه يتمّها الحاجّ في أيّام وليس في أشهر، لكن الاستعداد والسّفر إلى الحجّ، والطّريق إلى الحجّ وما يتعلّق بمناسك الحجّ، قد تحتاج إلى هذه الأشهر: شوّال وذي القعدة وذي الحجّة، قلنا: إنّ الصّيام محدّد بشهر رمضان، ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ

﴿فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٥]، أمّا بالنّسبة إلى الحجّ فهو هذه الأشهر الثّلاثة المعدودة، طبعاً وما يتعلّق بذي القعدة وذي الحجّة تحديداً.

﴿مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾: أشهر الحجّ كانت معلومة، وكانت العرب تحجّ البيت قبل الإسلام، وحجّ البيت ابتدأ من نداء سيّدنا إبراهيم عليه السلام، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحجّ]، فهذه الآيات تبيّن لنا أنّ الّذي أذّن في النّاس بالحجّ هو سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وعندما نقول: (أذِّن) يعني: أعلم، وجاءت من الأُذن، والآذان جاء من الأُذن.

فالحجّ أشهرٌ معلومات، كانت معروفة، تبدأ من بداية رحلة الحجّ أو التّحضير للحجّ؛ شوّال وذو القعدة وذو الحجّة، وفي شهر ذي الحجّة تكون الأيّام التي يتمّ فيها الحجّ، لكن لنلاحظ دقّة القرآن الكريم: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النّساء: من الآية ٨٢]، لو أنّ القرآن من عند غير الله لا يمكن لهذه الجملة أن تأتي بهذه الطّريقة: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ﴾ من الّذي فرض الحجّ؟ هل نحن من يفرض الحجّ على أنفسنا؟! أم أنّ الله هو من فرض الحجّ علينا؟ الآية

الأخرى في (آل عمران) تقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: من الآية ٩٧]، إذاً الله فرض الحجّ، لكن لماذا قال هنا: ﴿فَمَن فَرَضَ﴾؟ وكأنّ الإنسان هو من يفرض على نفسه الحجّ، طبعاً هذا كلام دقيق؛ لأنّ الله ﷻ يعلم بأنّ المؤمن هو مَن يحدّد متى يكون زمان هذه الفريضة، يعني من لا يستطيع في هذا العام، ولا يملك الزّاد والرّاحلة ولا المال يؤخِّر حجّه حتّى تتوفّر لديه الأسباب، إذاً المسلم هو مَن يُحدِّد الوقت الّذي يستطيع فيه أن يؤدّي فريضة الحجّ حسب الشّروط الموضوعة في البلدان الإسلاميّة، على عكس كلّ العبادات الأخرى، فهذه العبادة بالذّات وهذا الرّكن من أركان الإسلام الهامّ، وهو ركن الحجّ، الإنسان هو الّذي يُدخل نفسه فيه، وهو الّذي يسعى حتّى يستطيع تأديته، حتّى بعض النّاس يحاولون إذا انقطع أمامهم السّبيل يُحاولون بشتّى الوسائل أن يُؤدّوا هذه الفريضة، إذاً هم الّذين يفرضون على أنفسهم التّوقيت، أمّا الله ﷻ فقد فرض الحجّ مرّة واحدة في العمر على الإنسان. ما هي الشّروط؟

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾: ما هذا الدّين العظيم؟ ما هذا الدّين الّذي كلّ فريضة من فرائضه، وكلّ أمر من أموره تتعلّق بقيم رفيعة أخلاقيّة تُشيع القيم والأخلاق في المجتمع؟!

فمن فرض الحجّ؟ الحجّ فيه تغيير للعادات، وتغيير بالطّباع وبالنّوم وبالطّعام وبالحركة وبطبيعة الحياة خلال فترة تأدية الحجّ، فهناك أمور يجب أن تكون في الحجّ، هذه الأمور قد يقع الإنسان فيها.

﴿فَلَا رَفَثَ﴾: الرّفث: مقدّمات الجماع، كلّ ما يتعلّق بالجماع الحلال في غير الحجّ، ممنوعٌ على الإنسان منذ أن يُحرِم.

﴿وَلَا فُسُوقَ﴾: الفسوق هي كلمة عامّة، جاءت من فسقت الرّطبة، التّمرة عندما تنضج تجد القشرة الخارجيّة لها تُنزع بسهولة فيقولون: فسقت التّمرة، وخروج الإنسان عن طاعة الله هذا هو معنى الفسوق، يُقال: إنسان فاسق، أي خارج عن طاعة الله، ليس كافراً بالله، وإنّما خارجاً عن طاعته، لا يؤدّي أوامر الله، فإذاً في الحجّ لا يمكن أن تكون ذاهباً في رحلة هي كلّها لله، وتترك الدّنيا والأهل والمال وكلّ ما سوى الله لتذهب لتؤدّي فريضة العمر ويكون هناك فسوق.. يعني لا كذب لا نميمة لا غيبة لا سرقة لا رشوة لا زنى لا قتل لا ضرب لا إهانة، كلّ أمر سوءٍ فهو ممنوع على الإطلاق.

﴿وَلَا جِدَالَ﴾: حتّى الجدال!! الجدال بشكل عامّ مسموح، ﴿وَجَادِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥]، الجدال هو نقاش أمّا في الحجّ؛ فلأنّ النّاس متعدّدة الطّباع، وهذه الطّباع ستجتمع كلّها في مكان واحد، ألوان مختلفة، وأجناس مختلفة، ولغات مختلفة، بطباع وعادات مختلفة، فإنّ انشغال الحجّاج بالجدال سيؤدّي إلى تخريب هذا المنسك العظيم والعامّ، ففي الحجّ طاعة كاملة، فالرّفث الحلال مسموح به في خارج الحجّ، والفسوق داخل وخارج الحجّ ممنوع، والجدال مسموح خارج الحجّ، لكنّ النّبيّ ﷺ عندما قال: «من حجّ لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمّه»[1]،

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الحجّ، باب فضل الحجّ المبرور، الحديث رقم (١٤٤٩).

لماذا لم يقل: ولم يجادل؟ لأنّ الآية واضحة: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ لكن النّبيّ عندما تحدّث عن عودتنا قال: «من حجّ لله فلم يرفث ولم يفسق»، ولم يقل: ولم يُجادل، لماذا؟ لأنّ النّبيّ ﷺ هو الوحيد الّذي يحقّ له أن يخصّص العامّ من خلال بيانه وتفسيره للآيات، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النّحل: من الآية ٤٤]، والنّبيّ ﷺ عندما قال ذلك كان يتحدّث ليس عن فريضة الحجّ وإنّما كان يتحدّث عن الرّجوع من فريضة الحجّ؛ لأنّه بعد الانتهاء من فريضة الحجّ، فالإنسان لا بدّ أن يقع في الجدال، أمّا الفسوق فلا يمكن أن يقع فيه أبداً، فعندما تذهب إلى الحجّ يمكن أن يحدث الجدال، لكنّ رحمة الله سبحانه وتعالى وسعت كلّ شيء، لذلك قال النّبيّ ﷺ: ترجع كيوم ولدتك أمّك إذا لم ترفث ولم تفسق، لكن في أمر الجدال فسحة، والله عندما أمرك قال: لا تفعل كذا؛ لا رفث لا فسوق لا جدال، لكنّ النّبيّ ﷺ في حديثه خصّ الرّفث والفسوق دون الجدال؛ لأنّ الجدال لا يتعلّق بعقيدة ولا بأخلاق ولا بقيم وإنّما هو أقلّ من ذلك، وهنا يتعلّق بالمغفرة والرّحمة بعد الرّجوع من الحجّ، لذلك يجب دائماً عندما نريد أن نفسّر القرآن الكريم أن نأتي بأقوال وأفعال النّبيّ ﷺ حتّى نفهم عن القرآن.

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾: أتى الآن على النّاحية الإيجابيّة: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ لا رفث، لا فسوق، لا جدال، ثلاث لاءات ممنوعة في الحجّ، ثمّ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ﴾ يعني

شيء أنت لا تراه ولا تعتقد أنّه خير، بل هو أقلّ خير، يعلمه الله لذلك قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة]، فديننا الإسلاميّ هو دين يسر وليس دين عسر، والله ﷻ معك أينما كنت، فالحسنات أكثر ممّا تتصوّر، والخيرات أكثر ممّا تتصوّر، فلذلك جاءت الآية دقيقة: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ يعني أقلّ ذرّة من الخير يعلمها الله ﷻ.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾: لماذا قال: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾؟ لأنّ رحلة الحجّ تحتاج إلى زاد، فأراد أن يبيّن لنا أنّ الزّاد الحقيقيّ هو التّقوى، وهو خير الزّاد، ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ تزوّدوا للرّحلة الكبرى، أنت تذهب الآن للرّحلة الصّغرى وهي الحجّ، ترى بعض المظاهر العامّة المقرِّبة من مشهد الحشر، عندما تقف في عرفات وملايين البشر مجتمعة، بلباس واحد، وصوت واحد، وطريقة واحدة، وشعار واحد: لبّيك اللّهمّ لبّيك.. فكلّ هذه المعاني تقرّب من المعنى العامّ للرّحلة الكبرى، والرّحلة الكبرى آتيةٌ لا محالة، لا يستطيع أحد أن يتأبّى على الموت، ولا يستطيع أحد أن يقول لملك الموت عليه السلام: أخّرني، لقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾[الأعراف]، لا يستطيع أحد أن يقول: إنّي لا أريد أن أموت، قال ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك]، فإذاً هذه الرّحلة تحتاج إلى زاد، هذه الرّحلة هي الرّحلة الباقية، الإنسان يريد دائماً الخير، من طبيعة الإنسان أنّه يريد الخير له ولذريّته، وأن يستبقي عناصر الخير لورثته بعده،

لكن الإنسان يفكّر بالرّحلة القصيرة، ومهما طال العمر فهو قصير، لماذا لا يفكّر بالرّحلة الدّائمة والباقية والخالدة والتي ستبقى؟ العمر الكامل والحياة الباقية تحتاج إلى زاد، الزّاد لها هو التّقوى، ليس هو المال ولا الذّهب ولا الدّينار ولا الدّولار، ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨﴾ [الشّعراء]، لذلك نهى رسول الله ﷺ أن يعلّق المؤمن قلبه بما هو فانٍ، فقال: «**تعس عبد الدّينار، تعس عبد الدّرهم، تعس عبد الخميصة، إن أُعطِي رضي، وإن مُنِع سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»(١)، فالزّاد الحقيقيّ هو التّقوى، والتّقوى هي جماع كلّ خير.

﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: استخدم هنا المولى سبحانه وتعالى: اتقونِ اخشونِ خافونِ، اجعلوا بينكم وبين غضبي وقاية بأعمالكم الصّالحة.

﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: أي استخدموا العقل، واللّبّ هو العقل، أي يا أولي العقول، إنّه تشريف للإنسان عندما يخاطبه المولى سبحانه وتعالى بأعزّ وأكرم شيء أعطاه إيّاه وهو العقل، وهو التّفكير؛ لأنّك لو فكّرت لاستنتجت، لو فكّرت لعلمت بأنّ هذه الحياة مهما طالت فهي زائلة..

ولا بدّ من زاد، والزّاد هو التّقوى.

(الآية ١٩٨) - ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾:

---

(١) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: ج٣، باب من اسمه إبراهيم، الحديث رقم (٢٥٩٥).

الحجّ يختلف عن العمرة، بركن الوقوف في عرفة بل «**الحجّ عرفة**»[1] كما قال عليه الصّلاة والسّلام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: الجناح الإثم، ولمّا أمر الله تبارك وتعالى بتنزيه الحجّ عن الرّفث والفسوق والجدال رخّص في التّجارة، والمعنى لا جناح عليكم في أن تبتغوا فضل الله، وابتغاء الفضل ورد في القرآن الكريم بمعنى التّجارة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: من الآية ١٠]، والدّليل على صحّة هذا ما رواه البخاريّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهليّة فتأثّموا أن يتّجروا في المواسم فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في مواسم الحجّ[2]، وهذا دليل على جواز الاتّجار في الحجّ مع أداء العبادة والنّسك.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾: ما هي الإفاضة؟ الفائض عن الكأس من الماء ما زاد عنه بعد امتلائه، فالزّيادة عن الموجود، افترق عنه ففاض عن الموجود، ودائماً عرفات عندما تنظر إليها ترى بأنّها فائضة، وكلمة الإفاضة من عرفات كأنّه كأس ممتلئة، ومنذ ذلك الوقت وحتّى الآن وهي تمتلئ، ولم يأت موسم أو عام من الأعوام إلّا وعرفات ممتلئة وتفيض، لذلك كانت هذه الآية بهذه الدّقّة:

---

(١) سنن النّسائيّ: كتاب مناسك الحجّ، باب فرض الوقوف بعرفة، الحديث رقم (٣٠١٦).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب التّفسير، باب سورة البقرة، الحديث رقم (٤٢٤٧).

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ عرفات يعرف فيها الإنسان ربّه ويعرف نفسه ويعرف ذنبه في ذلك الموقف العظيم، هناك أقوال عديدة لماذا سمّيت عرفات بهذا الاسم؟ لم يرجح فيها قول على آخر.

١- منها أنّها سمّيت عرفات؛ لأنّ آدم وحوّاء عندما هبطا إلى الأرض ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: من الآية ٣٦]، نزل آدم في مكان ونزلت حوّاء في مكان آخر، نزلا غريبين إلى هذه الدّنيا، وبقي آدم وحوّاء يبحثان عن بعضهما حتّى التقيا وتعارفا على جبل عرفات فسمّيَ عرفات.

٢- القول الثّاني: هو أنّ سيّدنا إبراهيم عليه السلام عندما رأى في منامه أنّه يذبح ابنه إسماعيل وهم ما ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصّافّات: من الآية ١٠٢]، تردّد إبراهيم عليه السلام بين مِنى ومزدلفة وعرفات حتّى يتأكّد هل هي رؤيا أم هي وحي من الله سبحانه وتعالى، فعندما عرف وكان بعرفات ورجح لديه أنّها وحي امتثل لأمر الله سبحانه وتعالى.

٣- وقول آخر: أنّ جبريل عليه السلام وهو يعلّم سيّدنا إبراهيم عليه السلام مناسك الحجّ كان يسأله عند كلّ منسك هل عرفت؟ فيُجيبه سيّدنا إبراهيم: عرفت، فسمّيت عرفات.

٤- ومن الأقوال: أنّها سمّيت عرفات؛ لأنّها المكان الّذي يتعارف فيه النّاس، وكلّ إنسان عرف ذنبه، هذا عرف وهذا عرف كلّ ذلك

في عرفات والله أعلم.

لكن عرفات بشكل عامّ المكان الّذي يعرف فيه الإنسان ذنبه ونفسه ويقف فيه بين يدي ربّه ﷻ في ذلك الموقف المهيب الّذي يذكّرنا دائماً وأبداً بوقوف النّبيّ ﷺ في عرفات في حجّة الوداع، وخطبته التي ودّع فيها الأمّة المسلمة والأجيال القادمة من المسلمين، وقف على سفح جبل عرفات بعد زوال شمس نهار عرفة، وأعلن المبادئ والحقوق العامّة للنّاس، أعلن حقيقة الدّين، أعلن وصيّته للبشريّة جمعاء: «أَيّهَا النّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا؛ أَيّهَا النّاسُ، إنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبّكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَإِنّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ وَقَدْ بَلّغْت، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلِيُؤَدّهَا إلَى مَنْ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا... أَمّا بَعْدُ أَيّهَا النّاسُ فَإِنّ الشّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنّهُ إنْ يُطَعْ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مِمّا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ... أَمّا بَعْدُ أَيّهَا النّاسُ، فَإِنّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقّاً، وَلَهُنّ عَلَيْكُمْ حَقّاً، لَكُمْ عَلَيْهِنّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ وَعَلَيْهِنّ أَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيّنَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنّ اللّهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرّحٍ فَإِنْ انْتَهَيْنَ فَلَهُنّ رِزْقُهُنّ وَكُسْوَتُهُنّ بِالْمَعْرُوفِ وَاسْتَوْصُوا بِالنّسَاءِ خَيْراً، فَإِنّهُنّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنّ شَيْئاً، وَإِنّكُمْ إنّمَا أَخَذْتُمُوهُنّ بِأَمَانَةِ اللّهِ،

وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنّ بِكَلِمَاتِ اللهِ فَاعْقِلُوا أَيّهَا النّاسُ قَوْلِي، فَإِنّي قَدْ بَلّغْت، وَقَدْ تَرَكْت فِيكُمْ مَا إنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلّوا أَبَداً، أَمْراً بَيّناً، كِتَابَ اللهِ وَسُنّةَ نَبِيّهِ، أَيّهَا النّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي وَاعْقِلُوهُ تَعَلّمُنّ أَنّ كُلّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ وَأَنّ الْمُسْلِمِينَ إخْوَةٌ، فَلَا يَحِلّ لِامْرِئِ مِنْ أَخِيهِ إلّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَلَا تَظْلِمُنّ أَنفُسَكُمْ اللّهُمّ هَلْ بَلّغْت؟»[١]، «لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[٢]، إذاً الّذي يضرب الرّقاب هم الكفّار، هم هؤلاء القتلة المجرمون من الحركات الإرهابيّة المتطرّفة التي استخدمت القتل، هذا هو الكفر الحقيقيّ.

هذه وصايا رسول الله ﷺ في موقف عرفة، أعظم ما يستشعره المسلم الحاجّ في وقوف عرفات هو صدى كلمات سيّدنا رسول الله ﷺ رسول الإنسانيّة.

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾: نلاحظ أنّ مجمل الحركة المتعلّقة بالحاجّ تأتي فيها أوامر بذكر الله.

﴿عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ المشعر الحرام في مزدلفة.

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾

فهذه الإفاضة الأولى إلى المشعر الحرام الّذي هو مزدلفة.

---

(١) سيرة ابن هشام: ج٢، ص ٦٠٣-٦٠٥.

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الفتن، باب قول النّبيّ ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفّاراً»، الحديث رقم (٦٦٦٧).

﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

إذاً كرّر موضوع الذّكر، كان النّاس يحجّون قبل الإسلام ويُلقون القصائد والأشعار ويتفاخرون بالآباء والأنساب، فأراد الله ﷻ أن يصفيّ توّجه الإنسان بأن يتوّجه إليه لا أن يتوّجه إلى سواه:

إثبات غيرك شركٌ في عقيدتنا   محو السّوى ديننا يا قرّة العين

فكلّ ما سوى الله يجب ألّا يذكر عندما تكون متوجّهاً إلى الله بالعبادة، لذلك نجد أنّ الآيات هنا تؤكّد على ذكر الله تعالى.

﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ضالّين الطّريق، طريق الهداية، لا تعرفون معنى هذه الهداية.

(الآية ١٩٩) - ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾:

﴿ثُمَّ﴾ هنا للتّراخي بالزّمن، وهي تؤيّد قول من قال من الفقهاء: لا بدّ من المبيت بمزدلفة؛ لأنّ في ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى أنّه بعد مبيتكم بمزدلفة، ﴿أَفِيضُواْ﴾ الإفاضة الثّانية من مزدلفة إلى مِنى.

﴿مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ قال بعضهم في تفسير ﴿ٱلنَّاسُ﴾: إنّه إشارة إلى المساواة بين جميع النّاس؛ لأنّك في الحجّ لا تجد فرقاً بين غنيّ وفقير، ولا بين قويّ وضعيف، ولا بين أمير ومأمور، منظر مصغّر عن يوم الحشر حيث يتساوى النّاس في اللّباس، ويلهجون بدعاء واحد، ويسألون ربّاً واحداً، وخصوصاً في عرفات، حيث يجتمع كلّ الحجاج دفعة واحدة، ولا

تجد ذلك الحشد في الطّواف حيث لا يجتمع كلّ الحجاج للطّواف دفعة واحدة، فبعد نزول الحجّاج من عرفات بعضهم يبيت في مزدلفة، وبعضهم ينتقل لمنى، وبعضهم يطوف حول البيت، وبعضهم يسعى بين الصّفا والمروة، ولَمّا كان الحجّ عرفة، فلذلك مع نهاية غروب شمس يوم عرفة في حجّة الوداع قال النّبيّ ﷺ لبلال: «**يا بلال أنصت لي النّاس**» فقام بلال فقال: أنصتوا لرسول الله ﷺ، فأنصت النّاس فقال: «**معاشر النّاس، أتاني جبريل آنفا فأقرأني من ربّي السّلام وقال: إنّ الله غفر لأهل عرفات وأهل المشعر وضَمِن عنهم التّبعات**»[1]، هذا موقف عرفات فهو ستر وشكر وفكر وتقرّب من الله سبحانه وتعالى تحت عنوان ذكر الله سبحانه وتعالى.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ أيّ النّاس؟ إمّا مجموع النّاس، أو كما قال بعض المفسّرين: المقصود بالنّاس إبراهيم عليه السلام؛ لأنّ إبراهيم كما وصفه الله سبحانه وتعالى في القرآن: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٠]، هو فرد لكن خصال إبراهيم هي خصال تجمع خصال أمّة؛ لأنّ الأمّة هي تجمّع مواهب وملكات الأفراد، فإذا امتلك شخص مواهب كلّ الناس فيكون أمّة بذاته؛ لذلك وصَفَ الله إبراهيم بأنّه كان أمّة.

وهناك قول: إنّ قريشاً ومن كان على دينها في الجاهليّة وهم الحمس كانوا يقفون بمزدلفة، وكان مَن سواهم يقفون بعرفة فأنزل الله: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾.

---

(١) التّمهيد لما في الموطّأ من المعاني والأسانيد: ج١، ص ١٢٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: لماذا جاءت إنّ الله غفور رحيم؛ لأنّك مهما أدّيت من حقّ الله عليك فإنّك تبقى مقصّراً في حقّه، لو أنّنا عبدنا الله عمرنا كلّه ما أدّينا شكره على نعمة واحدة أنعمها علينا كنعمة البصر، أو نعمة النّطق، أو نعمة السّمع، أو نعمة الحياة، أو أيّة نعمة من النّعم فإنّنا لا نستطيع أن نؤدّي الشّكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لذلك عندما دخلت السيّدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ورأت نبيّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم من اللّيل حتّى تتفطّر قدماه، قالت: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: «**أفلا أحبّ أن أكون عبداً شكوراً**»[1]، هذا هو معنى العبادة؛ أن تكون شاكراً للنّعمة صابراً على المصيبة، هكذا هو معنى العبادة الحقيقية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(الآية ٢٠٠) - ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠﴾:

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾: ما هو المنسك؟ هو مكان العبادة التي يقوم بها الإنسان، فنقول: مناسك الحجّ كما في هذه الآيات.

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾: اذكروا الله كذكركم آبائكم، كما ذكرنا بأنّهم كانوا قبل الإسلام يذكرون آباءهم، ونحن هنا في منسك، والمنسك هو المكان الّذي فيه عبادة، منسك عرفات ومنسك مزدلفة ومنسك مِنى، فإذا قضيتم هذه المناسك ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّفسير، باب سورة الفتح، الحديث رقم (٤٥٥٧).

﴿كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ عيشوا مع ذكر الله ﷻ، وذكر الله هو ضدّ النّسيان، تذكّر الشّيء ضدّ نسيانه، عندما تقول: اذكر أحمد مثلاً -ولله المثل الأعلى- فأنت قد تكون نسيته فتُخطِر أحمد على بالك، هذا معنى أن تذكر هنا فالله ﷻ في كلّ آية من آيات الحجّ يأمر بالذّكر، ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: من الآية ١٩٨]، بعد أن تنتهوا من مناسككم التي أدّيتموها اذكروا الله كذكركم آباءكم، تعلّقوا بالله، عيشوا مع الله، كونوا لله؛ لأنّ هذه المناسك التي أدّيتموها وأقمتم فيها هي من إحدى رحلات العمر التي لا تُنسى، هي رحلة الرّوح وتحليقها وسموّها ومعراجها لخالقها، والنّبيّ ﷺ قال: «من حجّ لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمّه»[1]، فإذاً لا بدّ أن تكون مع الخالق، فالخلق عندما يعيشون أو يذكرون الخالق فإنّ النّعم تتوالى عليهم من خالقهم ﷻ.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾: هناك صنفان من النّاس؛ الصّنف الأوّل يدعو بمقاييس الدّنيا وحسب، وأنت عندما تريد أن تدعو اطلب الدّنيا والآخرة، نضرب مثالاً: تريد طلباً من شخص ما، فكلّما علت رتبة هذا الشّخص وقيمته تصعّد الطّلب، لكن إن دخلت إلى إنسان عادي يمكن أن تطلب منه مئة ليرة، وأمّا إن دخلت إلى ثري من الأثرياء الكبار فلا تطلب مئة ليرة بل ستطلب أكثر من ذلك، ربّما تطلب مئة ألف ليرة وأكثر.. فعلى حسب مسؤوليّة

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الحجّ، باب فضل الحجّ المبرور، الحديث رقم (١٤٤٩).

الشّخص وأهميّته وقدرته ومُلكه تطلب منه، وهكذا يكون الحال في الدّنيا بين البشر، فأنت أدّيت أعظم العبادات وهي الحجّ، فهناك فريقان من النّاس قسم منهم يقول: ربّنا آتنا في الدّنيا، فلا يطلب إلّا الدّنيا، لا يريد إلّا من الدّنيا، ومن كان همّه الدّنيا جعل الله همّه بين عينيه.

(الآية ٢٠١) - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾:

إذاً يفرّق المولى ﷻ بين الصّنفين، فالأمر الطّبيعيّ أنّك أنت عند الله تبارك وتعالى وأنت تؤدّي مناسك الله، وعندما تدخل لبيت من بيوت الله فأنت في ضيافته، وعندما تكون في منسك من المناسك فهي أماكن لعبادة الله ﷻ فيجب أن ترقى بسؤالك وتصعّد فيه، كلّما كبرت قيمة المسؤول يجب أن تصعّد الحاجة، فأنت أمام المولى ﷻ وأنت أدّيت فريضة العمر وهي فريضة الحجّ، وأنت في عبادة وحتّى في أيّ مكان تذكر الله ﷻ، إن أردت أن تطلب من الله فاطلب على مقياس قدرة الله، ولا تطلب على مقياس قدرتك، على حسب عطاء الله ﷻ، والله يعطيك ويعطي غيرك، وقادر على أن يعطي النّاس جميعاً في نفس الوقت بأكثر ممّا يتوقّع الإنسان، فخزائنه ملأى، لذلك عندما سُئل الإمام عليّ كرّم الله وجهه كيف يُحاسب الله النّاس في وقت واحد؟ قال: "كما يرزقهم في وقت واحد". هو يرزق النّاس جميعاً في وقت واحد ويحاسب النّاس جميعاً في وقت واحد، وقدرة الله لا حدود لها، فاطلب على مقدار قدرته، فإن كنت تطلب الخير، فاطلب

الخير الدّائم، الخير الباقي، فاطلب النّعيم المستقرّ، لا تعجّل شهوة عاجلة على نعيم دائم، فعلى الإنسان أن تكون عنده المقاييس مستوية سليمة صحيحة، أن تطلب على قدر من تطلب منه.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: ماهي الدّنيا، وكم تساوي؟ الدّنيا كشعرة بالنّسبة للآخرة، لكن لَمّا كانت الدّنيا مزرعة للآخرة فالإسلام لا يريد منك أن تطلب للآخرة فقط، ولكن اطلب حسنتَي الدّنيا والآخرة، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. سؤال يتبادر للأذهان، عندما فرّقت الآية بين القسمين فالقسم الأوّل يقول: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي من نصيب، من حصّة في الآخرة، والقسم الثّاني: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فعندما تحدّث عن القسم الأوّل لم يقل: حسنة، لماذا؟ ربنا آتنا في الدّنيا، لا همّ لهم إلّا الدّنيا، أمّا في الثّانية فهو يوجّه المؤمنين ليطلبوا من خَيري الدّنيا والآخرة، وكان كما ورد في صحيح البخاريّ عن أنس رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء النّبيّ ﷺ: «**اللّهمّ ربّنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار**»(١)، لا ننسَى نصيبنا من الدّنيا ولكن نطلب خيري الدّنيا والآخرة، نأخذ الحسن في الدّنيا، دين الإسلام هو دين

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الدّعوات، باب قول النّبيّ ﷺ: «**ربّنا آتنا في الدّنيا حسنة**»، الحديث رقم (٦٠٢٦).

الحُسن، لكن لماذا أغفل الله في الأولى كلمة حسنة؟ الجواب: أنّ القسم الأوّل همّه الدّنيا، وهو لا يعرف معايير الحُسن، ولا يعرف معايير ما هي الحسنة من السّيئة، قد يكون بنظره أنّه يطلب حسنة له وتكون سيّئة له ولغيره، لذلك قال ﷻ: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء]، و﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: من الآية ٢١٦]، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: من الآية ٢١]، هذه هي المقاييس، لذلك كان هذا الدّعاء، انظروا لدّقة الأداء القرآنيّ وقد قلنا: إنّه ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النّساء: من الآية ٨٢]، فلو أنّ إنساناً يكتب القرآن فلا يخطر بباله أن يفرّق بين الفريقين، هناك لم يضع حسنة ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾، وعند ذكر الفريق الثّاني وضع كلمة حسنة: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، طالما ذكر فريقين الفريق الأوّل قالوا: ربنا آتنا في الدّنيا، وطالما أنّ القائل هو الله فهو يعلم أنّ الإنسان يدعو وقد لا تكون حسنة، ربنا آتنا في الدنيا، هو يريد من نصيب الدّنيا، وقد يعطيك ولكن عندما أعطاك فإنّه امتحنك، وقد يعطيك ويكون في هذا العطاء ضرر وأنت لا تدري مقاييس الخير، ولا تدري مقاييس العطاء، وقد تدعو وتدعو وأنت تريد أن يحقّق الله لك هذا الدّعاء، ويكون في مضمره شرّاً أراد الله ﷻ أن يحجبه عنك من خلال

دعائك، فإذاً مقاييس الدّعاء هي من مقاييس ربّ العباد وليس من مقاييس العباد، ومن هنا جاءت: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾؛ لأنّ همّهم في الدّنيا، أمّا الّذي يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ فهمّه الحسنة، ويريد الله ﷻ أن يكون الدّعاء حسنة ويؤدّي إلى حسنة.

(الآية ٢٠٢) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾:

الإنسان دائماً يُحاسب على ما كسب وعلى ما اكتسب، على ما فعل إن كان خيراً وإن كان شرّاً: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزّلزلة]، فالإنسان يُحاسَب على عمله، والنّبيّ ﷺ يقول: «لن يُدخل أحداً عملُه الجنّة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «لا، ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله بفضل ورحمة، فسدِّدوا وقاربوا...»(١)، فالحقيقة وقف العلماء كثيراً عند نصّ هذا الحديث كيف يقول الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزّلزلة]، ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدّثر]، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء]؟ إذاً الإنسان يحاسب على عمله، وهل يدخل الجنّة بعمله أم يدخل الجنّة برحمة ربّه؟ هنا النّبيّ ﷺ يقول: أنت

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المرضى، باب نهي تمنّي المريض الموت، الحديث رقم (٥٣٤٩).

تدخل الجنّة برحمة الله، ولا تدخل الجنّة بعملك، فيستغرب الإنسان كيف يقول القرآن هكذا؟ النّبيّ ﷺ شارح لمضمون القرآن مفسّر لعظمة كتاب الله، النّبيّ إذا قال فإنّ قوله تشريع؛ لأنّ الله ﷻ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: من الآية ٧]، لماذا قال النّبيّ ﷺ: لا يدخل الجنّة إلّا برحمة الله؟ أنت صحيح ستُحاسب على العمل لكن الله هو الّذي وضع لك الجنّة جزاء لهذا العمل، هل هو ملزم أن يضع لك هذه الجنّة؟ لو أنّ الله لم يضع الجنّة للعمل الصّالح، هل يستطيع أحد أن يُلزِم الله أن يجعل الجنّة جزاء لعمل البشر؟ لا، إذاً طالما الجواب لا، فمن رحمة الله بأن جعل الجنّة ثواباً للعمل الصّالح، إذاً أصل الأمر بأنّك تدخل الجنّة برحمة الله، ولو قال الله: اعمل ما شئت، واعمل خيراً أو لا تعمل خيراً، ولو لم يخلق الله الجنّة أصلاً، فهل تستطيع أن تُلزِم الله بجنّة لك من أجل عملك؟ لا طبعاً، فأنت تدخل الجنّة برحمته؛ لأنّه خلق لك هذه الجنّة، لكن أنت تُحاسب على عملك حتّى تدخل الجنّة، إذاً هذا صحيح وهذا صحيح، هذا بالمعيار الأوسع بأنّك تدخل الجنّة برحمة الله، بأنّه خلق لك الجنّة هذا المعيار الأوسع، أمّا المعيار الدّقيق فهو قوله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدّثر]، وتُحاسب على عملك بالقليل والقطمير، لذلك فإنّ الله يقول: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥﴾ [التّوبة]، ليس بما كنتم تقولون، بل بما كنتم تعملون إذاً الإنسان يُحاسب على عمله.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾: السّرعة هي تجاوز للزّمن بأن تختصر الزّمن في قطع مسافة، هذا معنى السّرعة، والله سبحانه وتعالى لا زمن بالنّسبة له ولا مسافات؛ لأنّ أيّ حدث يحتاج إلى مكان وإلى زمان، والله خالق الزّمان وخالق المكان، فلذلك الله سريع العقاب وسريع الحساب، ولا تنطبق عليه صفات البشر.

(الآية ٢٠٣) - ﴿۞وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾:

تدرّجت الآيات بالانتقال من عرفات إلى المزدلفة إلى مِنى إلى أيّام التّشريق كلّها: واذكروا الله، واذكروا الله، ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ﴾، ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾، ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾، في أيّام التّشريق الثّلاثة التي هي بعد يوم النّحر.

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾: إذاً فاذكروا الله في أيّام معدودات هي أيّام التّشريق الثّلاثة، وقد سمّوها أيّام التّشريق؛ لأنّهم كانوا يقطِّعون لحوم الهدي ويضعونه عند شروق الشّمس، لذلك سُمِّيت أيّام التّشريق.

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾: الأصل في قبول كلّ طاعة وعبادة هو إخلاص النّيّة لله سبحانه وتعالى والتّوجّه إلى الله وذكر الله سبحانه وتعالى وأن تعيش مع الله، فأنت عندما تذكر الله سبحانه وتعالى يكون كما أخبر صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربّه عز وجل: «**إذا تقرّب العبد إليّ شبراً تقرّبت**

إليه ذراعاً، وإذا تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت منه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة»[1]، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: من الآية ١٥٢]، اذكروني بالعبادة أذكركم بالنّعم، فيكون ذكر الله بشكر النّعم التي أعطاكم إيّاها، وأن تتعبّدوا الله ﷻ وهذا هو ذكر الله ﷻ، لذلك فإنّنا نجد بأنّ الله ﷻ عندما خاطب المؤمنين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب]، إذاً ذكر الله تبارك وتعالى هو عمدة العبادات؛ لأنّك تذكر الله ﷻ بكلّ الأحوال وبكلّ الطّرق وعلى كلّ الاتّجاهات، وذكر الله ﷻ أن تستحضر في ذهنك وفي عقلك الله تبارك وتعالى فكأنّك كما قال النّبيّ ﷺ: «أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»[2]، أن تعيش مع الله بكلّ أحوالك، أن تكون حالك هي ذكرٌ لله ﷻ، فإذا ذكرت الله كنت خيّراً مع خلق الله، إذا ذكرت الله كنت حييّاً مع خلق الله، إذا ذكرت الله كنت محبّاً لخلق الله، قال ﷺ: «الخلق كلّهم عيال الله فأحبّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»[3]، إذاً لا يأتي

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّوحيد، باب ذكر النّبيّ وروايته عن ربّه، الحديث رقم (٧٠٩٨).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النّبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم السّاعة، الحديث رقم (٥٠).

(٣) شعب الإيمان: باب في طاعة أولي الأمر، فصل في نصيحة الولاة ووعظهم، الحديث رقم (٧٤٤٦).

من ذكر الله سبحانه وتعالى إلّا الخير للبشريّة والبشر جمعاء.

﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾: ليست القضيّة بمِنى يومين أو ثلاثة أيّام، من أقام ثلاثة أيّام فلا إثم ومن أقام يومين فلا إثم، المهمّ التّقوى، وهي المحور الأساسيّ الّذي بدأنا به آيات الصّوم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ وهنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ دائماً اتّقوا الله، أي اجعلوا بينكم وبين غضب الله حاجزاً، كيف تجعل بينك وبين غضب الله حاجزاً؟ بأن لا تعصي الله سبحانه وتعالى وأن لا تسيء إلى خلق الله سبحانه وتعالى وأن تفعل ما أمرك الله تبارك وتعالى به.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾: يجب ألّا يغيب عن بال الإنسان أنّه سيُحشر وسيقف أمام الله سبحانه وتعالى وسيحاسبه عن كلّ صغيرة وكبيرة، جاء في الحديث الشّريف: «ما منكم من أحد إلّا سيكلّمه ربّه ليس بينه وبينه تُرجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلّا ما قدّم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلّا ما قدّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلّا النّار تلقاء وجهه، فاتّقوا النّار ولو بشقّ تمرة»[1] فليراقب الله سبحانه وتعالى في عمله، وليراقبه في علاقته مع وطنه وفي علاقته مع جيرانه وأسرته وزوجته ووظيفته.. فليراقب الله في علاقاته كلّها بالتّقوى وجوامع الخير وذكر الله سبحانه وتعالى وكلّ العبادات التي

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّوحيد، باب كلام الرّبّ عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، الحديث رقم (٧٠٧٤).

جاءت، وهذه الآيات جاءت بعد آيات الصّوم وآيات الذّكر وآيات الحجّ هذه العبادات تعطي الصّورة عن حقيقة الإسلام الّذي يقول عنه النّبيّ ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ»(١)، أعطى البعد الحقيقيّ للمعاني، هل المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، أم المسلم من أقام الصّلاة وآتى الزّكاة وصام رمضان وحجّ البيت وشهد بالشّهادتين؟ من هو المسلم؟ يقول النّبيّ ﷺ: المسلم من سلم النّاس من أذاه؛ من لسانه ويده، فكيف بأولئك الّذين يقتلون ويخرّبون ويفجّرون ويدمّرون ويعيثون في الأرض فساداً وقتلاً وتخريباً باسم الإسلام؟!

المسلم من سلم النّاس... أي معنى العبادة كلّها، معنى أن تصوم وأن تصلّي وأن تحجّ وأن تزكّي وأن تشهد بالشّهادتين أن تعطي ثمرة وهي أن يسلم النّاس من لسانك ومن يدك، والمؤمن من أمنه النّاس على أموالهم وأنفسهم بأن يكون النّاس في سلام مع المؤمن مع المسلم، دائماً أن نشيع السّلام بين النّاس وليس التّخويف والإرهاب، إنّما فقط الأمن والأمان.

(الآية ٢٠٤) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾:

الآيات تتعلّق بظاهرة مهمّة جدّاً هي ظاهرة مخالفة الباطن للظّاهر، أو

(١) مسند البزّار: المجلّد الثّاني، مسند فضالة بن عبيد، الحديث رقم (٣٧٥٢).

النّفاق السّلوكيّ، وهذا النّفاق السّلوكيّ عند بعض النّاس هو الّذي يدمّر ويخرّب المجتمعات من الدّاخل، عندما تكون قويّاً ينافق لك النّاس وعندما تكون ضعيفاً لا ينافق لك أحد، وحركة النّفاق بدأت في المدينة المنوّرة بعد أن انتصر النّبيّ ﷺ وقويت شوكة المسلمين، وأقاموا المجتمع الأوّل في المدينة المنوّرة، فبدأت ظاهرة النّفاق، والله ﷻ أراد أن يلقي الضّوء في هذه الآيات على هذه الظّاهرة، هذه الآية لها سبب نزول، ولكن بالنّسبة لتفسير القرآن الكريم فالعبرة دائماً بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب، فتنطبق على كلّ النّاس وهي تتعلّق بالأخنس بن شريق، كان يُبدي أنّه مؤمن وأنّه مع المسلمين، وأنّه يحبّ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، وعندما يخرج من المدينة كان يقتل وينهب ويضرب في رقاب المسلمين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: هناك قسم من النّاس يُبدي غير ما يكتم، والحقيقة هناك أمر مهمّ، فمن نعم الله علينا أنّه ستر غيب خلقه عن خلقه، ما معنى هذا؟ لو أنّ النّاس اطّلعت على سرائر بعضها ما بقي أحد يعيش مع أحد، إن الله سلّم، ولو تكاشفتم لتنافرتم، لذلك من أسماء الله ﷻ السّتّار الّذي يستر، والنّبيّ ﷺ قال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتّبعوا عوراتهم، فإنّه من اتّبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته**»(١)، السّتر هو ممّا أحاط الله ﷻ به المؤمنين والمسلمين،

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في الغيبة، الحديث رقم (٤٨٨٠).

وعلى الإنسان أن يكون حريصاً في لسانه حريصاً في قوله حريصاً في كلّ أمر من أموره، لكن هنا مدخل آخر، وهو القول باللّسان على غير ما يُضمر في القلب، يُبدي غير ما يضمر، وهذا هو أحد شُعَب النِّفاق وعناصره، لذلك كان مصير المنافقين في الدَّرك الأسفل من النّار، وهم الّذين ينافقون اعتقاداً، هناك نفاق اعتقاديّ ونفاق سلوكيّ، ومن نعم الله سبحانه وتعالى أنّه ستر غيب خلقه عن خلقه حتّى لا يعرف الإنسان كلّ أسرار الآخرين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ هو في الحياة عليم اللّسان جهول القلب، يعطيك من طرف اللّسان حلاوة، يتكلّم بكلام قد يعجبك لكن في الحقيقة هو ألدّ الخصام، ويُشهد الله على ما في قلبه، لماذا يُشهد الله على ما في قلبه؟ لماذا لا يُشهد أحداً من النّاس؟ إمعاناً في أنّه يريد أن يُشهد الله على ما في قلبه وهو مع ذلك ألدّ الخصام، وكان النّبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**إنّ أبغض الرّجال إلى الله الألدّ الخصم**»(١)، هذا الخصم الألدّ أو ألدّ الخصام، كلمة ألدّ الخصام، من أين تأتي اللّدادة في الخصومة؟ هذا العنف والشّدّة والإمعان في الخصومة يأتي من النّفاق، فلو أنّ النّاس أظهروا لبعضهم بعضاً ما يريبهم، لَما كانت تمكّنت في قلوب النّاس تلك الخصلة الغادرة خصلة النّفاق، وأن يقول ما لا يبطن يقول بلسانه ما لا يبطنه فيكون بذلك أشدّ خصومة ولدادة وعنفاً وفجوراً في خصومته من المخاصم العادي الّذي تتخاصم معه علناً، فهذا

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المظالم، باب إذا أذن إنسان لآخر شيئاً جاز، الحديث رقم (٢٣٢٥).

الّذي يخفي غير ما يبدي فيه أحد صفات النّفاق وهو ألدّ الخصام.

(الآية ٢٠٥) - ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾:

كلمة ﴿تَوَلَّىٰ﴾ تأخذ معنيين، تولّى بمعنى ذهب، وإمّا تولّى من الولاية، فبمعنى: تولّى حُكمَ أمرٍ أو حُكّم بأمر ما، وهذا من سعة اللّغة العربيّة، فالكلمة الواحدة تستوعب عدّة معان، لذلك نزل القرآن الكريم باللّغة العربيّة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف]، ففي مثل هذه الكلمة ﴿تَوَلَّىٰ﴾ هناك معنيان.

﴿سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾: دائماً الفساد في الأرض إنّما هو من صنع الإنسان وسعيه؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى خلق كلّ شيء على وجه الأرض صالحاً، وما دخل الفساد على شيء من الأرض إلّا من جرّاء تدخّل وعمل الإنسان، وليس من صنع ربّ الإنسان، لذلك تجد النّاس يتقاتلون على الغذاء والماء مثلاً ولا يتقاتلون على الهواء، لماذا؟ لأنّهم لم يستطيعوا أن يمنعوا الهواء عن النّاس، كلّ فعل وكلّ أمر فيه فساد فاعلم بأنّ يد الإنسان قد دخلت إليه، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الرّوم: من الآية ٤١]، فإذاً لم يكن هناك فساد، لكنّهم ألقوا في البحر النّفايات فأصبح فاسداً، أفسدوا شواطئ البحار أفسدوا الماء أفسدوا الغابات.. أفسدوا النّاس أفسدوا القيم والأخلاق فأفسدوا البدن والقيم معاً، فالفساد لا يكون إلّا من صنع الإنسان، فإذا تولّى هذا الإنسان المنافق،

والّذي يُظهر غير ما يُبطن والّذي هو ألدّ الخصام، أي إذا خاصم فجر، وهذه من صفات المنافق لقول النّبيّ ﷺ: «**أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النّفاق حتّى يدعها؛ إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[1]، إذا خاصم فجر هذا هو ألدّ الخصام الّذي تحدّثت عنه الآية الكريمة، وكان عبد الله بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين، من أشدّ النّاس خصومة وفجوراً لرسول الله من خلال نفاقه في المدينة، وهكذا هم المنافقون في كلّ زمان، والحقيقة أنّ خطر أعداء الأمّة يكون خارج حدودها، أمّا فعل المنافقين فيكون داخليّاً، وهو يفتّ في عضد الوطن والأمّة، والمنافق ضرره على المجتمع؛ لأنّه يبدي غير ما يُبطن، ويُظهر غير ما يكتم، فليس من همّه إلّا أن يصل إلى مآربه وإلى مصالحه وإلى غاياته وإلى أهدافه يدوس على كلّ القيم وعلى كلّ الأخلاق وعلى كلّ المعايير، فهو مستعدّ لأن يبيع دينه وعرضه وشرفه ووطنه وهذا هو جزء من النّفاق، وهذا هو معنى الآية بأنّ الفساد هو من صنع الإنسان وليس هو من صنع ربّ النّاس.

﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ الحرث هو الزّرع، وهناك آية: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٣]، فالحرث أيضاً هو الزّرع والإنبات، والنّسل من الزّرع والإنبات الإنسانيّ الّذي يؤدّي إلى النّسل ويؤدّي إلى الذّريّة، فإذا تولّى المنافق فإنّه يُهلك الحرث ويهلك

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، الحديث رقم (٣٤).

الزّرع ويُهلك النّسل يُهلك الذّريّة، كيف يهلك النّسل والذّريّة؟ لأنّ الفساد يعمّ والفساد ينتقل من جيل إلى جيل، وبعض النّاس يحاولون أن يُلبسوا الحقّ بالباطل والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: من الآية ٤٢]، فبعض النّاس بحجّة أنّهم يريدون محاربة الفساد فإنّهم يشيعون الفساد، وبعض النّاس بحجّة أنّهم يريدون محاربة التّطرّف فإنّهم يشيعون الفساد، محاربة التّطرّف لا يكون إلّا بالدّين الصّحيح وبالأخلاق والقيم، فلا تستطيع أن تحارب التّطرّف بإشاعة الفساد، فهذا ليس محاربة وإنّما هذا ينشر ويزيد من الفساد.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾: علاقتنا مع الله يجب أن تكون علاقة حبّ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: من الآية ٥٤]، فالله لا يحبّ المفسدين، والله لا يحبّ الفساد، والله يحبّ الصّلاح والإصلاح؛ لذلك حركات الإصلاح في المجتمع لا تُبنى على رغبات، وعلى أحقاد، وعلى بعض المفاهيم المبتورة الخاطئة كردّات فعل، وإنّما يجب دائماً أن نكون نحن الفاعلين، نحن الّذين نحدّد الطّريق، ونحدّد الهدف ونحدّد الغاية، فبناء المجتمعات على القيم الأخلاقيّة هو أساس وهو عماد ولا يمكن أن تكون هذه الأخلاق وأنت تبتعد عن طريق القيم الأساسيّ الّذي شرعه الله سبحانه وتعالى، فالتّمسّك بالقرآن الكريم والتّمسّك بأحكام الدّين والتّمسّك بالدّين الصّحيح كما أُنزل هو الطّريق السّليم، طريق الإسلام كما أنزله الله بعيداً عن التّطرّف، بعيداً عن التّكفير، بعيداً عن الإرهاب، بعيداً عن ثقافات البشر التي أدّت إلى هذا الفساد، وكلّ فساد على الأرض جاء من جرّاء أفعال

البشر وليست من أوامر ربّ البشر، ولا من أوامر سيّد البشر، مهما حرّف المحرّفون، ومهما فعل التّكفيريّون، ومهما غالوا وشنّعوا في فسادهم وإجرامهم، ستبقى كلمة الله هي العليا؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى أراد بنا أن نعيش على وجه الأرض رحمة للعالمين وعطاء وخيراً لكلّ البشر، وهذا معنى هذه الآيات الكريمة.

(الآية ٢٠٦) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾:

هذا الإنسان في قلبه مرض، لذلك عندما تحدّثت سورة (البقرة) في أوائلها عن المنافقين جاء فيها: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: من الآية ١٠]، إذاً هم يكذبون وهم في قلوبهم مرض، إذا قيل لهذا المنافق الّذي يبدي غير ما يكتم: اتّق الله -واتّق الله كلمة شاملة عامّة جامعة لمعاني الخير- فإنّه يُعرِض، فإن قيل له: خذ بمعايير ومقاييس الخير، أخذته العزّة بالإثم، وهل هناك عزّة بغير إثم؟ نعم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: من الآية ٨]، إذاً هناك عزّة بإثم، كما قال سحرة فرعون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشّعراء: من الآية ٤٤]، بعزّة فرعون، إذاً يوجد عزّة بالإثم.

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾: حسبه: أي كافيه معاقبةً وجزاءً كما تقول للرّجل: كفاك ما حلّ بك، وأنت تستعظم ما حلّ به.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: شبّه الله سبحانه وتعالى جهنّم بالمهاد، والمهاد جمع المهد،

وهو الموضع المهيّأ للنّوم، ومنه مهد الصّبيّ، وسمّى جهنّم مهاداً؛ لأنّها مستقرّه، فلا راحة للمنافق والمجرم والقاتل والباغي والظّالم والمفسد؛ لأنّ مآله سيكون جهنّمَ.

(الآية ٢٠٧) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ﴾: من النّاس من يشري، هناك فارق بين يشري ويشتري في اللغة العربيّة، فيشري: تأتي بمعنى يشتري وقد تأتي بمعنى يبيع، أمّا يشتري فلها فقط معنى يشتري، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف]، فمن الممكن أن يكون شرى بمعنى باع.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: أي بعض النّاس.

﴿مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾: أي يبيع نفسه يفقدها بمقابل، والمقابل هو مرضاة الله سبحانه وتعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التّوبة]، لذلك نجد الشّهداء هم الّذين باعوا أنفسهم في سبيل مرضاةِ الله، ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ

﴿يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عمران].

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾: كلمة رؤوف تُعطي معنى أدقّ، ورحيم تُعطي معنى أوسع وأشمل، والله سبحانه وتعالى رؤوف بالعباد: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٦]؛ لذلك من رحمته سبحانه وتعالى ومن رأفته ومن عطاءه لخلقه بأنّه وهب هذه المنزلة العالية للشّهداء الأبرار، وأن يتجاوزوا مرحلة البرزخ بعد استشهادهم ويكونوا عند الله سبحانه وتعالى لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة]، أنتم لا تشعرون بحقيقة هذه الحياة.

(الآية ٢٠٨) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾:

﴿ٱلسِّلۡمِ﴾: مادّة السِّلم والسّلام والسّلَم والسِّلْم كلّها المادّة المركّبة لمادّة الإسلام، وكلّها تعطي معنىً واحداً وهو إشاعة الأمن والأمان والاطمئنان بين النّاس جميعاً، فهذه الآية ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ وكأنّ الله يريد أن يقول لنا فيها: إنّ الإسلام هو عمليّة دخول كامل، دخول شيء بشيء، وهذه هي الظّرفيّة أي أنّنا ندخل جميعاً بظرف واحد وهذا الظّرف اسمه السّلام، فأن تكون مسالماً أن تكون في سلام مع نفسك، وأن تكون في سلام مع أسرتك، وأن تكون في سلام مع جوارحك، وأن تكون في سلام مع جيرانك، وأن تكون في سلام مع أهل حيّك، وأن تكون في سلام مع

مجتمعك، وأن تكون في سلام مع أمّتك، وأن تكون في سلام مع النّاس أجمعين، أن تكون في سلام مع الطّير، أن تكون في سلام مع الحيوان، أن تكون في سلام مع النّبات، أن يشيع السّلام في الحياة، هذه هي رعاية الإسلام، ولكن ما نراه الآن عكس ذلك تماماً، عكس الآيات القرآنيّة، والنّبيّ ﷺ يقول: «**أفشوا السّلام بينكم**»، فالنّبيّ ﷺ عندما يدلّ على إفشاء السّلام بين النّاس، وجاء ذلك في قوله: «**لا تدخلون الجنّة حتّى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا، أولا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السّلام بينكم**»(١)، يظنّ بعضهم أنّ السّلام هو التحيّة (السّلام عليكم). إفشاء السّلام هو العيش بسلام، العيش بأمان، العيش باطمئنان، هذا هو إفشاء السّلام الّذي تحدّث عنه النّبيّ ﷺ، وهذا دليل على معنى هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ فهي ظرف زمان، والظّرفيّة شيء تدخل فيه، تدخل في ظرف اسمه السّلام، حالة اسمها السّلام، أن تعيش مسالماً للغير، لذلك نجد تشريعات الإسلام شُرّعت كي تحقّق هذه الغاية، تشريعات الإسلام هي لتحقيق هذه الغاية تماماً في إشاعة السّلام، نبدأ مثلاً بالسّلام مع الجوارح، مع النّفس، مثلاً: النّبيّ ﷺ وصّانا فيما يتعلّق بالجوع والعطش والبطنة فقال ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، حسب الآدميّ لقيمات يُقِمن صلبه، فإن غلبت الآدميّ نفسُه**

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنّه لا يدخل الجنّة إلّا المؤمنون وأنّ محبّة المؤمنين من الإيمان وأنّ إفشاء السّلام سبب لحصولها، الحديث رقم (٥٤).

فثلثٌ للطّعام وثلثٌ للشّراب وثلثٌ للنَّفَس»[1]، أعطاك مفاتيح أن تعيش بسلام مع صحّتك، مع جسدك، فإن اتّبعت بأن لا تسرف -والإسراف يكون في الطّعام، وفي إجهاد النّفس، وفي كلّ ما يؤثّر على النّفس- فأنت تعيش في سلام مع جوارحك ومع نفسك، أنت تعيش في سلام مع زوجتك، فالله سبحانه وتعالى جعل القواعد الأساسيّة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرّوم]، كانت العلاقة أو صيغت هذه العلاقة من المودّة والرّحمة والسَّكن: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٧]، فبالنّسبة للمرأة إذا كانت هي لباس لك وأنت لباس لها، فأنت تعيش معها في المودّة والرّحمة. والسّكن يعني ما يسكن القلب وتسكن النّفس إليه؛ لذلك أحد علماء الرّياضيات قال: فوجئت عندما قرأت سيرة سيّدنا محمّد عندما جاءه جبريل عليه السلام في المرّة الأولى فخاف وفزع وذهب إلى زوجهِ، فمن هي هذه الزّوجة العظيمة التي سارع محمّد إلى جوارها بعدما نزل عليه الوحيّ؟ وماذا كانت إجابة السّيّدة خديجة رضي الله عنها للنّبيّ عليه الصّلاة والسّلام وهو يقول لها: «**زمّلوني زمّلوني**»، فزمّلوه حتّى ذهب عنه الرّوع فقال: «**يا خديجة، ما لي؟**»، وأخبرها الخبر وقال: «**قد خشيت على نفسي**»، فقالت له: كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنّك لتصل الرّحم، وتصدق

---

(١) سنن ابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشّبع، الحديث رقم (٣٣٤٩).

الحديث، وتحمل الكلّ، وتُقري الضّيف، وتعين على نوائب الحقّ"(١)، هكذا قالت السّيّدة خديجة رضي الله عنها، إذاً فأنت تعيش في سلام مع زوجتك، تعيش في سلام مع أولادك، والله سبحانه وتعالى بيّن هذه العلاقة ما بين الأبناء والآباء، وجاءت الكثير من الآيات: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء]، ففي المقابل عندما تكون بهذا الشّكل مع والديك وبهذا الالتزام، ولا شكّ أنّ الوالد والوالدة سيكون لهما أثرهما على أولادهما كما قال القرآن: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الإسراء: من الآية ٨٢]؛ لأنّك لا توصي أبداً الأبّ والأمّ بالأولاد، لا يمكن؛ لأنّها فطرة، وإنّما تُوصي الأبناء والبنات بالآباء والأمّهات، هكذا تأتي الآيات القرآنيّة: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [لقمان: من الآية ١٤]، وليس وصيّنا الوالدين بأولادهما؛ لأنّهما لا يحتاجان إلى توصية بالأولاد، فهذه مركوزة في فطرتهما، فإذا كان الله سبحانه وتعالى من تشريعاته جعل هذه العلاقة في الأسرة بين الأبناء والبنات وبين الآباء والأمّهات، فتعيش الأسرة في أحسن حالة من السّلام، بعد ذلك في العلاقة ما بين الزّوج والزّوجة السّلام داخل الأسرة، السّلام مع الجيران، قال صلى الله عليه وسلم: «**مازال جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورّثه**»(٢)، لذلك عندما سُئل الإمام عليّ -كرّم الله

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب التّعبير، باب أوّل ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرّؤيا، الحديث رقم (٦٥٨١).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، باب الوصاءة بالجار، الحديث رقم (٥٦٦٩).

وجهه- عن حقّ الجار قال: "تقولون: إنّ حقّ الجار أن لا تؤذيه، وأنا أقول: إنّ حقّ الجار أن تصبر على أذاه" فهذا معنى أن تعيش بسلام مع الجيران، أن تعيش بسلام مع مجتمعك: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران]، فالدّعوة إلى الخير والأمر بالمعروف، والمعروف: هو ما تعارف عليه النّاس وما عاشوه وبعدما أمر الشّرع به، والمنكر: هو ما أنكروه بعد ما نهى الشّرع عنه، أوّلاً تقدِّمْ ما أمر الشّرع به وما نهى الشّرع عنه وبعد ذلك ما تعارف النّاس عليه، وهذا يسمّى العرف، أي أن تعيش ضمن أعراف وضمن قوانين المجتمع، تعيش في سلام مع المجتمع والمحيط وبعد ذلك تعيش في سلام مع الإنسانيّة جمعاء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات: من الآية ١٣]، قال سبحانه وتعالى: ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ لا لتتقاتلوا، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: من الآية ١٣]، وقال النّبيّ ﷺ: «**إنّ الله قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهليّة، إنّما هو مؤمن تقيّ وفاجر شقيّ، النّاس كلّهم بنو آدم، وآدم خُلِق من تراب**»(١)، وسيدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال: "متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحراراً؟!"، من كلّ الجوانب أمرك الإسلام أن تكون داخلاً في السّلم، من يعرب لنا علاقة الإرهاب بالإسلام؟ ما علاقة الإسلام بالإرهاب؟

كلمة إسلام هي مضادّة لكلمة إرهاب وتطرّف، علاقة الإسلام

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب المناقب، باب في فضل الشّام واليمن، الحديث رقم (٣٩٥٥).

بالإرهاب هي علاقة مصنوعة من قبل أعداء الإسلام وليس من تعاليم الإسلام، تحريف كلّ معاني الإسلام ووضع شعارات إسلاميّة لحقائق إجراميّة، ماهي علاقة القتل بالدّين؟ الدّين ينهى أن تؤذي هرّة، كلباً، حيواناً، أن تقطع شجرة، الدّين هو السّمو والرقيّ بالأخلاق، كيف تمّ تحويل النّاس وتحويل أفكار بعض النّاس بأنّ هذا الدّين هو دين قتل!؟ وهل الآية: يا أيّها الّذين آمنوا ادخلوا في القتل كافّة، أم ادخلوا في السّلم كافّة؟ انظروا للتّتابع:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: الخطوة هي المسافة بين القدم والقدم، فأنت لا تتبّع خطوات الشّيطان؛ لأنّ الشّيطان أظهر العداوة أصلاً فقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص]، إنّه عدوّ لبني الإنسان: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر]، العداوة من الشّيطان هي عداوة واضحة، فالّذي يريد أن يضلّ الإنسان، وأن يأخذ الإنسان عن حقيقة هذا الدّين، وأن يجعل من الدّين الإسلاميّ دين القتل والتّكفير والحقد والطّائفيّة، ذلك الّذي يعادي الدّين ضمناً وهو الّذي بدأت الآيات بالكلام عنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤﴾ هؤلاء هم التّكفيريّون الإرهابيّون القتلة المجرمون، هم ألدّ أعداء الدّين الإسلاميّ، أكثر النّاس خصاماً للإسلام، أكثر النّاس عداءً للإسلام، أكثر النّاس عداء لتعاليم الإسلام، لماذا؟ لأنّ من يرتكب الجريمة ويضع عليها بصمة إسلاميّة فهو لم يرتكب الجريمة وحسب،

لكنّه ارتكب الجريمة وارتكب جرماً آخر بأنّه أراد أن يُسيء للإسلام وأن يُوسم الإسلام بهذه الجريمة التي ارتكبها، الأديان هي من عند الله ﷻ، وطالما هي من عند الله فهي لهداية خلق الله، وهي لمصلحة البشر، ما كانت الأديان لتأتي من أجل القتال وشرع العداوات والبغضاء وتقسيم البشر طائفيّاً وعرقيّاً، دائماً الأديان تدعو للمساواة تدعو للمحبّة، تدعو للإخاء، تدعو إلى العطاء، تدعو إلى الرّحمة، تدعو إلى التّسامح في كلّ شيء، هذه هي طبيعة الأديان؛ لأنّها من لدن ربّ الإنسان، أمّا أن تتحوّل هذه الأديان، أو أن يتحوّل الدّين الإسلاميّ تحديداً إلى دين القتل والإرهاب والتّدمير والتّخريب وقتل النّاس بالمجّان وبالتّفجيرات والتّخريب وبإشاعة البغض والحقد وعدم الأمان والاضطراب بين البشر، فهذا لا يمكن أن يكون من دين الله، لا يمكن أن يكون من سنّة سيّد خلق الله ﷺ، لذلك هذه الآية: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ عدوّ ظاهر، فلا يمكن لنا أن نتّبع خطوات الشّيطان، وهذه هي خطوات الشّيطان السّوداء التي نرى، إسلامنا أبيض، إسلامنا ناصع نظيف عظيم، هو النّقاء والصّفاء، هو الودّ والمحبّة والإخاء، إسلامنا هو العطاء هو الرّحمة هو الحضارة هو التّقدّم هو العظمة، إسلامنا هو إشاعة الأمن والأمان يقول النّبيّ ﷺ: «**من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنّما حيزت له الدّنيا**»(١) وصدق رسول الله ﷺ.

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب الزّهد، الحديث رقم (٢٣٤٦).

(الآية ٢٠٩) - ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩﴾:

﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾: الزّلة هي المعصيّة، زال الشّيء خرج عن استقامته، إن زللتم بعد أن جاءت البيّنات وبيّن الله ﷻ الآيات، وعصيتم ما أمر الله به، فإنّ الله عزيز حكيم، ولم تأت هنا فإنّ الله غفور رحيم؛ لأنّ الآية متعلّقة هنا بالمعصيّة بعد البيان، بعد أن بيّن الله ﷻ الآيات البيّنات، والهداية للبشريّة جمعاء، قال: ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ بعد أن أمر النّاس أن يدخلوا في السّلم كافّة، وأن يكون الإنسان في سلام مع ربّه مع نفسه مع أسرته مع مجتمعه مع وطنه مع خلق ربّه، مع كلّ ما هو محيط به، قال: ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ أي عصيتم فإنّ الله عزيز حكيم، والعزيز: هو المستغني عن عبادة خلقه، الغالب الّذي لا يُغلب، الّذي لا يحتاج إلى غيره، فإنّ الله عزيز حكيم مستغنٍ عن عبادتكم وما تقدّمونه من عبادة يرجع إليكم ثوابه وجزاؤه.

(الآية ٢١٠) - ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: بمعنى هل ينتظرون، والنّظر إدراك الشّيء، وإدراك الشّيء إمّا أن يكون بالنّظر المباشر، أو بإدراك علم ومعرفة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾: هل ينتظرون، وكأنّه بعد أن بيّن الآيات والأحكام، وبيّن الهداية وطريقها وأرسل الرّسل وأنزل معهم الكتب، فمن زلّ وعصى بعد ذلك، وخرج عن طريق الاستقامة

والطّاعة فإنّ الله ﷻ عزيز حكيم، فهل ينتظرون أي سيفاجؤون بذلك اليوم حينما يأتي أمر الله، ﴿أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ المقصود هنا أن يأتي أمر الله ﷻ، فنحن نأوّل الآية، فلا نحن شبّهناه بخلقه، ولا عطّلنا الآية أيضاً عن معناها، فالله ﷻ لا يُشبَّه بالخلق، والله ﷻ لا يمكن تصوّره، وكلّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، والله ﷻ القادر لا يمكن أن يكون مقدوراً أبداً، فلا يمكن أن تقدر على تصوّره ﷻ، فلا تقول: إنّه يأتي، أي أنّه يتخلّى من مكان إلى مكان، فالله ﷻ لا يخلو عنه مكان، فهذا من عظمته تبارك وتعالى، فكلّ ما يتعلّق بالله ﷻ من أفعال، من صفات، من أسماء، قد تجد أنّ بعضها يشترك مع صفات البشر أو مع أسماء البشر، فأنت تقول: إنّ الله حيّ، وتقول عن نفسك: إنّك حيّ، تقول: إنّ الله كريم، ومن صفات بعض النّاس بأنّه كريم، تقول: الله قادر، والإنسان قادر، لكن دائماً اذكر أنّ الله تبارك وتعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فالله ﷻ لا يمكن أن يُتصوّر، وأفعاله لا تُشبه أفعال البشر، فأفعال الله ﷻ تُنسب إلى قدرته، ولا تُنسب أفعال البشر إلى قدرة البشر، ولا يمكن أن تُخضِعَ فعله لقانون فعلك، عندها تقع في الزّلل، وتقع في الخطأ إذا أنت أخضعت قانون فعلك لله ﷻ، فمثلاً أنت تقول: إنّني أستطيع أن أحمل هذا الإناء من هنا إلى هناك، فهذا الفعل يحتاج إلى مباشرة، ويحتاج إلى قوّة، ويحتاج إلى زمن، ولكنّ الله ﷻ بالنّسبة إلى أفعاله لا يحتاج إلى مباشرة وإنّما إلى كن فهو يُباشر أمره بكلمة ﴿كُن﴾ يقول للشّيء: كن فيكون، فعندما

نأتي لآيات كهذه الآيات البيّنات ونقول: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أن يأتيهم الله، المعنى العامّ أن يأتي أمر الله، أن يأتي يوم القيامة، أو السّاعة التي ينتظرها الإنسان، هذه السّاعة ستأتيه بغتة دون أن يعلم عن قدومها، فيأتي أمر الله ﷻ، ويعبّر الله ﷻ عن أمره بقدومه، وقد يلتبس الأمر على السّامع؛ لأنّه يأخذ الأمر بفعله ويُقارن بين فعله وبين أفعال الله ﷻ ويجب أن نتذكر دائماً أنّه ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، لذلك عندما قال ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء]، قدّم على فعل الإسراء كلمة ﴿سُبۡحَٰنَ﴾، وهي تنزيه لله من أن يكون له مثيل في الذّات أو بالصّفات أو بالأفعال، فكلّ ما يتعلّق بالله ﷻ لا يُنسب إلى فعل البشر وإلى قوانين البشر، فهو خالق البشر ولا يخضع لقوانين البشر وأفعالهم وصفاتهم.

هل ينظرون أن يأتي أمر الله يوم القيامة ﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾: كما قال ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥﴾ [الفرقان]، إذاً هي من علائم يوم القيامة.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تتنزّل الملائكة في ذلك اليوم.

﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾: أي الموضوع قد انتهى، وانتهت أفعال البشر هنا، انتهت الدّنيا، دنيا الاختبار، هذه دنيا ابتلاء، وأنت حرّ في أن تفعل أو لا تفعل، أنت حرّ في أن تؤمن أو لا تؤمن، أنت حرّ في أن تختار أو لا تختار،

أنت غير مضطر إلى أيّ شيء في هذه الدّنيا، ولكن عندما تسمع بهذه الكلمة ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي قضي أمر الاختيار للبشر، ودخلت مرحلة الإجبار، ثمّ نضطرّهم إلى عذاب النّار وبئس المصير، عند هذه اللّحظات لا خيار للإنسان، انتهى وقت الاختيار وبدأت عمليّة الحساب، ولا بدّ من جزاء ومن عقاب، ومن ثواب ومن جنّة ومن نار.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾: فكلّ الأمور مرجعها إلى الله سبحانه وتعالى لذلك دائماً نقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، لماذا عبّر بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وإنّا إليه راجعون؛ لأنّنا أصلاً من الله، هو الّذي خلقنا، وهو الّذي أهبط أبانا آدم وأمّنا حوّاء من الجنّة إلى الأرض، والرّجعة إليه، فقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور، كلّ الأمور بما فيها نفس الإنسان، وتُرجع كلّ الأمور وكلّ ما فعل الإنسان يجده أمامه حاضراً: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَاؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقّة]، بما قدّمتم وبما أسلفتم في هذه الأيّام الخالية، أيّام الدّنيا قبل أن يُقضى الأمر، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقّة]؛ لأنّ مدخل الشّيطان إلى الإنسان: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه]، والإنسان يريد الخلد ويريد المال والمُلك والسّلطان في الدّنيا، ويوم القيامة يفقد الإنسان كلّ شيء وإلى الله

ترجع الأمور، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام].

(الآية ٢١١) - ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾:

هنا العودة إلى شعب بني إسرائيل، والسّؤال عندما يأتي بهذه الصّيغة ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ﴾: ﴿كَمْ﴾ تفيد العدد وتفيد الكثرة من الآيات والمعجزات والأمور الدّالّة على صدق بلاغ سيّدنا موسى عليه السلام عن ربّه سبحانه وتعالى، وكان المخاطب هنا النّبيّ صلى الله عليه وسلم بأن يسأل هؤلاء القوم الّذين يعيشون في المدينة المنوّرة من اليهود ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم﴾ وهو سؤال عامّ، فالنّعم التي منّ الله سبحانه وتعالى بها عليهم كثيرة، منها: أنّه ظلّلهم بالغمام، وأنزل عليهم المنّ والسّلوى، وشقّ لهم البحر بعصا موسى عليه السلام، وأغرق فرعون وجنده.. إذاً هناك ﴿كَمْ﴾ من آية لبني إسرائيل، كثرة النّعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل وكثرة جحودهم، قال تبارك وتعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة].

﴿بَيِّنَةٍ ۗ﴾: واضحة بيّنة للعيان.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: أي كم من معجزة نزلت على بني إسرائيل ومع ذلك رغم كلّ هذه الآيات جحدوا

بها، فمقابلة النّعم تكون بالشّكر وبالعبادة، ولا تكون بالكفران والجحود، فمن يجحد نعم الله فكأنّه يكفر بالله، فضرب الله هذا المثل وقال: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ما هو المقصود بالتّبديل؟ تبديل هذه النّعم التي يتقلّب فيها بكفرانها وجحودها، ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٨].

هذه النّعم التي أنزلها الله على البشر تستوجب الشّكر والحمد، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، فدائماً الشّكر على النّعم يحفظها ويزيد منها، والله ﷻ أنعم علينا منذ أن أوجدنا بالهواء والماء والغذاء والرّزق والنّسل والمال والصّحّة، فجحود النّعم يكون بمخالفة المنعم، والخروج عن أوامر المنعم تبديل لهذه النّعم، وعندما يبدّل الإنسان النّعمة بالجحود والكفر فإنّه يستوجب غضب الله ﷻ، ويستوجب زوال هذه النّعم، لذلك على الإنسان دائماً أن يُنفِق، أن يزكّي، يقول النّبيّ ﷺ: «**ما نقص مال من صدقة**»(١) لماذا؟ هل الصّدقة تزيد المال أم تنقصه؟ حقيقة لو نظرنا إلى المعيار الحسابيّ لوجدنا بأنّ المال ينقص؛ لأنّك ستنقص ٢,٥ بالمئة من قيمة هذا المال وتدفعه للفقراء والمساكين ومصارف الزّكاة، لكن الحقيقة عندما تقدّم هذا المال وأنت تشكر المولى ﷻ، فهي عمليّة شكر لحركةِ حياةٍ، وهذا هو المطلوب، ليس الشّكر حصراً باللّسان، وإنّما يكون الشّكر بحركة الإنسان في الحياة، فحركتك في الحياة تكون عندما تقدّم للغير،

(١) المعجم الصّغير للطّبرانيّ: حرف الهمزة، باب الألف من اسمه أحمد، الحديث رقم (١٤٢).

وتساعد الغير وتزكّي مالك، فلذلك سمّيت زكاة، والزكاة هي النّماء، من الزّيادة، من الطّهارة، تطهّر المال والبدن، تزكّي: تنمّي، فينمى هذا المال ويزداد، فأنت لم تبدّل نعمة الله هنا، أمّا من يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنّ الله شديد العقاب، فعقاب الله جلّ وعلا أليم، أمّا في الدّنيا فبزوال هذه النّعم كما قال النّبيّ ﷺ: «**ما تلف مال في بحر ولا برّ إلّا بمنع الزكاة، فحرّزوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصّدقه، وادفعوا عنكم طوارق البلاء بالدّعاء، فإنّ الدّعاء ينفع ممّا نزل وممّا لم ينزل، ما نزل يكشفه، وما لم ينزل يحبسه**»[1]، هذا من أقوال رسول الله ﷺ: «**فحرّزوا أموالكم بالزكاة**» إذاً فالزكاة حرز وحصن، لم نبدّل نعمة الله ﷻ وإنّما أدّينا شكرها، «**وداووا مرضاكم بالصّدقه**» أنت تداوي المريض بالصّدقة؛ لأنّك عندما تتصدّق على الفقير وتعطيه فإنّك تعطي من مالك وتطلب من الله ﷻ أن يشفي مريضك، فإنّك إذ لم تبدّل هذه النّعمة فإنّ الله تبارك وتعالى يمنّ عليك بشفاء مريضك، «**وادفعوا عنكم طوارق البلاء بالدّعاء**»، وقال رسول الله ﷺ: «**لا يردّ القضاء إلّا الدّعاء**»[2]، فالدّعاء يردّ القضاء، والدّعاء سلاح المؤمن، وهو كما علّمنا نبيّنا ﷺ: «**الدّعاء مخ العبادة**»[3].

---

(١) مسند الشّاميّين: إبراهيم بن أبي عبلة، الحديث رقم (١٨).

(٢) سنن التّرمذيّ: كتاب القدر، باب لا يردّ القدر إلّا الدّعاء، الحديث رقم (٢١٣٩).

(٣) سنن التّرمذيّ: كتاب الدّعوات، باب فضل الدّعاء، الحديث رقم (٣٣٧١).

(الآية ٢١٢) - ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾:

لماذا قال الله ﷻ: ﴿زُيِّنَ﴾ بصيغة المبني للمجهول؟ ولم يقل: زيّن الشّيطان لهم وأضمرها بقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران]، ﴿زُيِّنَ﴾؟ الجواب: أنّ هذا التّزيين إمّا أن يكون تزييناً بحلال فيكون من الله، وإمّا أن يكون تزييناً بحرام فيكون من الشّيطان، لذلك بُني للمجهول، ومصدر هذا التّزيين مجهول، فالزّينة تكون بالحلال وأن يتمتّع الإنسان بالحياة: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص]، إذاً أن تأخذ نصيبك من الدّنيا فكلّ شهوة لها مصرف حلال في الدّنيا، شهوة الجنس لها مصرف الزّواج بالحلال، شهوة جمع المال لها طريق العمل والكسب بالعرق والتّعب، شهوة المجد تحصل بالتّعب والسّهر والاجتهاد، إذاً كلّ شهوة من شهوات الدّنيا لها مصرف حلال فيكون التّزيين لها من الله ﷻ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ أمّا إذا كانت من الشّيطان كالحصول على متعة الجسد من غير ضوابط شرعيّة، والزّنا، وجمع المال بالسّرقة والرّشوة، فهذه المنكرات وغيرها تزيين من الشّيطان، لذلك بُنيت

على المجهول، ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إذاً مقاييس الكافرين مقاييس هابطة لا تتعلّق إلّا بالدّنيا، تبعد المخلوق عن خالقه، وتعزل النّعمة عن المنعم، وأنت أيّها المؤمن انظر من خلال النّعمة في الحياة الدّنيا لمن أنعمها عليك، من خلال ذلك تأخذ النّعمة مجراها الحقيقيّ، أمّا التّزيين من الشّيطان فهو تزيين باطل ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فهم لا ينظرون إلّا إلى متع الحياة الدّنيا.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: هذا أمر طبيعيّ؛ لأنّهم يحصلون على ما يريدون بأبسط وأسهل الطّرق، ويُطلقون لأنفسهم عنان الشّهوات، يسرحون بها ويمرحون وهي الطّرق الملتوية، فجهد عام يأخذه سارق بلحظات، وجهد دراسة خمس سنوات يأخذه آخر بالتّزوير وشراء الشّهادات، وهكذا.. إذاً هم يسخرون من الّذين آمنوا، يسخرون؛ لأنّهم يحصلون على الأمر الّذي يريدون من الطّرق الملتوية والطّرق غير الصّحيحة وطرق الحرام، ويعتقدون أنّها الطّريق الأمثل والأسهل، فإذاً هذه المقاييس هي مقاييس هابطة، زُيّن لهم هذه الحياة الدّنيا؛ لأنّهم فصلوا الحياة الدّنيا عن الآخرة، فصلوا النّعمة عن المنعم، فصلوا الخلق عن الخالق.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: الّذين اتّقوا، ولم يقل: الّذين آمنوا، هذا كلام ربّ العالمين وليس كلام بشر، لو كانت من وضع بشر لأتت الآية بالشّكل التّالي: (زُيّن للذين كفروا الحياة الدّنيا ويسخرون من الّذين آمنوا) طالما يسخرون من الّذين آمنوا فالجواب: (والّذين آمنوا فوقهم يوم

القيامة)، بينما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بدّل كلمة الّذين آمنوا فوقهم يوم القيامة وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؛ لأنّ المعيار هنا معيار يتعلّق بيوم القيامة، ومعيار يوم القيامة معيار دقيق، والإيمان في الحياة الدّنيا قد تشوبه بعض الأشياء، فالإيمان يزداد وينقص، تزيده الطّاعة وتنقصه المعصية، أمّا التّقوى فهي قمّة ونتيجة كلّ عمل إيمانيّ، وزيادة من جنس ما يقوم به الإنسان ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦﴾ [الذّاريات]، فهم جمعوا مع الإسلام الإيمان والإحسان فكانت التّقوى، لذلك قال الله تبارك وتعالى عن التّفاضل يوم القيامة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ فالإيمان ليس كلمة تُقال ولا شعاراً يُرفَع، ولكنّ الإيمان هو عمل، وعندما قال النّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمشركين: (قولوا: لا إله إلّا الله) رفضوا أن يقولوها، ولو كانت القضيّة قضيّة لا إله إلّا الله باللّسان فقط، لكانوا أراحوا أنفسهم وأراحوا محمّداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك، وقالوا: لا إله إلّا الله، لكنّهم علموا أنّ كلمة لا إله إلّا الله لها متطلّبات، فالإيمان ليس كلمة إنّما الإيمان أفعال، الإيمان صلاح، الإيمان إصلاح، الإيمان صدق، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النّحل]، إذاً هو أخلاق، هو قيم، هو التزام، هو استقامة، ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ [هود]، هذه كلّها متطلّبات الإيمان والتي هي الغاية التي نتحدّث عنها.

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾: يرزق من غير حساب، والحساب عندما يكون شيئاً معدوداً، عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يوجد شيء معدود، لذلك

عندما يريد أن يرزق، يرزق من غير حساب، ورزق الله ليس رزق المال فقط، بل كلّ ما انتفع به فهو رزق، فقد يرزق صحّة، وقد يرزق علماً، وقد يرزق جاهاً، وقد يرزق مالاً، وقد يرزق بنينَ، وقد يرزق بناتٍ، وقد يرزق عطاءً، وقد يرزق منعاً، كلّ ذلك يحمل معنى الرّزق.

(الآية ٢١٣) - ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾:

لماذا اختلفوا؟ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ عندما نزل آدم وحواء كانا أمّة واحدة، فلا اختلاف بين النّاس، والاختلاف ينشأ من تعدّد المنافع، وأن تكون المطامع أكثر من المنافع، عندها يحدث الاختلاف والمشكلات، فالأرض واسعة، وكان البشر قلائل، آدم وحواء وابني آدم وزوجتيهما، والأرض متّسعة، والرّزق متّسع، وكلّ شيء متّسع، فمن أين يأتي الخلاف في ذلك الوقت، فالنّاس يُعبّر به عن آدم وحواء بقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ وكانوا مؤمنين بالله جلّ وعلا على الفطرة؛ لأنّ آدم وحواء نزلا بالمنهج الإلهيّ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]، نزلا ومعهما المنهج، ولا يوجد خلاف، لكن المطامع عندما تتّسع ترتبط بالمنافع فعندها يحدث

الخلاف، ولا يحدث الخلاف إلّا من خلال بغي النّاس على بعضهم وأخذ حقوق الآخرين، للاستئثار بالمنافع ومحبّتها والطّمع بها.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ عندما كثر النّاس، وبدأ الخلاف نتيجة لكثرة المطامع، أرسل الله سبحانه وتعالى الأنبياء مبشّرين يبشّرون بالجنّة، ودائماً البشارة قبل الإنذار، وينذرون من عذاب الله، وأنزل معهم الكتاب بالحقّ، والكتاب هو ما أنزله الله سبحانه وتعالى وإذا أُطلق الكتاب فهو القرآن الكريم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر]، والكتاب على العموم يُطلق على التّوراة ويُطلق على الإنجيل ويُطلق على القرآن الكريم ويُطلق على صحف إبراهيم، فالكتاب هو ما أنزله الله سبحانه وتعالى على خلقه من كلامه.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾: ليهدي النّاس حتّى لا يختلفوا، وحتّى تنضبط حركتهم وسلوكهم في الحياة، وحتّى لا يحدث بغي بين النّاس بعضهم على بعض، وحتّى لا تكون المطامع متكلّفة ومستغرقة منافع الدّنيا بأكملها، إذاً أنزل معهم الكتاب بالحقّ، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنّ الحقّ هو الشّيء الثّابت الّذي لا خلاف حوله والباطل هو الشّيء المختَلف عليه.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ البغي هو تجاوز الحدّ بين النّاس بعضهم مع بعض، هذا يريد أن يأكل الميراث بأكمله، وهذا يريد أن يأكل مال غيره، وهذا يريد أن يرتشي، وهذا يريد أن يسرق، وهذا يعتدي على أعراض النّاس، هذا يعتدي على أرض النّاس

بالبغي، هذا يعتدي على حقوق النّاس بالبغي.. هذا الخلاف يأتي نتيجة للبغي، فما اختلفوا إلّا من بعد أن جاءت البيّنات، وجاءت الرّسل والأنبياء، وبيّنوا الأحكام، وبيّنوا طريق الهداية للبشر، لكن اختلاف البشر سببه البغي، تجاوز الحقّ، تجاوز الحدّ، والتّعدي على حقوق الآخرين.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾: هدى الله الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه، فالحقّ نزل مع هذه الآيات البيّنات والله سبحانه وتعالى يهدي، والهداية لها نوعان؛ هداية دلالة وهداية معونة:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصّلت: من الآية ١٧]، هنا المقصود هداية الدّلالة، وهي للنّاس عامّة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: من الآية ٩]، يدلّ النّاس إلى الطّريق المستقيم السّوي، يدلّهم القرآن ويهديهم، فإن هم أخذوا بهذه الهداية فإنّه يُعينهم عليها، وتكون الهداية الثّانية وهي هداية المعونة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ١٧﴾ [محمّد]، لذلك خاطب الله سبحانه وتعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم قائلاً: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ٥٦﴾ [القصص]، وقال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ [الشّورى: من الآية ٥٢]، والآيتان في الشّكل العامّ مختلفتان، الأولى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾، والثّانية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى﴾ كيف؟ إنّك لتهدي إلى صراط مستقيم هداية دلالة، تهدي بقولك، بفعلك، بسنّتك، بالقرآن الّذي أُنزل عليك، تهدي إلى صراط مستقيم، لكن: إنّك لا تهدي من أحببت، أي أنّك لن تُدخل هداية

المعونة، التي مكانها القلب، إلى من تحبّ من النّاس، فهنا تتبيّن حقيقة الهداية بين هداية المعونة، وبين هداية الدّلالة.

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾: لا يظننّ أحد أنّه خارج عن مشيئة الله، وأنّ الّذي ضلّ قد خرج عن المشيئة الإلهيّة، ومن مشيئة الله أن جعل لك مشيئة، فهذا الإنسان الّذي ضلّ واختار طريق الكفر على الإيمان هل خرج عن مشيئة الله؟ الجواب: لا، فليس لأحدٍ أن يقول: إنّ الله يهدي من يشاء وهو لم يهدني فما هو ذنبي؟! فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعطي الهداية لكلّ النّاس وأنت تختار وتُحاسَب على الاختيار، ولكن من اختار الضّلال ولم يختر الهداية فإنّه لم يخرج عن مشيئة الله؛ لأنّ الله شاء لك الخَيار، ولو لم يشأ أن يكون لك الخَيار لأجبرك على الطّاعة كما فعل بالملائكة: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التّحريم: من الآية ٦]، فهذا معنى المشيئة التي وردت في هذه الآية.

(الآية ٢١٤) - ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾:

هل حسبتم أن تدخلوا الجنّة من دون ابتلاءات، ومن دون اختبارات، ومن دون امتحانات؟! فإذاً لا بدّ للإنسان أن يتعرّض للامتحان والاختبار والبلاء: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة]، ضعوا في حسبانكم أنّ دخول الجنّة لا يكون إلّا من خلال الامتحانات، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢﴾ [العنكبوت].

﴿وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾:

﴿ٱلۡبَأۡسَآءُ﴾: الأمراض والابتلاءات العامّة كالحروب والأمراض والفقر.

﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾: الضرّ بالصّحّة، الضرّ بالنّفس، الضرّ بالمال.

﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾: كلمة زلزلوا مركّبة من فعلَي زلَّ زلَّ.

وزلّ: سقط عن الشّيء، إذا وقفت السّيارة فجأة فالرّاكب فيها يأخذ بحركة إلى الأمام وحركة إلى الخلف، حركة متوازنة ما بين الأمام والخلف فهذا معنى الزّلزال، فالزّلزال الّذي يصيب الإنسان، يهتزّ به.

زلزلوا: أي اهتزّوا واضطربوا وتمكّنت منهم هذه الشّدة الشّديدة، وتملّكهم الخوف والذّعر والهلع.

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾: إذاً هم استبطأوا نصر الله، وكأنّهم قالوا: متى نصر الله؟ أو قالوها فعلاً، وكان الجواب بشكل مباشر: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾.

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾: فكأنّ الجواب مضمّناً بالسّؤال متى؟ فهل استبطأوا نصر الله؟ ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ أي: لا تستبطئوا نصر الله، فإنّما هي امتحانات واختبارات وابتلاءات وزلزلة للإنسان واختبار لإيمانه وثباته عليه، وتسليمه لخالقه،

فعندما يتعرّض الإنسان لهذا الزّلزال وهذه الشّدّة يكون النّصر بعد الصّبر لذلك جاء في الحديث الشّريف: «**واعلم أنّ النّصر مع الصّبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وإنّ مع العسر يسراً**»(١).

(الآية ٢١٥) - ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢١٥﴾:

نتحدّث أوّلاً عن سبب النّزول ثمّ نتحدّث عن المعنى العامّ، ونقول دائماً: إنّ القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى وصفة من صفاته، فهناك خصوصيّة في السّبب وعموميّة في المعنى تنطبق على كلّ النّاس وعلى كلّ الأحوال، أمّا سبب النّزول فإنّ صاحب السّؤال الّذي توجّه بهذا السّؤال لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو رجل كبير اسمه عمرو بن الجموح، هذا الرّجل له قصّة، قبل معركة أُحد ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أعرجَ فطلب أن يشارك معه في المعركة، ولكن له عذر كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: من الآية ١٧]، فعن أشياخ من بني سلمة قالوا: كان عمرو ابن الجموح أعرجَ شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله سبحانه وتعالى إذا غزا، فلمّا أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوجّه إلى أُحد قال له بنوه: إنّ الله عز وجل قد جعل لك رخصة، فلو قعدت فنحن نكفيك، فقد وضع الله عنك الجهاد، فأتى عمرو بن الجموح رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنّ

---

(١) مسند الشّهاب: ج١، باب احفظ الله يحفظك، الحديث رقم (٧٤٥).

بنيّ هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك، والله إنّي لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنّة، فقال له رسول الله ﷺ: «**أمّا أنت فقد وضع الله عنك الجهاد**»، وقال لبنيه: «**وما عليكم أن تدعوه لعلّ الله يرزقه الشّهادة**»، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أُحُد شهيداً[1]، هذا هو الرّجل الّذي وجّه السّؤال لسيّدنا رسول الله ﷺ وكان صاحب مال، فسأل النّبيّ ماذا ينفق؟ كان الجواب على من ينفق وبماذا ينفق؟ وهذه الآية والآيات الكثيرة من كتاب الله ﷻ التي تتعلّق بالإنفاق الّذي هو إخراج المال على المحتاجين، وعلى ذوي القربى، وعلى المصارف التي حدّدها القرآن الكريم، لكن بصفة عامّة فإنّ المنهج الإلهيّ جاء من أجل ضبط حركة النّاس في الحياة، ومن أجل أن يساعد النّاس بعضهم بعضاً، وأن يحمي القويّ الضّعيف، وأن تكون هذه الصّلات المجتمعيّة التي حدّدها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾ [المائدة: من الآية ٢]، هذه الصّفات التي أرادها الله ﷻ من ذلك المجتمع، الّذي يشعر فيه القويّ بحاجة الضّعيف، ويشعر فيه الغنيّ بفقر الضّعيف، ويشعر فيه النّاس باحتياجات بعضهم، باليتامى والمساكين والأرامل والجرحى.. كلّ هذه الحالات في المجتمعات تتكرّر بين زمن وآخر، فوضع الله ﷻ ضمن المنهج الإلهيّ عمليّة الإنفاق وجعلها ركناً من أركان

---

(١) سنن البيهقيّ الكبرى: كتاب السّير، باب من اعتذر بالضّعف والمرض والزّمانة والعذر في ترك الجهاد، الحديث رقم (١٧٥٩٩).

الإسلام، بالإنفاق من خلال الزّكاة أوّلاً، وطالما أنّ الزّكاة ركن من أركان الإسلام فلا يظنّنّ أحد بأنّ الفقير فقط هو من يحتاج الغنيّ، إنّ احتياج الأغنياء للفقراء أشدّ بكثير من احتياج الفقراء للأغنياء، لماذا؟ لأنّ الفقير هو جزء من دين الغنيّ، واحتياجات الفقراء هي جزء من أركان الإسلام، فالإسلام بُني على خمس: الشّهادتين وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وصوم رمضان وحجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً، فالزكاة ركن من أركان الإسلام لا يصحّ إلّا بها، والله ﷻ جعل المجتمع الإيمانيّ مجتمعاً متعاضداً ومتماسكاً، كما قال عليه الصّلاة والسّلام: «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى**»[1]، لا أن يجلس كلّ إنسان على أريكته أو في قصره أو في بيته مرتاحاً ومسروراً واحتياجاته مؤمّنة، ويترك ذوي الحاجات في المجتمع عُرضة لكلّ صنوف الابتلاءات وألوانها في الدّنيا، يقول ﷺ فيما يرويه عن ربّه في الحديث القدسيّ: «**يا موسى، ما أجأت الفقراء إلى الأغنياء أنّ خزانتي ضاقت عنهم، وأنّ رحمتي لم تسعهم، ولكنّي فرضت للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم، أردت أن أبلوَ الأغنياء كيف مسارعتهم فيما فرضت للفقراء في أموالهم**»[2].

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، الحديث رقم (٢٥٨٦).

(٢) كنز العمّال: ج٦، الحديث رقم (١٦٦٦٤).

إذاً هو ابتلاء للغنيّ بما أعطاه الله سُبحانه وتعالى، والله فرض في أموال الأغنياء ما يسع الفقراء، ولو أنّنا أخذنا بفريضة الزّكاة بشكل سليم وأخذنا بالصّدقات التي أمر بها الإسلام لَما وجدنا فقراء ولا مساكين ولا محتاجين في المجتمع، هناك مَن يقول: إنّ هذه الأمور نظريّة، وليس كذلك؛ لأنّ هذه الأمور طُبّقت وصَدقَ التّطبيق عندما طُبّقت بشكل كامل، وعندما أُخذ الإسلام بشكل صحيح كما أُنزل، وليس عبر إسقاطات البشر ومفاهيم البشر، سواء التّكفيريّة المتشدّدة أو المتفلّتة التي لا علاقة لها بحقيقة الدّين، لذلك نجد أنّ الإسلام وضع عنواناً أساسيّاً من عناوين أركانه وهو الإنفاق في سبيل الله، قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ [الرّوم]، فالزّكاة هي نماء وهي زيادة في مال الإنسان، لو أنّه أخرج هذا المال عن إيمان وهو يبتغي وجه الله، لذلك نجد أنّ الله سُبحانه وتعالى قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾ [الحديد]، فأنت تقرض الله عندما تعطي الفقير؛ لأنّ الله سُبحانه وتعالى هو الّذي استدعى الفقير إلى الحياة وهو الّذي استدعى الغنيّ، وهو الّذي فرض في مال الغنيّ ما يسدّ حاجة الفقراء من خلال الزّكاة، وصدقة السّرّ أفضل من صدقة العلن، قال سُبحانه وتعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة]، لماذا إخفاء الصّدقة أفضل؟ طبعاً إعلان الزّكاة يكون حتّى نشيع هذا الأمر بين النّاس، أمّا إخفاء الصّدقات فله غاية، وهي أن تتعامل مع الله سُبحانه وتعالى عندما تنفق على

الفقير فلا تمنّ ولا تتفضّل عليه، وفي الحقيقة الفقير هو الّذي يمنّ عليك، أحد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم جاء رجل وقرع بابه ففتح له الباب وطلب منه مالاً فأخذ صدقة وأعطاه إيّاها وأخذ يبكي فقالت زوجهُ: جاءك سائل وأعطيت السّائل فلم تبكي؟ قال: لقد بكيت؛ لأنّني تركت السّائل يسأل، هذا يعني أنّه يجب علينا أن نذهب إلى حاجة السّائلين، وضع الإسلام معايير لاحتياجات النّاس ولدورات الاقتصاد، ففي بعض الأحيان قد تكون هناك أزمات، وهذه الأزمات تتطلّب أن يتكاتف ويتعاضد النّاس، لا أن يستغلّ النّاس بعضهم بعضاً، وإنّما يتكاتفون ليخرجوا من الأزمة، ومن مفرزات الأزمات التي يتعرّضون لها في كلّ وقت، ونحن في بلادنا اليوم عندما نتعرّض لهذه الحرب التّكفيريّة الظّالمة التي لم تبق ولم تذر، والتي مرّ عليها سنوات وهي تلتهم الأخضر واليابس في بلادنا، وكثُر الشّهداء وذهب الأبناء والرّجال، وهُدّمت البنية التّحتيّة في البلاد، فمن الأمر الطّبيعيّ أن تحدث أزمات اقتصاديّة، وأن يتكاتف النّاس ويتعاضدوا، وأن تُحيا في قلوب النّاس مشاعر الإيمان بالصّدقات وبإخراج الزّكاة، قال ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة]، إذاً سبع مئة حبّة، والله يضاعف لمن يشاء، هذه الأرض التي هي مخلوقة إذا أنت رميت بها حبّة أنبتت سبع سنابل وفي كلّ سنبلة مئة حبّة فكيف بخالقها الله ﷻ، لذلك نجد أنّ شريحة الإنفاق التي وضعها الإسلام أو فريضة الزّكاة التي وضعها والفارق ما بين الرّبا وما بين الزّكاة وما بين كيفية أن تُربي الأموال قال ﷻ:

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التّوبة]، لذلك قال النّبيّ ﷺ: «ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا»[1]، كيف لا ينقص هذا المال؟ مئة ليرة حذفت منها ٢,٥ بالمئة وأعطيتها للفقير، وأنت تقسم بأنّه لم ينقص؟! طبعاً لم ينقص هذا المال؛ لأنّك لم تتعامل مع الفقير، وإنّما تعاملت مع الّذي رزقك ورزق الفقير، مع مَن خلقك وخلق الفقير، عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو عليّ هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطّلاق: من الآية ٢، الآية ٣]، حتّى فرغ من الآية ثمّ قال: «يا أبا ذرّ، لو أنّ النّاس كلّهم أخذوا بها لكفتهم»[2]؛ لأنّ تقوى الله تجلب الرّزق والخير للنّاس، فبهذه التّقوى يمكن أن يتعاضد المجتمع، قال البيهقيّ: قال عبد الملك بن قريب الأصمعيّ: أقبلت ذات يوم من مسجد الجامع بالبصرة، وبينما أنا في بعض سككها، إذ أقبل أعرابيّ جلف جافّ على قعودٍ[3] له متقلّداً سيفه وبيده قوس، فدنا وسلّم وقال: ممّن الرّجل؟ فقلت: من بني الأصمع، فقال لي: أنت الأصمعيّ؟ قلت: نعم، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضعٍ يتلى كلام الرّحمن فيه، قال: أَوَ للرّحمن كلام يتلوه

---

(١) مسند البزّار: المجلّد الأوّل، مسند عبد الرّحمن بن عوف، الحديث رقم (١٠٣٢).

(٢) مسند أحمد بن حنبل: مسند الأنصار، حديث المشايخ عن أبيّ بن كعب رضي الله تعالى عنه، الحديث رقم (٢١٥٩١).

(٣) قعود: جمل في مقتبل عمره.

الآدميّون؟ فقلت: نعم يا أعرابيّ، فقال: اتل عليّ شيئاً منه، فقلت: انزل من قعودك، فنزل وابتدأت بسورة (الذّاريات) حتّى انتهيت إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذّاريات]، قال الأعرابيّ: يا أصمعيّ، هذا كلام الرّحمن؟ قلت: إي، والّذي بعث محمّداً بالحقّ إنّه لكلامه، أنزله على نبيّه محمّد ﷺ، فقال لي: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها بسيفه وقطّعها بجلدها وقال: أعنِّي على تفرقتها، فوزّعناها على من أقبل وأدبر، ثمّ كسر سيفه وقوسه وجعلها تحت الرّملة وولّى مدبراً نحو البادية وهو يقول: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ يردِّدها، فلمّا تغيّب عنّي في حيطان البصرة أقبلتُ على نفسي ألومها وقلت: يا أصمعيّ، قرأتَ القرآن منذ ثلاثين سنة، ومررت بهذه وأمثالها وأشباهها فلم تتنبّه لما تنبّه له هذا الأعرابيّ، ولم يعلم أنّ للرّحمن كلاماً، فلمّا قضى الله من أمري ما أحبّ، حججت مع هارون الرّشيد أمير المؤمنين، فبينا أنا أطوف بالكعبة إذا أنا بهاتف يهتف بصوت رقيق: تعال يا أصمعيّ، تعال يا أصمعيّ، قال: فالتفتُّ فإذا أنا بالأعرابيّ منهوكاً مصفاراً، فجاء وسلّم عليّ وأخذ بيدي وأجلسني وراء المقام فقال: اتل من كلام الرّحمن ذلك الّذي تتلوه، فابتدأت ثانياً بسورة (الذّاريات) فلمّا انتهيت إلى قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ صاح الأعرابيّ وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً، قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً، ثمّ قال: يا أصمعيّ، هل غير هذا للرّحمن كلام؟ قلت: نعم يا أعرابيّ، يقول الله ﷻ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ [الذّاريات]، فصاح الأعرابيّ عندها وقال: يا سبحان الله! من ذا أغضب الجليل حتّى حلف؟ فلم

يصدِّقوه بقوله حتّى ألجأوه إلى اليمين، قالها ثلاثاً وخرجت نفسه[1].

فنحن لم نصدّق الله ولو أنّا صدّقناه ﷻ ما وُجد الفقراء ولا المحتاجون ولا المساكين بيننا؛ لأنّ حقيقة الإيمان تكمن في أن نبذل وأن نتصدّق، لذلك النّبيّ ﷺ قال: «**والصّلاة نور والصّدقة برهان**»[2]، برهان على الإيمان، ويجب علينا أن نرضى بالقضاء وأن نصبر على البلاء، وأن نساعد الفقراء، وأن نعطي المحتاجين، وأن نخرج من هذه الأموال، فإذاً لن ينفعك الدّرهم والدّينار؛ لأنّ النّبيّ ﷺ قال: «**تعس عبد الدّينار، تعس عبد الدّرهم، تعس عبد الخميصة**»[3] فيجب أن نُرخّص الأسعار، فليفعل التّجّار كلّ ما يستطيعون، وليفعل النّاس في بيوتهم كلّ ما يستطيعون وليذهبوا إلى جيرانهم وكلّ من لديه مال لينفق من سعته على من لا مال له.

﴿مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾: إذاً الإنفاق يجب أن يكون من كسب طيّب، قال عليه الصّلاة والسّلام: «**إنّ الله طيّب لا يقبل إلّا الطيّب**»[4]، فلا يمكن أن تنفق من حرام، تسرق وتنفق!! فلا بدّ أن يكون هذا المال طيّباً من أصل حلال حتّى تنفق ويتقبّل الله ﷻ منك: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: من الآية ٢٧]، ﴿مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ قبل كلّ شيء في أيّ مجتمع من

---

(١) شعب الإيمان: الثّالث عشر من شعب الإيمان وهو باب التّوكّل، الحديث رقم (١٣٣٧).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الطّهارة، باب فضل الوضوء، الحديث رقم (٢٢٣).

(٣) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: ج٣، باب من اسمه إبراهيم، الحديث رقم (٢٥٩٥).

(٤) سنن البيهقيّ الكبرى: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الخروج من المظالم والتّقرّب إلى الله تعالى بالصّدقة ونوافل الخير رجاء الإجابة، الحديث رقم (٦١٨٧).

المجتمعات وفي أيّ حركة إصلاح انظر إلى علاقة الأبناء والبنات بالأمّهات والآباء، فإذا صلَحت هذه العلاقة صلَح المجتمع بأكمله صلَحت الأسرة، ومن ثمّ صلَح الحيّ، ومن ثمّ صلَح المجتمع وصلَحت المدينة بمجملها؛ لأنّ العلاقة بين الجيل الماضي والذّاهب والجيل القادم لا تحكمها إلّا القيم، لا يمكن أن يحكمها المصالح، المصلحة تحكم عندما تحتاج أنت إلى والديك، أمّا إذا كان والداك بحاجة إليك فأين هي المصلحة؟ هنا تدخل القيم وهنا لابدّ من الشرع ولا بدّ من تذكير الأولاد دائماً بالوالدين، لذلك عندما وعظ لقمان ابنه ماذا قال؟ ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]، فالله ﷻ قطع عليه وصيّته وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان]، فقد تابع لقمان وصيّته لكنّ الله قطع عليه الوصيّة؛ لأنّ الأب لا يوصي الابن بنفسه، والآباء ليسوا محتاجين لوصيّة بأبنائهم، أمّا الّذي يحتاج توصية هو الابن والبنت، والأولاد

بحاجة إلى رضا الوالدين، قال عليه الصّلاة والسّلام: «**رضا الله في رضا الوالدين، وسخط الله في سخط الوالدين**»(١)؛ لأنّ رضا الوالدين سيدخل هذا الإنسان في الصّلاح، وهذا لا شكّ به على الإطلاق، قال ﷻ: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: من الآية ٢٣]، جاء إلى حالة الضّعف حالة الحاجة ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ [الإسراء: من الآية ٢٣]، ثمّ صعّد الأمر: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ٢٤﴾ [الإسراء]، لا أستطيع أن أكافئ والدي ووالدتي مهما فعلت فأَكِلهما إلى ربّي وربّهما حتّى يرحمهما كما ربّياني صغيراً، لذلك قال ﷻ بعدها: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ٢٥﴾ [الإسراء]، فالقضيّة ليست قضيّة مجاملات، وهديّة في عيد الأمّ وعيد الأب، إنّما هو أعلم بما في الصّدور وما في النّفوس، فيجب أن تخرج عن قناعة، وعن قيم مغروسة في نفوسنا فهي طاعة وبرّ الوالدين، فلا شكّ أنّ الّذي ليس فيه خير لأبيه وأمّه لن يكون فيه خير للمجتمع ولا لوطنه، وإذا رأيت إنساناً عاقّاً لأبيه أو لأمّه فكيف يمكن على أيّ مستوى من المستويات أن تؤمّنه على أيّ شيء، والإنسان الّذي لا يُؤمَّن على علاقته مع أبيه وأمّه لا يُؤمَّن على علاقته مع وطنه، فلذلك نجد أنّ القرآن الكريم في

(١) شعب الإيمان: الخامس والخمسون من شعب الإيمان وهو باب في برّ الوالدين، الحديث رقم (٧٨٣٠).

كلّ مناسبة يُدخل الوالدين مباشرة.

﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ لا تقل لي: هناك خير في مكان آخر ووالداك بحاجة، أوّل شيء: ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ بعد ذلك فكّر بما يلي دائرة القرابة التي فيها صلة الرّحم: «**إنّ للرّحم لساناً ذلقاً يقول يوم القيامة: ربِّ صِلْ مَن وصلني، واقطعْ من قطعني**»[1] من الّذي قطّع أوصالنا وقطّع مجتمعاتنا إلّا الغرب؟ فوسائل التّواصل الاجتماعيّ كالفيس بوك والتّويتر والواتس بدلَ أن تكون من أجل العلم ولقضاء حاجات النّاس، أصبحت إفساداً للنّاس ووسائل قطع للأرحام وللعلاقات في المجتمع، حتّى تجد أفراد الأسرة يجلسون أكثر من شهر مع بعضهم لا يتكلّمون كلمة الأب والأمّ والأولاد، كلّ يمسك بيده الجهاز وهو منشغلٌ به، لذلك انقطعت الأرحام، انقطعت الصّلات، انقطعت العلاقات، كلّ البلاء الّذي جاء للمنطقة العربيّة جاء من الوسائل التي اخترعها أعداؤنا لتكون وبالاً علينا؛ لأنّنا لا نستطيع أن نستخدمها الاستخدام الصّحيح والسّليم، فلو أنّنا استخدمناها الاستخدام العلميّ والاستخدام التّقنيّ والاستخدام الّذي يفيد لما وصلنا إلى هذا الّذي نحن فيه، ولكن نحن نستخدمها فيما يضرّ، نبحث عن أسرار النّاس، وعن فضائح النّاس، والافتراء على النّاس، قطعنا الأوصال بين المجتمع بما يسمّى بالجحيم

---

(١) شعب الإيمان: السّادس والخمسون من شعب الإيمان وهو باب في صلة الأرحام، الحديث رقم (٧٩٣٦).

العربيّ أو الرّبيع العربيّ الّذي تحوّل وحوّل المنطقة إلى جحيم وإلى نار، فهذه هي الحقيقة، هكذا استطاعوا الدّخول إلى عقول النّاس، وهكذا اندسُّوا في غرف النّاس بين الأسر فقطّعوا الأوصال وقطّعوا الأرحام من خلال هذه الاتّصالات وهذه الشّبكات التي أصبحت موجودة داخل غرفنا، وعندما قطعوا النّت منذ عدّة أيّام وجّه الناس الشّكر؛ لأنّهم جلسوا مع أبويهم ومع أسرهم، أصبحوا يتحدّثون مع بعضهم وعادت العلاقات الاجتماعيّة، فإذاً الخير أوّلاً للوالدين وبعد ذلك للأقرباء: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ اليتيم حتى لو لم يكن بحاجة مادّيّة فلكونه يتيماً فهو ضعيف؛ لأنّه فقد السّند، فقد الأب، فيجب أن يشعر أنّه ذو سند، لذلك دائماً يأتي ذكر الأيتام، ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ المحتاجين، وقد وضّح القرآن الكريم ذلك: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون]، وعندما تحدّث عن عاد وما فعل الطّغاة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر]، فهذه المعايير هي المعايير المقلوبة مع حبّ المال، وأكل الميراث، ومنع الحضّ على الخير، وعدم الشّعور بحاجة اليتامى والمساكين، هذا هو حقيقة الدّين، هذا هو صلب الدّين لذلك وجدنا مصارف الإنفاق التي حدّدتها هذه الآية الكريمة هي الوالدين والأقربين

واليتامى والمساكين وابن السّبيل، وابن السّبيل تعني المقطوع الّذي لا مال ولا أهل له.

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾: إذاً اجعل مقياس الخير مع الله ﷻ وحده؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "إنّ الصّدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السّائل"(١).

(الآية ٢١٦) - ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾:

هذه هي دورة الحياة، ولا يمكن للأوطان أن تسلم وتعيش الأمن والأمان طالما هناك غوائل المعتدين وأطماع المستعمرين، فلا بدّ أن يكتب عليك القتال لتدافع عن وطنك، عن عرضك، عن مالك، عن وجودك، عن تاريخك، عن مستقبلك، وعندما دخل الإرهابيّون وطننا، وعاثوا فيه فساداً وإفساداً وقتلاً كان لا بدّ أن نقاتل حتّى ندافع عن وطننا.

عندما يقول الله في الآية: ﴿كُتِبَ﴾ بصيغة المبني للمجهول؛ فلأنّ هناك عقداً إيمانيّاً بينك وبين ربّك، أنّك آمنت به، ولم يكتب على كلّ النّاس، كتب على من آمن، فلم يقتحم على أحد حريّة الاختيار الممنوحة له، وإنّما عقد الإيمان الوثيق بينك وبين ربّك.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾: الله ﷻ خالق الإنسان يقول

---

(١) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: ج٣، الحديث رقم (٤٦١٨).

ويُثبت: بأنّ القتال كُرْهٌ للإنسان بفطرته السّليمة، كلّ النّاس يكرهون القتال، والّذي يريد القتال ويسعى إليه هو المعتدي، أمّا الإنسان السّويّ، بطبيعته الإنسانيّة الصّافية، لا يريد القتل ولا القتال، ولكن كُتب عليك القتال إن أنت قوتلت وأُجبرت عليه، قال ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحجّ]، لذلك أنت عندما تتعرّض للعدوان يُكتب عليك القتال، لكن هنا يجب أن نأخذ بالمقاييس العامّة الواسعة وليس بالمقاييس الضّيّقة التي يراها النّاس فقط، الله ﷻ أتبع قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾، بقوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فمقاييس الخير ليست بيد الإنسان، وهو لا يعلم الغيب، ولو علم الغيب لاستكثر من الخير، ولا يعرف الخير المضمر ولا الشّرّ المضمر فيما تخبّئه الأيّام، لذلك الإنسان أحياناً يدعو بالشّرّ دعاءه بالخير، قال ﷻ: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء]، فهو يتعجّل الأمر، والإنسان يكره الموت، والله ﷻ قال لسيّد الخلق ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزّمر]، وقال ﷻ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ [آل عمران: من الآية ١٨٥]، لا يوجد مفرّ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: من الآية ٨٨]، يُقال: إنّ رجلاً ركب مع بحّار فسأله: أين مات أبوك؟ قال: في البحر، قال: وأين مات جدّك؟ قال: في البحر، فقال له: أتركب البحر بعد ذلك! فأجابه البحّار: أين مات أبوك؟ قال: على الفراش، قال: وأين مات جدّك؟ قال:

على الفراش فقال البحّار: أَوَ تنام بعد ذلك على الفراش؟

قال الشّاعر:

نسير إلى الآجال في كلّ لحظةٍ   وأعمارنا تُطوى وهنّ مراحلُ
ولم أر مثل الموت حقّاً كأنّما   إذا ما تخطّته الأمانيُّ باطلُ
وما أصعب التّفريط في زمن الصّبا   فكيف به والشّيب للرّأس شاملُ
ترحّل من الدّنيا بزاد من التّقى   فعمرك أيّام وهنّ قلائلُ

وقال آخر:

هَبْ أنّك قد ملكت الأرض طُرّاً   ودانَ لك البلاد فكان ماذا؟!
أليس غداً مصيرك جوف قبر   ويحثو التّرب هذا ثمّ هذا؟!

إذاً مقاييس الخير لا تعرفها أنت، فليست هي ما تكره وما تحبّ، فاجعل هذا الخيار لله الّذي يعلم، فالموت والحياة بيد الله، قال الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما لأبيه: لمَ لا تلبس الدّرع يا أبتِ؟ قال: "نحن قوم لا نبالي أوقعنا على الموت، أم وقع الموت علينا".

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾: أنت تحبّ الشّيء، قد يحبّ ابنك أن يشتري ما يضرّه، فهل تشتري له هذا أم تمنعه؟ منعك من شرائه هو عطاء له وتقديم الخير له، ولكن بمقاييس الحكيم، وليس بمقاييس الطّفل، فكيف إذا كان أحكم الحاكمين؟ وكيف إذا كان الإنسان مخلوق لله سبحانه وتعالى؟ فمعايير القبول ومعايير الخير ومعايير الشّرّ هي بيد الله سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى يعلم وأنتم لا تعلمون لذلك ختم الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أنتم تعلمون ظاهراً من الحياة

الدّنيا، وأنتم عن الآخرة غافلون، أنتم عن المستقبل غافلون أيضاً، وأنتم لا تعرفون بعد لحظات ما سيجري لكم، لذلك ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

(الآية ٢١٧) - ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾:

ما زال الحديث يتعلّق بالإنسان كفرد وبالمجتمع، كمجتمع إيمانيّ متكامل، وفي هذه الآية سؤال وجّه للنّبيّ ﷺ إثر إحدى السّرايا، في هذه السّرية خرج عبد الله بن جحش رضي الله عنه ومعه ستّة من المسلمين للاستطلاع، فاشتبكوا مع المشركين قرب مكّة، وقعت هذه الحادثة في أوّل شهر رجب، وهو أحد الأشهر الحرُم، والأشهر هي اثنا عشر شهراً في كتاب الله، منها أربعة حُرم، رجب فرد، وذو القعدة وذو الحجّة ومحرّم سردٌ، وهذه الأشهر الأربعة كانت لها خصوصيّة قبل الإسلام، وكانت العرب لا تتقاتل في هذه الأشهر، حتّى إنّ الرّجل يرى قاتل أبيه في هذه الأشهر فيدعه، وجاء الإسلام فأقرّ هذه الأشهر وجعل لها حرمتها حتّى يعتاد النّاس على سلام هذه الأشهر التي لا يجوز فيها القتال، وكان القتال في أيّام العرب في الجاهليّة كثيراً ما يحدث، فهذه الأشهر التي هي رجب الفرد وذو القعدة وذو الحجّة

والمحرّم، هذه الأشهر يتوقّف فيها القتال، وأيضاً المسجد الحرام محرّم فيه القتال، وهنا عندما حدث هذا الاقتتال في أوّل رجب حدث لغط كبير حول هذه القضيّة فنزلت هذه الآيات، ومن المعلوم أنّ خصوصيّة السّبب لا تمنع عموميّة المعنى، فالآيات القرآنيّة تأتي منجّمة، تتنزّل إثر أحداث حدثت، ويُستنتج منها ما يهمّ النّاس في كلّ زمان ومكان، وما يُفسِّر القرآن هو سلوك النّبيّ ﷺ وأوامره، والتي هي واضحة ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: من الآية ٧].

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ وهناك ما هو أكبر من ذلك: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ وإخراج النّاس من ديارهم وأوطانهم والاعتداء على أوطانهم والاعتداء عليهم هو أكبر من حرمة الشّهر الحرام وأكبر من حرمة المكان المحرّم، والفتنة أكبر من ذلك كلّه، الفتنة أكبر من القتل، وقد مرّت معنا آية سابقة في سورة (البقرة) هي: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾[البقرة: من الآية ١٩١]، وفي هذه الآية: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾، طبعاً ليس في القرآن الكريم تكرار، وإنّما هو السّياق القرآنيّ، ودائماً يجب أن نضع معايير ونحن نفسّر كلام الله ﷻ؛ لأنّ هذا الكلام هو كلام الله، دائماً الكلام يخصّ صفة المتكلّم، أنت عندما تتحدّث حديث ما، ولله المثل الأعلى -ونحن نضرب الأمثال لا للتّشبيه بل للتّقريب- عندما يتحدّث الإنسان تكون قيمة حديثه بحسبه وبصفته، فدائماً الكلام صفة من صفات

المتكلّم، وكلام الله صفة من صفاته، وهي صفات كمال وصفات جلال، لا يوجد فيها نقص، والنّقص هو في طريقة الاستنباط، أو حسب فهم النّاس لمدلولات كلام الله، والّذي يفسّر كلام الله ﷻ هو رسول الله ﷺ، وعندما تمرّ الآية: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ أي أنّ حجم الفتنة أكبر من تأثير القتل، وعندما يقول ﷻ: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾، أي أشدّ وقعاً من جريمة القتل، كجريمة عامّة بحقّ المجتمع؛ لأنّ الفتن تدمّر المجتمعات، وهي تقلب المعايير رأساً على عقب، والفتنة تأتي من تعمية الأمور وإلباس الحقّ بالباطل.

﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾ [البقرة]، عندما تشيع الفتن في مجتمع من المجتمعات، فإنّها تُبيح الدّماء والأعراض والأموال، وتؤدّي إلى ما تؤدّي إليه الحروب والجرائم والإرهاب من خراب وقتل وكلّ ما سوى ذلك: ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ فيجب أن ننتبه أن لا نأخذ من مفردات الدّين مادّة حتّى نعمّي على كليّات التّديّن، أن لا نأخذ آية ونبترها من سياقها، ونطلقها على قضايا ليست هي القضايا التي أرادها الله ﷻ، فنأخذ من جزئيّات التّديّن ما يناقض أساس الدّين، ما هو أساس الدّين؟ هناك خمس أمور تعتبر الأساسيّات التي حافظ عليها الإسلام، وهي:

١- الحفاظ على النّفس.

٢- الحفاظ على العقل.

٣- الحفاظ على العرض.

٤- الحفاظ على المال.

٥- الحفاظ على الدّين.

وتسمّى الضّرورات الخمس، فالمعايير الشّرعيّة تندرج ضمن هذه الأحكام، ولا يجوز لك أن تأخذ جزئيّة من الدّين، وتضرب بضرورة من ضروراته، تأخذ جزئيّة من الدّين تحتجّ بها لتقتل البشر، أو تأخذ جزئيّة من الدّين كانت في سياق معركة معيّنة أو قضيّة معيّنة لها أسباب، فتحرّف ما تريد منها وتُطلقها على البشر، هذا ما يحدث الآن من الحركات الإرهابيّة، مثلاً كلمة الإرهاب التي وصموا الإسلام بها من أين جاءت؟ وقد قال تعالى فيما مضى من الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة]، إنّ الإسلام مشتقّ من مادّة السّلام، فمن أين جاءت كلمة الإرهاب، أو من أين وُصم الإسلام بالإرهاب؟ لقد أخذوا آية من آيات القرآن الكريم ومدلولات اللّغة العربيّة تختلف تماماً عن مصطلحات اللّغات الأخرى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٠]، فأخذوا كلمة ﴿تُرْهِبُونَ﴾ على أنّها إرهاب، والإرهاب في اللّغة العربيّة معناه يختلف عن معنى ومصطلح الإرهاب الّذي يُستخدم اليوم، الإرهاب في المصطلح الّذي يتعارف عليه العالم غربه وشرقه هو ترويع الآمنين والاعتداء عليهم وعلى النّاس، وأن تقتل وتفجّر وتفخّخ وتخرّب وتزرع الرّعب في نفوس النّاس، هذا هو معنى الإرهاب اليوم، أمّا معنى الإرهاب في الآية: ﴿تُرْهِبُونَ

﴿بِهِۦ﴾ أي تمنعونهم من الاعتداء، فيختلف الأمر تماماً؛ لأنّه إعداد: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٠]، إذاً تمنعونهم من الاعتداء عليكم، هذا هو المعنى اللّغوي والمعنى الشّرعيّ الاصطلاحيّ، كما فسّرنا آيات سابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة]، ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: من الآية ٣٦]، إذاً القتال لا يكون إلّا لعلّة الاعتداء، لا يكون لعلّة العقيدة، وهذا فارق هامّ جدّاً، دائماً العدوان والقتال وما يتعلّق به يكون ردّاً على عدوان وعلى اعتداء، حتّى لا يحمل أحد الآيات على غير محملها، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لماذا؟ قال ذلك لأنّهم يمنعون حريّة اختيار النّاس، عندما جاء الإسلام لم يطلب من أحد أن يسلم جبراً وكرهاً على الإطلاق؛ لأنّه قال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، وهذا أمر معروف وواضح، لكن لماذا كانت الفتوحات؟ لماذا كانت هذه المعارك التي خاضها المسلمون؟ هم خاضوها أوّلاً دفاعاً عن أنفسهم وعن أوطانهم، ثانياً لحماية حريّة اختيار النّاس، فهم لم يدخلوا إلى مكان وأجبروا النّاس على الدّين وقالوا له: إمّا أن تُسلم وإمّا أن تُقتل، فهذا لا يمكن، ولو وُجد ذلك لمَا بقي أحد من غير المسلمين على وجه الأرض، فإذاً المفاهيم مغلوطة، المفاهيم مركّبة، هذه الجماعات التي استخدمت الإرهاب عنواناً لها وعقيدة

خالفت الشّرائع السّماويّة كما أنّها كفرت بما أنزل الله؛ لأنّها تقتل البشر، والله ﷻ ضمن للنّاس الحفاظ على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ومعتقداتهم، لذلك وصايا الصّحابة رضوان الله عليهم بعد رسول الله ﷺ كانت دائماً: "لا تقطعوا شجرة، لا تحرقوا زرعاً، لا تخرّبوا... لا..."، كلّ هذه الأمور للحفاظ على هذه الكليّات وهذه الضّرورات الخمس، للحفاظ على حريّة النّاس ومعتقداتهم، وهذا ما جاء به الإسلام وهذا هو صحيح الدّين كما أُنزل على نبيّنا ﷺ.

(الآية ٢١٨) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾:

ثلاثة أصناف، هم: الّذين آمنوا، والّذين هاجروا، والّذين جاهدوا في سبيل الله، يرجون رحمة الله، هناك من الّذين آمنوا السّابقون، ثمّ المهاجرون الّذين تركوا ديارهم وأموالهم في مكّة وهاجروا إلى المدينة المنوّرة، والّذين جاهدوا مع رسول الله ﷺ ودافعوا عن وجودهم وعن دينهم وعن مقدّساتهم، هؤلاء هم الّذين يرجون رحمة الله، ولسائل أن يسأل: إن كان هؤلاء غير متيقّنين من رحمة الله، فمن هو المتيقّن من رحمة الله؟ ﴿يَرۡجُونَ﴾ أي غير متيقّنين، لذلك هناك رجاء، يجب أن ننتبه بأنّنا في الدّنيا نرجو رحمة الله ﷻ، لذلك سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه كان يقول: "والله لو نادى مناد أنّ كلّ النّاس يدخلون الجنّة إلّا رجلاً واحداً، لاعتقدت أنّه عمر" هذا من خشيته ألّا تناله رحمة الله ﷻ، لذلك في الحديث الصّحيح قال ﷺ:

«**لن يُدخل أحداً عملُه الجنّة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله بفضل ورحمة، فسدِّدوا وقاربوا...**»(١)، إذاً لا تعوّل على أعمالك وعوّل على رحمة الله ﷻ؛ لأنّ الله ﷻ برحمته جعل الجنّة جزاءً لعملك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: الله ﷻ عندما يتحدّث عن الرّحمة يذيّل بالمغفرة، وأنّ من صفاته الغفور الرّحيم، واسم الله ﷻ اسم الجلالة الأعظم هو ﴿ٱللَّهُ﴾، وأسماء الله الحسنى وصفاته كثيرة، جاء في الحديث: «**إنّ لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلّا واحداً، من أحصاها دخل الجنّة**»(٢)، إذاً فهناك تسعة وتسعين اسماً، لكنّ الله ﷻ ابتدأها باسمه الرّحمن الرّحيم في البسملة، ولم تخل سورة من السّور في البداية من بسم الله الرحمن الرّحيم إلّا سورة (التّوبة)، وهي مئة وأربع عشرة سورة، ولكن ورد في سورة (النّمل): ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ [النّمل]، فصارت على عدد سور القرآن الكريم، الرّحمن الرّحيم؛ لأنّ الله ﷻ رحمن الدّنيا ورحيم الآخرة، رحمن الدّنيا أي أنّ رحمته تسع كلّ خلقه المؤمن والكافر والطّائع والعاصي، ورحيم في الآخرة، ورحمة الآخرة دخول الجنّة، ومتعلَّق الرّحمة يختلف بين الرّحمن وبين الرّحيم، وصفات الله لا تنقص ولا تزداد، وإنّما يزداد المتعلّق بها، فالجميع في الدّنيا يتعرّضون لنفحات الله، المطر ينزل على المؤمنين وعلى غير المؤمنين،

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المرضى، باب نهي تمنّي المريض الموت، الحديث رقم (٥٣٤٩).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب التّوحيد، باب إنّ لله مئة اسم إلّا واحداً، الحديث رقم (٦٩٥٧).

والرّزق للمؤمن وللكافر، والصّحّة للمؤمن وللكافر، والمال للمؤمن وللكافر، والسّلطان على المؤمن وعلى الكافر، أمّا في الآخرة فلا يمكن أن يدخل المؤمن والكافر الجنّة معاً، لذلك تفترق صفتا الرّحمن والرّحيم في الآخرة، تذيّل آيات الرّحمة بأنّ الله غفور يغفر الذّنوب لكن هذه المغفرة من جرّاء أنّه رحمن رحيم.

(الآية ٢١٩) - ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾:

ليس القرآن الكريم كتاب فيزياء ولا كيمياء ولا قصّة ولا هو كتاب تاريخ ولا كتاب ثقافة، ليس له أبواب، وليس له فصول، إنّما يتعلّق بحركة الإنسان في الحياة، وضبط حركة الإنسان وفق منهج الله سبحانه وتعالى، نزل القرآن الكريم من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا ليباشر مهمّته مع سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، نزل منجّماً حسب الأحداث التي كانت تجري، ومنها مادّة السّؤال: يسألونك ماذا؟ يسألونك عن؟ يكون الجواب: قل، باستثناء الآية التي فسّرناها: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٦]، فهي من غير (قل)؛ لأنّ القرب من الله سبحانه وتعالى لا يقتضي البعد بكلمة ولو كانت من حرفين وهي: (قل)، فالمهمّ هنا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ ما هو الحكم فيما يتعلّق بأمور الخمر والميسر؟ الخمر من السّتر، وضعت الخمار الّذي تغطّي به محاسنها، تأتي الخمر بمعنى

ستر، أي سترٌ للعقلِ، وهذا تعريف الخمر، لماذا؟ لأنّه هو يستر العقل، يُذهب العقل، والميسر من اليسر، يتحصَّل على المال بأيسر الطّرق وأسرعها، وعندما يلعب ورقاً أو نرداً أو أيّ شيء من دون جهد أو تعب ولا علم ولا.. ليحصَّل ما في جيب غيره من دون حركة منه، فهذا اسمه ميسر، ويتعلّق الخمر والميسر بفساد المجتمعات، وعندما جاء الإسلام جاء بحرب لا هوادة فيها على الفكر الأساسيّ الّذي هو العقيدة؛ لأنّه لم يأت إلى ما أَلِفَه النّاس من عبادة الأصنام ليدرّجهم في عدد الأصنام، خمس أصنام فأربع فثلاث فاثنين بالتّدرج، لا يوجد تدرّج في العقيدة: لا إله إلّا الله، انتهى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة]، والآيات المكّية تتعلّق بالعقيدة، وبأنّ الله واحد، وأنّه سيحاسب النّاس على عملهم، أمّا التّشريعات فتأتي لمعالجة المجتمع، فالمجتمع قد يكون ألف عادة الخمر والميسر وخصوصاً الخمر الّذي كان كالماء، يُشرب في المجتمعات العربيّة وكان ممّا أَلِفَه النّاس، فلا يمكن أن تأتي إلى ما ألف النّاس وأن تمنعه دفعة واحدة، فقد مُنع بالتّدرّج، ويوجد فارق كبير بين النّصح وبين الأمر، وتفاوتَ الموضوعُ بين النّصح بالبدء إلى الأمر بالانتهاء في الحكم النّهائي بالنّسبة للخمر، فأوّلاً بدأ بالتّدرّج بتحريم الخمر والميسر.

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ البدء أوّلاً بما بدأ به القرآن بمعالجة إلف العادة، فبالنّسبة للخمر جاءت هذه الآية: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، إذاً الإثم أكبر من النّفع، والنّفع الّذي

تشاهدونه هو نفع قليل، بعد ذلك عندما توضّحت الصّورة ابحثوا وشاهدوا الآيات التي في سورة (النّحل): ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ قال: ﴿حَسَنًا﴾ على الرّزق، لكن على السّكر لم يقل شيئاً بل سكت، لم يقل: ﴿حَسَنًا﴾، نزع كلمة حسناً؛ لأنّه لا يمكن أن يكون السّكر حسناً، لكنّه بدأ بمعالجة هذه الظّاهرة المتفشيّة في المجتمع تدريجيّاً فكانت المرحلة الأولى: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، ولكن إثمهما أكبر من نفعهما، بعد ذلك نزل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النّساء: من الآية ٤٣]، فالإنسان عندما يكون في حالة سكر لا يعلم ما يقول، فلا يجوز أن يَقرأ في الصّلاة، والصّلاة خمس مرّات باليوم، فبدأ بالتّدريج بالحدِّ من انتشار الخمر في المجتمع، لم يقل مباشرة من أوّل لحظة: الخمر حرام فاجتنبوه ولا تقربوه، وإنّما أوّل شيء بيّن أنّ فيه إثماً كبيراً ومنافع للنّاس وإثمه أكبر من نفعه، بعد ذلك قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ إذاً خمس أوقات تقلّص الوقت الّذي يمكن للإنسان أن يشرب فيه الخمر، إلى أن جاء التّحريم النّهائيّ القطعيّ الّذي لا يقبل أشدّ من كلمة التّحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة]، فعندما يقول: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ لا يأتي أحد ويقول: القرآن لم يحرّم الخمر، هل أنت مهتمّ إن حرّم القرآن أم لا؟! من يريد أن يشرب الخمر غير مهتمّ بهذا الأمر، لا يجوز أن تحرّف كلام الله، وتطلب تحليل ما

حرّم الله، وتتكلّم بما يحلو لك، القرآن الكريم واضح، وقد كان يعالج إِلْفَ العادة بالنّسبة للخمر، لكن عندما يقول عن شيء: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ أي اتركوه نهائيّاً، وقد قال عن شيئين اجتنبوه: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحجّ]، وقال عن الخمر والميسر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة]، ولا تقربوا قالها عند النّهي عن الزّنى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء]، فعدم القرب من الشّيء أشدّ تحريماً له، وعندما يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ اجتنبوه أي أعطوه جنبكم ولا تلتفتوا إليه نهائيّاً، ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ أيّ مكان هو فيه، ولا تقربوا أيّ مكان يُشرب فيه الخمر أيضاً، فالاجتناب أشدّ من التّحريم قولاً واحداً، وهو ليس بحاجة لإعادة تكرار، هذا بإجماع علماء الأمّة عبر تاريخها، فتحريم الخمر تحريم قطعيّ وهي من الكبائر، لذلك قال ﷺ: «**لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبايعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه**»(1)، فكلّ من يتعامل بالخمر، وكلّ من يتعامل بالميسر والقمار يُصيبه الإثم؛ لأنّ فيهما خراب للمجتمع، بعض المجتمعات المتحضّرة بدأت تعمل على الحدّ من الخمر ومنع الميسر، وهي بذلك تقترب من أوامر الله سبحانه وتعالى؛ لأنّها تعلم أنّه لم يحرّم القرآن الكريم شيئاً إلّا لمصلحة البشر، فالله سبحانه وتعالى ليس ينقصه شيء أو يزيده شيء: «**يا عبادي، إنّكم لن**

(١) سنن أبي داود: كتاب الأشربة، باب في العنب يُعصر للخمر، الحديث رقم (٣٦٧٤).

تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»(١)، الله سبحانه وتعالى لا يزيد في ملكه ولا ينقص في ملكه إن كنّا ارتكبنا المحرّمات أم لم نرتكبها، لكن ارتكاب المحرّمات يسيء للمجتمع، فشرب الخمر يُذهب العقل، وعندها يُصبح الإنسان معرّضاً لاتّخاذ قرارات غير سليمة، أصبح معرّضاً لفقدان وعيه الكامل، أصبح معرّضاً لارتكاب الفواحش، والسّرقة والزّنى..، أمّا الميسر فهو من الخطورة بمكان؛ لأنّه يعوّد الإنسان على أن يحصل على مال غيره من دون عمل منه، وهذا يؤدّي بالنّتيجة إلى فساد كبير في المجتمع، وإلى مدّ اليد إلى أموال الغير، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [النّساء: من الآية ٢٩].

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾: السّؤال عن الإنفاق، لكن هنا بطريقة أخرى، لماذا تكرار السّؤال: يسألونك عن الإنفاق؟ لأهمّيّة موضوع الإنفاق في الدّين، والإنفاق والزّكاة جزء من دين الغنيّ يُطالَب بذلك أكثر من الفقير، والزّكاة لها عدّة مصارف، والزّكاة لها عدّة أنصبة، فزكاة المال النّقديّ ربع العشر، وزكاة الزّروع نصف العشر إن كان مرويّاً، والعشر إن كان غيرَ مرويّ.. إذاً عدّة مراتب

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

للزّكاة، فالإنفاق هو جزء من الدّين، بل هو أكثر من ذلك؛ لأنّك تشعر عندما لا تترك في المجتمع من هو محتاج أو فقير أو يتيم أو مَن هو مِن ذوي الاحتياجات إلّا وتكون سنداً له، فأنت تحقّق بذلك أهمّ ما جاء به التّشريع الإسلاميّ، وهو إشاعة السّلم والسّلام والأمن والأمان والتّكافل الاجتماعيّ بين أفراد المجتمع، ولا ينهض مجتمع أبداً إن كان أغنياؤه لا يشعرون بفقرائه، ما الّذي يحمل الإنسان على التّخلّي عن جزء من ماله؟ إنّه اعتقاده أنّه مال الله ﷻ، وهو الّذي وضعه بين يديه ونسبه إليه، فمن فضل الله عليك أنّه خلق ونسب إليك، فالمال مال الله لكن نسبه إليك، وعندما يتحدّث عن الفقراء قال: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التّوبة]، نسب الأموال لهم وهو مال الله، والصّدقة تطهّر وتزكّي المال وتنميه، فما الّذي يدعو الإنسان أن يتخلّى عن جزء من ماله للفقراء والمساكين والأرامل واليتامى إن لم يكن على قناعة بأنّ هذا هو الدّين؟ ما الّذي يدعوه أن يكون محسناً؟ إذا كان حتّى يقول النّاس عنه: إنّه محسنٌ كريمٌ، فإذاً لو أعطى ولم يرَ مِن المُعطَى ردّاً للجميل وشكراً له فإنّه لن يفعل الجميل مرّةً أخرى، أمّا بالنّسبة للإسلام، فأنت لا تنتظر ردّ الجميل من الفقير وإنّما من ربّ الفقير، فأنت تتعامل مع ربّ الفقير ولا تتعامل مع الفقير، فهذا من صلاح المجتمعات لذلك كرّرت الآية أكثر من مرّة، وكُرّر السّؤال أكثر من مرّة؛ لأنّهم كانوا يعرفون تماماً أنّ الإنفاق دليل على صحّة الإيمان، والإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل، وأوّل تصديق للعمل هو

أن تتخلّى عن مالك، جاء في الحديث الشّريف: «**والصّلاة نور والصّدقة برهان**»(١)، قُلْ لإنسان: صلّ مئة ركعة، ربّما يفعل، لكن قُلْ له: تصدّق بألف ليرة، ربّما يجد فيها صعوبة، بينما الإسلام قرن بين الزّكاة والصّلاة، وجاء ذلك في سبع وعشرين آية في القرآن الكريم، منها: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة]، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم أيضاً عن الأنبياء عليهم السلام فهذا عيسى بن مريم عليه السلام يقول وهو في المهد: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم]، ويصف تبارك وتعالى إسماعيل عليه السلام بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم]، فكلّ الأنبياء جاؤوا بقرن الصّلاة بالزّكاة وفعل الخيرات الّذي هو الإنفاق، وهذا هو المطلوب الآن في المجتمع.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾: العفو من عفا، والعفو الزّيادة في المال، الزّيادة ممّا أنت محتاج إليه، أنفق ممّا زاد عن حاجتك، هذه هي الزّكاة الزّيادة، وأيضاً تعطيك معنىً آخر هو إشاعة العفو بين النّاس بدلاً من الأحقاد، عن طريق الإنفاق وعن طريق الصّدقات والزّكاة، والفقير سواء كان محتاجاً أو كان مريضاً وأنت دفعت قيمة العلاج والدّواء والمشافي، وأنفقت عليه يشعر بالأمان والرّاحة، ويشيع العفو في المجتمع عن الأحقاد، وتذهب

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الطّهارة، باب فضل الوضوء، الحديث رقم (٢٢٣).

الضّغائن من النّفوس ومن الصّدور بالإنفاق، لذلك الإنفاق سمّي العفو.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾: الإسلام دائماً يخاطب العقل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ولو أنّ الإنسان عاد إلى فكره وإلى سلامة عقله من دون المؤثّرات الخارجيّة التي تضغط عليه، لو عاد إلى صفاء فطرته لوجد أنّ التّشريعات الإسلاميّة جاءت لخير النّاس، ولم تأت للتّقنين على النّاس، وبعضهم يرى بأنّ الإسلام حلال وحرام وأوامر ونار وجنّة، ويريد أن يتحلّل من هذه القيود، وهذا يقول: نصلّي ركعتين بدل أربعة، وآخر يقول: لنجعل الصّيام في رمضان ثلاثة عشر يوماً بدل ثلاثين، الله ﷻ قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٦]، وطالما كلّفني إذاً فهو بوسعي، قال ﷻ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٥]، إذاً بوسعي أن أصوم ورخّص لي إن كنت مريضاً أو على سفر، والزّكاة بوسعي أن أدفع ٢,٥ من أموالي أو العشر أو... حسب أنواع الزّكاة إذا كنت أملك، أو لا أملك، بأن لم يكن هناك نصاب، أو لم يحل الحول على المال فيسقط عنّي، والحجّ قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: من الآية ٩٧]، فإذاً دائماً على قدر استطاعتك وطاقتك تُكلّف، ولا تكلّف إلّا بقدر استطاعتك، فأنت عندما تُكلّف فكّر بهذا التّكليف، ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾ [النّساء]، فكّر وبمجرّد التّفكير السّليم ترى الأوامر الإسلاميّة

والأوامر الإلهيّة، والحديث هنا عن النّفقات، وسمّى النّفقة والزّكاة عفواً، فهي تعفو عن المجتمع بأكمله، وأيضاً تشيع الأمن والسّلام في المجتمع، وأيضاً هي من زيادة مالك التي تنفقها على الفقراء وعلى المساكين والمحتاجين فهذا جزء من تفسير هذه الآية الكريمة.

(الآية ٢٢٠) - ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾:

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ﴾: تبدأ الآية بجار ومجرور في الدّنيا والآخرة، أين متعلّق الجار والمجرور؟ بعد ذلك ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ﴾، القرآن الكريم مبنيّ على الوصل وليس مبنيّاً على القطع، ومعنى مبنيّ على الوصل أنّ كلّ آيات القرآن الكريم موصولة، لذلك لا تجد بأنّ هناك سكوناً عند نهاية الآية أبداً، وإنّما نهاية الآية مثلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٠-٢٢١]، ليس (عزيزٌ حكيمْ) فأنتَ بالوقف تقول: (حكيمْ) ولكن إن نظرت إلى حركات الإعراب في القرآن الكريم فأنت تجد: ﴿حَكِيمٌ﴾ مبنيّ على الوصل، فإذاً في الدّنيا والآخرة لها متعلّق، ومتعلّق الجار والمجرور هو كلّ الأحكام التي مرّت معنا سابقاً، منذ بدأنا آيات الصّوم، بيّنت الآيات أحكام الصّوم، بيّنت الآيات أحكام الدّعاء، بيّنت الآيات بعد ذلك أحكام الحجّ، بيّنت بعد ذلك الأحكام المتعلّقة بالقتال، بيّنت بعد ذلك الأحكام المتعلّقة بالأسرة، بيّنت بعد ذلك أحكام متعلّقة

بالنّفاق السّلوكيّ، بيّنت بعد ذلك أحكام الإنفاق، بيّنت بعد ذلك أحكام الإصلاح والإفساد في المجتمع، كلّ هذا هو متعلّق الجار والمجرور، ونهاية الآية التي سبقت ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ تقول: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾، إذاً آيات الله وفوز الإنسان يكون في الدّنيا والآخرة وليس فقط في الآخرة، فلا يقولنّ قائل: إنّ منهج الله سبحانه وتعالى يفيد الإنسان بعد الموت أو يفيد عندما تنتهي حياة الإنسان ويذهب لملاقاة ربّه وبيده كتابه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء] وليست كذلك، فالمنهج الإلهيّ ليس منهجاً لِما بعد الممات، ومن أجل الثّواب والعقاب في الآخرة فقط، هو أوّلاً من أجل إصلاح الدّنيا، وبعد ذلك في الآخرة، كما جاءت الآية في الدّنيا بعد ذلك في الآخرة لذلك عندما نجد قارون، وهو من قوم موسى عليه السلام قال له الله سبحانه وتعالى على لسان قومه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص]، إذاً جاء منهج الله سبحانه لإصلاح الدّنيا، وضبط حركة الإنسان في الحياة، والمؤمن يسعد سعادتين، فتجد حياته مستقرّة وهانئة ومطمئنّة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرّعد]، لماذا الاطمئنان بذكر الله؟ لأنّ المؤمن يعلم أنّه لا يضرّ وينفع ويعطي ويمنع ويصل ويقطع ويخفض ويرفع إلّا الله عزّ وجلّ، فإنّك تعلم تماماً عندها معنى السّعادة الحقيقية والاستقرار النّفسيّ الحقيقيّ،

لذلك عندما أردف النّبيّ ﷺ خلفه ابن عمّه عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما قال: «يا غلام! احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف بالله في الرّخاء يعرفك في الشّدة، واعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أنّ الخلائق لو اجتمعوا على أن يُعطوك شيئاً لم يُرد الله أن يعطيك لم يقدروا عليه، أو يصرفوا عنك شيئاً أراد الله أن يُصيبك به لم يقدروا على ذلك، فإذا سألت فسل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ النّصر مع الصّبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يُسراً، واعلم أنّ القلم قد جرى بما هو كائن»(١).

هذه هي ثمرة الإيمان الحقيقيّة بالاطمئنان، بمعاني السّلام، معاني الاستقرار والسكينة في نفوس المؤمنين؛ لذلك في الدّنيا قبل الآخرة لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ [الحديد]، إذاً هذا هو المبدأ العامّ للمنظار الدّنيويّ والمنظار الآخر هو منظار الآخرة، أو المنظار إلى الحساب وإلى العقاب، ويتابع المولى سبحانه وتعالى طالما هنا تبيّنت معنى هذه الآيات، يجب أن ننتبه أنّه كلّما كبُر حبّ الله في قلبك كلّما صغُر كلّ شيء في نظرك، في الدّنيا والآخرة إذاً أنت ترتاح في الدنيا قبل الآخرة، لا تقل: إنّك فقط تصوم وتصلّي وتزكّي وتحجّ وتترهبن وتغلق على نفسك باب المسجد.. لا، الدّنيا

---

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: أحاديث عبد الله بن عبّاس، الحديث رقم (١١٢٦٥).

مع الآخرة، قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: "احرث لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً".

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾: نعود إلى مادّة السّؤال في كتاب الله، قلنا: إنّ القرآن الكريم نزل منجّماً، ونزل حسب الأحداث على قلب سيّدنا رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، ومن ضمن هذه الأحداث الأسئلة التي كان يتعرّض لها النّبيّ ﷺ لبيان أحكام الشّرع، فكان السّؤال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾، لماذا السّؤال دائماً عن اليتامى؟ لأنّ القرآن الكريم أوصى باليتامى، وكلّ الآيات التي فيها إصلاح، وفيها خير، وفيها إنفاق، يأتي بها التّوصية باليتامى، وعدم زجر اليتيم، وعدم أكل ماله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النّساء]، بعض النّاس سُعار حبّ المادّة في نفوسهم يؤدّي إلى تقليص حجم القيم من قلوبهم، فكلّما زاد سُعار المادّة وحبّ المال كلّما نقصت القيم الأخلاقيّة من المجتمعات. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾؛ لأنّ اليتيم عندما يموت أبوه ويترك له مالاً أو رزقاً، فالوصيّ على مال اليتيم سيأخذ المال ويخلطه مع ماله وينميه؛ لتكون الفائدة من العمل له ولليتيم، وبعد ذلك عندما يبلغ اليتيم الحُلم وسنّ الرّشد، فإنّه سيضطرّ أن يفصل مال اليتيم عن ماله، إذاً هناك أحكام تتعلّق بالأيتام، والله سبحانه وتعالى بيّن الكثير من الأحكام، وأوصى دائماً باليتيم الّذي فقد الأب، حتّى يشعر المجتمع بأنّه متكاتف ومتعاطف.

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾: إصلاح لهم خير، إذاً أيّ عمل تقوم به فيه

إصلاح لحال اليتيم هو الخير، المهمّ النّيّة، النّيّة في العمل بالنّسبة للوصاية أو الولاية على مال الأيتام، لذلك قال العلماء: نصف الدّين هو في حديث واحد، هذا الحديث رواه البخاريّ في صحيحه عن عمر بن الخطّاب ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّما الأعمال بالنّيات، وإنّما لكلّ امرىء ما نوى**»(١)، فالنيّة هنا: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾، أي: إذا خلطتم مال اليتيم بمالكم، وساكنتموه في بيوتكم، وأكلتم معه، لا حرج في ذلك، وهذا للّذي يكون وصيّاً على اليتيم، ويخلط مال اليتيم بماله، حتّى لا يكون هناك عنت ومشقّة عليه في فصل عمل لصالح هذا المال الخاصّ باليتيم ولصالحه، فيتمّ الخلط بين المالين، لكن المهمّ هنا النّيّة، المهم هنا الإصلاح، والمهمّ هنا الخير.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: لأعنتكم: أي أرهقكم وأتعبكم، ولقد أرسل الله رسوله ﷺ ليرفع عن النّاس الحرج والعنت: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التّوبة]، أعنتكم: عنتُّم أيّ ما يشقّ عليكم ويتعبكم، إذاً يعزّ عليه ما يشقّ عليكم، فلا يريد أن يشقّ عليكم الرّسول، ولو شاء الله ﷻ لأتعبكم وأعنتكم، ولكنّه سمح بأنْ تخلطوا، وهناك فارق بين أن تخلط الشّيء وبين أن تمزج الشّيء، إذا اختلفت

(١) صحيح البخاريّ: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، الحديث رقم (١).

المواد وبعد خلطها يمكن فصلها ثانية كالحبوب مثلاً يسمّى ذلك خلطاً، أمّا السّوائل تقول: مزجت الحليب بالماء فيصعب عليك بعد ذلك أن تفصل بعد المزج الحليب من الماء، لذلك كانت هنا: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ لكي تستطيع عندما تنتهي الولاية على مال اليتيم والوصاية عليه أن تفصل ماله عن مالك.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: دائماً الآيات التي فيها تكاليف نجد الله سبحانه وتعالى في معظمها يختم بصفتين من صفاته جل جلاله بعزيز وحكيم، عزيز: أي عندما يفرض عليك أمراً يبيّن بأنّه عزيز، العزيز هو المستغنيّ عن عبادة خلقه، هذا معنى العزيز، فيبيّن لك بأنّه لا يحتاج إليك، إن أنت نفّذت التّكليف أو لم تنفذه، فالأمر بالنّسبة له سبحانه وتعالى لا يزيد ولا ينقص، فدائماً يذيّل الآية بعزيز؛ لتعلم بأنّه لا يأتيه من فرضه عليك إلّا ما يعود بالنّفع عليك، وحكيم بأنّه بحكمته جلّ وعلا يضع الأشياء بنصابها وبوقتها، والحكمة كما نعرف جميعاً أن يضع الشّيء المناسب بالمكان المناسب بالزّمن المناسب في الوقت المناسب للشّخص المناسب، فإذاً دائماً تنتهي الآيات المتعلّقة بالأحكام هكذا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

انتهت هذه الآية المتعلّقة بالأيتام، والسّؤال عن الأيتام، وقبلها بحكم الخمر والميسر، والقتال والشّهر الحرام، وقبلها عن الإنفاق، وقبل ذلك عن أحكام الحجّ، وأحكام العمرة، وأحكام الصّيام، وأحكام النّفاق، والّذين يفسدون في الأرض، وكلّ هذه الأحكام تُبنى أوّلاً من اللّبنة الأولى التي هي

الأسرة، وأساس الأسرة هو الزّواج، لذلك بدأت هنا أحكام تتعلّق بالزّواج والطّلاق، وبما يتعلّق بالعلاقة بين الزّوجين.

(الآية ٢٢١) - ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾:

أوّلاً بناء الأسرة، بناء المجتمع، لا يمكن أن تُبنى الأسر والبيوت على تضاد في العقائد، وتضاد في الأهواء بين الرّجل والمرأة، لا بدّ أن يكون هناك انسجام حتّى تكون الأسرة مستقرّة تبدأ من هنا، من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾؛ لأنّ من تصارع التّضاد ومن تصارع الأهواء تختلّ موازين الأسرة، فنهى هنا عن الزّواج من المشركات حتّى يؤمنّ، وبيّن أنّ الأَمَة المؤمنة بربّها أفضل من الحرّة المشركة، حيث كان هناك في المجتمع الرّقّ والعبيد، والآن انتهى هذا العهد، فعندما تقرأ آية فيها تعبير عن الرّق أو تعبير عن العبيد أو عن أَمَة فهذا التّعبير يتعلّق بحكم لحالة كانت موجودة ذكرناها سابقاً: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: من الآية ٢١٩]، هل تحتجّ بآية ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾؟ حتّى تقول: إنّني أشرب الخمر مثلاً، طبعاً لا، وإنّما تمتثل أمر الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة]، أنت يجب أن تأخذ القرآن جملة واحدة، لا يجوز أن تأخذ منه ما

تشاء، وأن تأخذ حكماً جزئيّاً يتعلّق بمرحلة معيّنة، وتنسى مجمل التّشريع وأهدافه ومقاصده وما أقرّه النّبيّ ﷺ، لذلك هنا عندما تجد مُصطلَح أَمَة؛ فلأنّه كان يوجد في ذلك المجتمع عبيد.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾: لماذا؟ أوّلاً بيّن أحكام الزّواج ببناء أحكام الأسرة ووضع المعايير، أنت عندما تجد الخلافات داخل الأسرة، والخلافات بين الرّجل والمرأة فاعلم بأنّك دخلت على غير المعايير التي أقرّها رسول الله ﷺ، والتي جاء بها الإسلام، لا تحمّلوا الإسلام مخازيكم، لا تحمّلوه أخطاءكم، نحن عندما نأخذ إباحة وندع إلزاماً، نحن نخرّب كلّ النّظرة العامّة للإسلام، كيف تأخذ إباحة وتدع إلزاماً؟ الله سبحانه وتعالى ألزمك مثلاً بالعدل، وأباح لك التّعدّد، فتترك الإلزام وتأخذ الإباحة، آفة المسلمين اليوم هي أنّهم يأخذون إباحة، ويدعون إلزاماً، يريدون الميراث ولا يريدون أن يقوموا بحقوق الورثة، يقول لك: كيف يورّث العمّ، ولم يعلم ما طُلب من العمّ، أُلزم العمّ بالنّفقة، يريد العمّ أو الإنسان حصّته من الميراث ولا يقوم بما طُلب منه، لا تقوم بواجبك لكنّك تريد حقّك، وهذا لا يؤدّي إلى أيّ توازن على الإطلاق.

الإسلام وضع أُسساً للزّواج وبناء الأسرة، الأسرة التي هي أساس المجتمع، والأسرة هي التي تنتج الجيل القادم، فعلى هذا الأساس كان لا بدّ من ضوابط لبناء هذه الأسر، وهذه الضّوابط وضعها الإسلام وأوّلها كرامة المرأة، وحقوق المرأة، ما قبل الإسلام كان امتهان لحقوق المرأة التي كانت تُجعل أداة للزّينة وأداة للمتعة، ولم يكن لها حريّة بالتّملك ولا الحريّة

الاقتصادية والاجتماعيّة والسّياسيّة والقيميّة، كلّ هذه الأمور وضع لها الإسلام القواعد الأساسيّة، أعطى المرأة حقوقها وحريّتها وكرامتها، وبيّن طريق العلاقة السّليمة بين الرّجل والمرأة، لذلك قال النّبيّ ﷺ: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد**»(١)، هذا بالنّسبة لأهل المرأة، إذا أتاهم من يرضون خُلُقه ودينه عليهم أن يزوّجوه، إلّا يفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد، فالإحجام عن الزّواج المشروع فتح باب للفساد والرّذيلة، كذلك بالنّسبة للشّابّ يقول ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدّين تربت يداك**»(٢)، ليس المراد أن يتزوّج الشّاب المرأة إمّا لدينها وإمّا لجمالها وإمّا... لا هذا إخبار، هنا الجملة خبريّة، أخبر النّبيّ ﷺ أنّه تُنكح المرأة إمّا لمالها وإمّا لحسبها وإمّا لجمالها أو لدينها فاظفر بذات الدّين ذات الخُلُق، الدّين معناه يُعبّر عن الخُلُق، عن القيم، هذا هو المقصود، فعمليّة الالتقاء الأولى بين الرّجل والمرأة واختيار الأسر يتمّ على أسس سليمة، على أسس قيميّة لا تؤدّي إلى أهواء متضاربة ما بين الرّجل والمرأة بعد الزّواج، وبيّن الله تعالى أحكام الزّواج في كثير من الآيات: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٢١﴾ [النّساء]، جعل الزّواج ميثاقاً غليظاً، لا تنحلّ عُراه كيفما شاء الرّجل أو كيفما شاءت المرأة، وضع

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب النّكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوّجوه، الحديث رقم (١٠٨٥).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب النّكاح، باب الأكفاء في الدّين، الحديث رقم (٤٨٠٢).

له قوانين وأُسس وقواعد وجعل القواعد العامّة للّقاء بين الرّجل والمرأة المودّة والرّحمة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرّوم]، إذاً السّكن والمودّة والرّحمة ثلاثة عناصر أساسيّة، لذلك عندما خاطب النّبيّ النّاس في حجّة الوداع وودّعهم قال لهم: «**فاتقوا الله في النّساء فإنهنّ عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، وإنّ لكم عليهنّ حقاً، لا يوطئن فرشكم أحداً غيركم، ولا يأذنّ في بيوتكم لأحد تكرهونه، فإن خفتم نشوزهنّ فعظوهنّ واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ ضرباً غير مبرّح، ولهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، فإنّما أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله**»(١)، ليس عقد الزّواج بين الرّجل والمرأة هو عقداً مادّيّاً صِرفاً، بل إيجابٌ وقبولٌ، ومهرٌ وشهادةُ الشّهود، هذا الشكل العامّ للعقد، أمّا المضمون فهو أمانة الله وكلمة الله وتقوى الله، أمّا المضمون فهو السّكن والمودّة والرّحمة، هذا ورد في القرآن الكريم وفي سنّة النّبيّ ﷺ لـمّا أراد أن يوضّح العلاقة بين المرأة والرّجل، قال سبحانه وتعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٧]، لا يمكن أن توجد جملة في اللّغة العربيّة يمكن أن تعبّر عن هذا الالتقاء، وهذا السّتر، وهذا الاندماج بين شخصي الرّجل والمرأة في علاقة الزّواج أرقى من هذه الآية، فهي علاقة سامية، علاقة إنجاب وعفاف، إذاً هي علاقة أسمى بكثير من أن نحطّ بها إلى مستوى العلاقة

---

(١) كنز العمّال: كتاب الحجّ والعمرة، أحكام ذُكرت في حجّة الوداع من الإكمال، الحديث رقم (١٢٣٥٧).

الشّهوانيّة، والعلاقة الجنسيّة والجسديّة، هذا ما أراده الله سبحانه وتعالى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ﴾: الله يدعو إلى الجنّة وإلى المغفرة، الله سبحانه وتعالى لا يدعو إلى النّار، الله سبحانه وتعالى يبيّن لك الآيات، ويبيّن لك الأحكام، ويبيّن لك الطّريق الّذي يوصلك إلى الجنّة ويُجنِّبك النّار، لذلك فإنّ سيّدنا عليّ كرّم الله وجهه كان يقول: "لا خير في خير بعده النّار، ولا شرّ في شرّ بعده الجنّة".

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾: الله سبحانه وتعالى بيّن الأحكام وبيّن الآيات لعلّهم يأخذون العبرة، لعلّهم يتذكّرون، وكأنّ الإنسان كان ناسياً فذكّره ربّه، ما الّذي نسيه، نسي العهد الأوّل: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف]، فهذا عهد الفطرة المركوز في نفوس البشر، وكأنّ الله سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية وهذه الأحكام، من خلال هذا القرآن الكريم، من خلال سنّة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، يبيّن للنّاس حتّى يعودوا إلى رُشدهم ويتذكّروا هذا العهد، أن يرتبطوا بربّهم سبحانه وتعالى.

(الآية ٢٢٢) - ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى﴾: الجواب: أطلق كلمة أذى، والسّؤال عن المحيض؛ لأنّ اليهود والمشركين في الجاهليّة كانوا يمتهنون المرأة

ولا يرون لها رأياً ولا حقّاً، بينما الإسلام كرّم الإنسان وكرّم المرأة، وهنا يتبيّن من الآيات ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ هل يجوز أن يقترب الرّجل من زوجته أثناء فترة المحيض؟ ما هو الحكم في المحيض؟ كان اليهود يمنعون المرأة أن تأكل معهم بنفس الطّبق إذا كانت بفترة الحيض، ويعتبرونها وكأنّها نجسة في فترة الحيض، فيُبعدونها عن كلّ شيء، وكان غيرهم لا يعتبرون الحيض مانعاً ويُباشرون الجماع مع زوجاتهم أثناء الحيض وبعده، فكان هذا السّؤال، وهنا يتبيّن من الجواب قيمة وعظمة هذا الدّين، وكيف رفع المرأة مكاناً عظيماً في جواب القرآن عن سؤال النّاس عن موضوع الحيض، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أوّلاً هو أذى بغضّ النّظر ما هو المحيض أو الحيض أو دم الحيض؟ دم الحيض هذا يتجمّع في جدار رحم المرأة تهيئة للحمل، فإذا حملت المرأة انقطع عنها الحيض؛ لأنّ هذا الدّم الّذي يخرج إنّما هو معدّ لغذاء الطّفل، فإن لم يحصل الحمل يخرج ويكون هذا الدّم فاسداً قد خرج عن صلاحيّته، فإذاً هو أذى للمرأة وأذى للرّجل، فأوّلاً بيّن الحكم بأنّ المحيض هو أذى.

﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾: لا يجوز أن يُباشر الرّجل زوجته أثناء فترة الحيض، لماذا؟ لأنّ المرأة لها مشاعر وعواطف، المرأة في فترة الحيض يخرج منها الدّم وتكون بحالة ضعف ووهن وحالة نفسيّة وعصبيّة نتيجة لهذه العمليّة الفيزيولوجيّة، أثناء خروج الدّم يجب على الرّجل أن يكرم زوجته بأن لا يقترب منها في هذه الفترة حتّى لا يزعجها، وحتّى لا يكون هناك أذى لا

للمرأة ولا للرّجل، وأن تكون المرأة مكرّمة معزّزة معظّمة لدى الزّوج.

﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾: لا يجوز أن تجامعوهنّ ﴿حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾، ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ﴾ إذاً يوجد فارق بين يطهرن ويتطهّرن، ﴿يَطۡهُرۡنَ﴾ انقطع دم الحيض، ﴿تَطَهَّرۡنَ﴾ اغتسلن.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾: من المكان الّذي يأتي منه الإنجاب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾: دين كلّه طهارة ونظافة، باليوم الواحد خمس مرّات تغسل الوجه واليدين والقدمين والأذنين والرّأس، امتثالاً لأمر الدّين، ومع ذلك تجد المسلمين شوارعهم بيوتهم أماكنهم كلّ ما يتعلّق بهم لا يهتمّون بالنّظافة التي أمر بها الإسلام، فالوضوء والطّهارة والتّطهّر كلّها نظافة، نظافة بالظّاهر حتّى تتناسب مع نظافة الباطن؛ لأنّه لا يمكن إلّا أن يكون هناك قلب وقالب، فإذا كان القلب طاهراً يجب أن يكون القالب طاهراً أيضاً، ويجب ألّا يكون نجساً وأن يكون متطهّراً من كلّ هذه الأمور، هذا هو الجواب من الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ يحبّ الّذي يتوب ويعود، ويحبّ أيضاً الإنسان الّذي يتطهّر والّذي يكون دائماً على نظافة بالظّاهر والباطن.

(الآية ٢٢٣) – ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾:

﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾: الحرث مكان الإنبات، والمرأة ليست للمتعة، وليست للزّينة، المرأة لأعظم من ذلك، هي لإنتاج الإنسان، فهي مصنع الأبطال، مصنع الرّجال، مصنع المجتمع الحقيقيّ.

إذاً فالعلاقة الخاصّة بين الزّوجين: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ والحرث: مكان الإنبات، والمكان الّذي يخرج منه الولد، وهذه الأحكام واضحة لا تحتاج إلى كثرة إيضاح، دين طهارة ونظافة، دين تكريم، دين يرفع مستوى المرأة والرّجل، ويُبعد الإنسان عن الشّهوانيّة الحيوانيّة ويضبط شهواته، لم تأت الأديان لإطلاق شهوات النّاس، وإنّما جاءت لضبط الشّهوات، فعند الإنسان شهوة جنسيّة فلا يمكن أن يكون مصرف هذه الشّهوة إلّا بالحلال، وبالحلال المقنّن وفق شرع الله ﷻ الّذي يحبّ المتطهّرين، ويحبّ الطّهارة، ويحبّ النّظافة، ويحبّ أن يكون الرّجل مع زوجته في غاية التّكريم لهذه المرأة، لذلك قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: ثلاثة أمور: اتّقوا الله أي اجعلوا بينكم وبين غضبه حاجزاً، واعلموا أنّكم ملاقوه: أيقنوا بأنّكم ستلاقون ربّكم وأنّكم أمام الموت، والموت ملاقيكم أينما كنتم: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النّساء: من الآية ٧٨]، ومهما بلغ الإنسان من العمر فالعمر قصير، يا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يفرح بالدّنيا من تقوده حياته إلى موته، ويقوده عمره إلى أجله:

ولدتكَ أمّكَ يا ابنَ آدمَ باكياً   والنّاسُ حولك يضحكونَ سروراً

فاعملْ لنفسِكَ أن تكونَ إذا بَكَوا في يومِ موتكَ ضاحكاً مسروراً
ولا تكون ضاحكاً مسروراً إلّا إذا كنت تعلم بأنّك ملاقيه.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: في نهاية هذه الآيات البشارة للمؤمنين المتّقين الّذين يلتزمون بالأوامر لإلهيّة.

(الآية ٢٢٤) – ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤﴾:

الآيات السّابقة كانت تتحدّث عن العلاقات الأسريّة وبناء الأسرة والمجتمع من خلال الزّواج والعلاقة مع المرأة، وقيمة وأهمّيّة وكرامة المرأة في الإسلام، والتي بيّنتها الآيات السّابقة والآيات التي ستأتي لاحقاً، وهنا الله تعالى يعطي أموراً هامّة جدّاً: ألّا يجعل الإنسان من كلمة الله ﷻ عُرضة لأنّ تكون حاجزاً بينه وبين ثلاثة أمور، لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أي أنّها تعترض الأمور الثّلاثة:

١– ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾.
٢– ﴿وَتَتَّقُواْ﴾.
٣– ﴿وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾.

هذه الأمور الثّلاثة يجب أن تكون واضحة للنّاس جميعاً، إذا أقسم الإنسان وحلف يميناً بأن لا يعطي إنساناً مثلاً كما جرى مع سيّدنا أبي بكر الصّدّيق يوم حادثة الإفك، فهناك قريبٌ له اسمه مسطح فهو من الّذين خاضوا في موضوع الإفك، فأقسم الصّدّيق ألّا يعطيه بعد ذلك اليوم،

فكانت هذه أحد أسباب النّزول، وقلنا: إنّ الآيات القرآنيّة لها خصوصيّة سبب وعموميّة لفظ، والمعنى يجب ألّا تجعلوا الله عُرضة لأَيْمانكم أن تبرّوا وتتّقوا وتُصلحوا، ولا تحلفوا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيْماناً، ولو أنّكم حلفتم فعليكم أن تعيدوا هذا الأمر كفّارة يمين وأن تعودوا إلى الأمر الصّحيح والسّليم:

أوّلاً: ﴿أَن تَبَرُّوا﴾، البرّ كما قلنا: ليس هو كلمة تُقال، وبيّنت الآيات بشكل واضح عندما مرّت معنا آية البرّ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)﴾ [البقرة]، البرّ واسع وله وجوه متعدّدة، ويجب أن تكون هي شعار المجتمع، ومن أهم عناصر البرّ هو الإنفاق في سبيل الله، لذلك وجدنا في هذه الآية أنّه بعد أن تحدّث أنّ البرّ ليس أن تولّوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب، ولكنّ البرّ: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ إيتاء المال، واليوم نرى النّاس في مجتمعنا بحاجة ماسّة، وفي هذا الزّمن زمن الأزمة، يجب الحثّ على عمل البرّ، ومن أهمّ أعمال البرّ إيتاء الفقراء والتّصدّق عليهم، وكان النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**فحرّزوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصّدقه، وادفعوا عنكم طوارق البلاء بالدّعاء، فإنّ الدّعاء ينفع ممّا نزل وممّا لم**

ينزل، ما نزل يكشفه، وما لم ينزل يحبسه»[1]، ما أجمل وما أعظم وما أروع وما أرفع هذه الكلمات الثّلاث وهذه العناوين الثّلاث، إذا أردت أن تحصّن مالك فحصّنه بالإنفاق، أخرج منه للفقراء، أعط منه للمساكين، أعط منه لليتامى، أعط لذوي القربى، للمحتاجين، إذاً لا يجوز أن يكون هناك مجتمع فيه تفاوت كبير بين الغنيّ وبين الفقير، فإنّ الله ﷻ جعل في أموال الأغنياء ما يسع الفقراء، وما جاع فقير إلّا بإمساك غنيّ؛ لذلك هذا الإنفاق وكثرة الحديث عن البرّ وعن الإنفاق هو شعار وعنوان أساسيّ للإسلام، فالزّكاة جزء لا يتجزّأ، وركن من أركان الإسلام، فأنت عندما تحصّن مالك تحصّنه بإخراج جزء من المال على الفقراء، ما أعظم هذا التّشريع الإسلاميّ!.

الإسلام يُتّهم بالإرهاب وبالقسوة وبالعنف وهو دين اللّطف والعطاء والرّحمة، ودين الخير، ودين الشّعور بالآخرين، والشّافي هو الله ﷻ، وأنت عندما تتصدّق على الفقراء فهناك دعوات ترتفع، ولا يردّ القضاء إلّا الدّعاء، لذلك قال النّبيّ ﷺ: **«وادفعوا عنكم طوارق البلاء بالدّعاء»**؛ لأنّ هذا الدّعاء هو السّلاح الوحيد الّذي يردّ القضاء كما قال النّبيّ ﷺ: **«لا يردّ القضاء إلّا الدّعاء»**[2]، والاحتكار الّذي يتمّ أحياناً هو من أصعب وأشنع ما يقوم بها التّجّار في حالات الأزمات، وفي حالات الاضطراب التي تحدث في المجتمع، لذلك علّمنا الإسلام كيف نحارب هذا الاحتكار، ففي

---

(١) مسند الشّاميّين: إبراهيم بن أبي عبلة، الحديث رقم (١٨).

(٢) سنن التّرمذيّ: كتاب القدر، باب لا يردّ القدر إلّا الدّعاء، الحديث رقم (٢١٣٩).

عام المجاعة وعام القسوة التي مرّت وحبست الأمطار عن المسلمين في المدينة في عهد عمر بن الخطّاب ﷺ كانت قافلة تأتي إلى المدينة، ولا يوجد غذاء أو طعام لأهل المدينة نتيجة الجفاف، جاء التّجّار ليشتروا هذه القافلة ليرفعوا الأسعار ويبيعوا النّاس، فأخذ القافلة بأكملها عثمان بن عفّان ﷺ واشتراها، فجاءه التّجّار: يا عثمان، لقد اشتريت القافلة بأكملها، ونحن نريد أن نبتاع منك، ندفع لك ضعف ما دفعت في هذه التّجارة، فقال سيّدنا عثمان: لقد زادني، فقالوا له: ندفع لك ثلاثة أضعاف، فقال لهم: لقد زادني، قالوا: من الّذي زادك عن ثلاثة أضعاف؟ ندفع لك خمسة أضعاف يا عثمان، فقال عثمان: إنّ الله ﷻ زادني عشرة أضعاف، والحسنة بعشر أمثالها، وإنّي أُشهد الله بأنّني اشتريت هذه القافلة لأهبها لفقراء المسلمين بلا حساب وبلا منّ، هكذا يفعل التّجّار في الأزمات بدلاً من الاحتكار، احتكر سيّدنا عثمان لصالح الفقراء، فاشترى كلّ القافلة ليمنع الاحتكار وليتصدّق على الفقراء، هذا هو الإسلام، هكذا كان رجال الإسلام، فنحن لا نريد أن نقول: ما أكثر الذّكور وأقلّ الرّجال، الرّجال هم أهل المروءة والكرم، يظهرون وتكشفهم الأزمات: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الأحزاب]، عندما تكون البلاد في حالة الأزمات، يتكاتف ويتعاضد المجتمع، وهنا على التّجّار وأصحاب المال أن يقفوا وقفة البرّ التي بيّنها القرآن الكريم، والله ﷻ هو يقبل التّوبة عن عباده ويأخذ الصّدقات: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ

﴿عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التّوبة]، الصّدقة يأخذها الله ﷻ؛ لأنّه قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة].

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ إيّاكم أن تقسموا يميناً بالله ﷻ على مخالفة ثلاثة أمور:

أوّلها: ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾: كلّ أمر فيه برّ حلفتم ألّا تفعلوه فاحنثوا باليمين وادفعوا كفّارة يمين، وعودوا إلى عمل البرّ.

وثانيها: ﴿وَتَتَّقُواْ﴾: التّقوى أي عمل خير يعود على الإنسان وعلى المجتمع فلا يجوز أن يجعل من أَيْمانه أو يقسم اليمين على أن يفعل شيء وهو مخالف لتقوى الله.

وثالثها: ﴿وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾: كذلك الإصلاح بين النّاس، والإصلاح بين النّاس هو أمر هامّ جدّاً، قال النّبيّ ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصّيام والصّلاة والصّدقة؟**»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة**»(1)، ففساد ذات البين يخرّب المجتمعات، ولذلك يجب الإصلاح بين النّاس، والإصلاح يبدأ أوّلاً من البيوت بإصلاح علاقة الرّجل مع زوجته، ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النّساء: من الآية ١٢٨]، علاقة الإنسان بجيرانه، علاقة الإنسان بمحيطه، علاقة الإنسان بمجتمعه، علاقة الأفراد مع المجتمع، وعلاقة المجتمع مع الأفراد، كلّها تحت

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، الحديث رقم (٤٩١٩).

عنوان واحد وهو الإصلاح والصّلاح بين النّاس.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: والله يسمع ما تفعلون وهو عليم، إذا أنت أقسمت يميناً وفيه مخالفة لهذه الأمور الثّلاثة، فعليك أن ترجع عن اليمين إلى الأمور الثّلاثة: البرّ والتّقوى والإصلاح بين النّاس.

(الآية ٢٢٥) - ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ٢٢٥﴾:

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾: ليست القضيّة هي إطلاق يمين لغو، هناك لغو في اليمين: والله لا أفعل كذا، والله لأفعلنّ كذا، فهذا لغو في اليمين، فالله سبحانه وتعالى لا ينتظر الإنسان على السّقطة في الكلام، هذا لغو في الأيمان ولا يُعتبر أيماناً واقعة.

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ﴾: وإنّما اليمين الواقع هو بما كسبت قلوبكم، أي عقدتم الأيمان عليه، أنت تحلف اليمين وأنت تقصد بهذا اليمين أن تفعل كذا، وليس أن تقول: والله إن لم آت غداً، وهو كلام لغو، لكن أن تقسم اليمين وهذا القلب الّذي أقسمت من خلاله اليمين هو مصرّ على هذا الفعل، فليست القضيّة قضيّة سقطة لسان بل إصرار قلب خصوصاً باليمين.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾: بالعادة تذييل الآية تأتي: والله غفور رحيم، هنا جاءت ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لتناسب الموضع؛ لأنّ كلمة حليم إذا وصفت إنساناً بها أيّ أنّه واسع الصّدر يتحمّل كثيراً يُقال عنه: حليم، طبعاً صفات

الله لا تُقارن بصفات البشر، وصفات الله هي صفات الكمال والتّمام، فهو حليم بعباده رؤوف بهم، هنا جاءت مناسبة لغفور حليم أنّه وسع هذه الأخطاء التي يلوكها اللّسان ولا يقصدها القلب، لذلك يجب أن ننتبه عندما تحدّثنا عن الآيات المتعلّقة بحلف اليمين، أي كفّارة اليمين، أمّا عن الطّلاق فتأتي الآيات التّالية لتتحدّث عن أحكام الطّلاق وما يتعلّق بها وكيف نجد أنّ النّاس قد حرّفوا معناها الحقيقيّ.

(الآية ٢٢٦) - ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾:

كان الرّجل قبل الإسلام يُقسِم بأن لا يقترب من زوجته، ويبقى فترة طويلة على هذا القسَم، وهذا ما يُسمّى الإيلاء، فجاء الإسلام ليحافظ على كرامة المرأة وعلى طبيعة العلاقة بين الرّجل والمرأة، قال سبحانه وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي إن رجعوا عن هذا اليمين وهو الإيلاء، فإنّ الله غفور رحيم، أمّا إن أصرّوا على ذلك، فإنّ الطّلاق هو الحلّ، ويُرفَع الأمر إلى القاضي ليقضي بطلاقها، ومن حقّ المرأة أن تطلب الطّلاق إن استمرّ هذا الأمر. فالإسلام وضع كرامة المرأة وحقوقها أوّلاً، الآية الأولى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أربعة أشهر بعد ذلك إمّا أن يفيئوا ويعودوا عن هذا اليمين يمين الإيلاء، أو يُطلِّقوا.

(الآية ٢٢٧) - ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾:

إن زاد الإيلاء عن أربعة أشهر يحقّ للمرأة أن تطلب الطّلاق.

عندما وضع الإسلام أحكام الطّلاق وأحكام العدّة وما يتعلّق بهذه الأمور ضمن للإنسان كرامته وحقوقه، سواء كان رجلاً أم امرأة؛ لأنّ الله ﷻ هو الّذي خلق الزّوجين الذّكر والأنثى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: من الآية ١٣]، ونحن عندما نتحدّث عن النّساء وما يتعلّق بهنّ، يجب أن نعلم أنّ القرآن الكريم أفرد سورة من السّور الطّوال باسم (النّساء)، ولم يفرد سورة كاملة باسم الرّجال، وضرب الله مثلاً بامرأة فرعون فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التّحريم]، كذلك سمّى سورة بأكملها باسم البتول العذراء السّيّدة مريم، وتحدّث الله ﷻ بإسهاب عن امرأة عمران جدّة المسيح ﵇، وليس عن عمران جدّ المسيح، هذه كلّها علامات تكريم للمرأة: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران]، علّمت السّيّدة

مريم، وهي امرأة، نبيَّ الله زكريّا عليه السلام أنّ الله تبارك وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب، كان الحديث عن جدّة المسيح عليه السلام ثمّ عن أمّ المسيح عليه السلام السّيّدة مريم عليها السّلام.

كانت المرأة قبل الإسلام أداة للزّينة وللمتعة، وممتهنة الحقوق والكرامة، لا حقَّ اقتصاديّاً ولا اجتماعيّاً لها ولا تملك شيئاً، بينما جاء الإسلام وخاطب المرأة والرّجل على السّواء في الحقوق والواجبات: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: من الآية: ٢٢٨]، ووضع القاعدة الذّهبيّة للعلاقة بين الرّجل والمرأة كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فاتّقوا الله في النّساء فإنّهنّ عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، وإنّ لكم عليهنّ حقاً لا يوطئن فرشكم أحداً غيركم، ولا يأذنّ في بيوتكم لأحد تكرهونه، فإن خفتم نشوزهنّ فعظوهنّ واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ ضرباً غير مبرّح، ولهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، فإنّما أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله**»(١).

وفي تاريخنا نساء فاضلات عُرفن بحكمتهنّ ورجاحة عقلهنّ، منهنّ السيّدة خديجة رضي الله عنها عندما نزل نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلم من غار حراء، وقد فجأه الوحي أوّل مرّة، عاد إليها وهو يرتجف قائلاً: «**زمّلوني، زمّلوني**»، فزمّلوه حتى ذهب عنه الرّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسي**»،

---

(١) كنز العمّال: كتاب الحجّ والعمرة، أحكام ذُكرت في حجّة الوداع من الإكمال، الحديث رقم (١٢٣٥٧).

فقالت خديجة: "كلا والله، ما يخزيك الله أبداً، إنّك لتصل الرّحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتُقري الضّيف، وتُعين على نوائب الحقّ"[١]، والله لن يخزيك الله أبداً يا محمّد وذهبت به إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل، ومنهنّ السّيّدة عائشة كانت تعلّم النّاس أحكام الإسلام، والسّيّدة فاطمة والسّيّدة زينب كذلك...

لقد كانت المرأة عنواناً أساسيّاً بالنّسبة للحقوق التي بيّنها الإسلام.

في هذا السّياق نقول: لا يجوز بتر النّصوص، كمن يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون]، وأن لا نأخذ من جزئيّات الدّين المختلف فيها، لنضرب بها أصول الدّين دون مراعاة لمقاصد الشّريعة الإسلاميّة، كما يفعل بعض الجهلة من المسلمين، ففي قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران]، وكذلك في قوله: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٦٢﴾ [البقرة]، الآية الأولى تحدّثت عن الشّهداء، والآية الثّانية تحدّثت عن الإنفاق، وكلتا الآيتين جاء فيهما قوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، شهادة في سبيل الله، وإنفاق المال في سبيل الله، هل سبيل الله هو دعوة إلى الله؟ يجب أن نجيب على هذا السّؤال، يجب أن نوضّح للأجيال ونوضّح للنّاس ما هو سبيل الله؟ الّذي يبيّنه رسول الله ﷺ، جاء في الحديث عن كعب بن عجرة قال: مرّ على النّبيّ ﷺ رجل فرأى

---

(١) صحيح البخاريّ: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، الحديث رقم (٣).

أصحاب النّبيّ ﷺ من جَلَده ونشاطه ما أعجبهم فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء وتفاخراً فهو في سبيل الشّيطان»(١)، إذاً سبيل الله ليس دعوة إلى الله، الدّعوة إلى الله تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، كما في قول الله ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: من الآية ١٢٥]، الدّعوة إلى الله تكون بإعمال العقل، الدّعوة إلى الله تكون بالإقناع، بتقديم الدّليل والحجّة والبرهان، ولا تكون بالسّيف ولا بالقوّة ولا بالإجبار، في سبيل الله أي في كلّ ما يخدم مصالح الإنسان التي شرعها الله، والتي أحلّها الله بهذه الحياة، هذا هو سبيل الله، ولن تكون مصالح الإنسان بالسّرقة أو بالرّشوة أو بالزّنى، وسبيل الله تبارك وتعالى هو سبيل الخير العامّ والبرّ العامّ والمصلحة العامّة، مصلحة المجتمع كلّه، والنّبيّ ﷺ يقول: «إنّ الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، فإنّ الله يُعطي الدّنيا لمن يحبّ و من لا يحبّ، ولا يعطي الدّين إلّا من يحبّ، فمن أعطاه الله الدّين فقد أحبّه، والّذي نفسي بيده لا يُسلم عبد حتّى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتّى يأمن جاره بوائقه»،

---

(١) المعجم الأوسط: ج٧، الحديث رقم (٦٨٣٥).

قيل: وما بوائقه قال: «غشمه وظلمه»[1]، استعمل رسول الله ﷺ ابن اللُّتبيَّة على الصّدقة، فلمّا رجع قال: هذا لكم، وهذه هدية أهديت إليّ، فقال النّبيّ ﷺ: «ألا جلست في بيت أبيك وأمّك حتّى تأتيك هديّتك»، فلمّا صلّى رسول الله ﷺ الظّهر قام فخطب فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «أمّا بعد، ما بال أقوام نولّيهم أموراً ممّا ولّانا الله، ونستعملهم على أمور ممّا ولّاني الله، ثمّ يأتي أحدهم فيقول: هذا لكم وهذه أهديت إليّ، ألا جلس في بيت أبيه وأمّه حتّى تأتيه هديّته! والّذي نفس محمّد بيده، لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقّه إلّا جاء يوم القيامة يحمله على عاتقه، فلا أعرفنّ رجلاً يحمل على عنقه يوم القيامة بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تَيْعَر»، ثمّ بسط يده حتّى رأيت بياض إبطيه بصر عيني وسمع أذني ثمّ قال: «ألا هل بلّغت؟!» ثلاثاً[2]، هذا عنوان إصلاح وصلاح وهذا هو الدّين، هو خير للمجتمع وللنّاس، الدّين لا يحرّم إلّا ما هو ضارّ، ويحلّ جميع ما فيه نفع عامّ للنّاس، إذاً من هذا المدخل أدخل على الآيات التّالية المتعلّقة بالطّلاق، وعند الحديث عن الطّلاق لا يجوز أن نأخذ جزئيّات الدّين على أمور بُنيت في أذهاننا على خطأ، وعندما ننظر إلى الآيات المتعلّقة بالطّلاق، يجب أن تُؤخذ من مجمل هذه المعاني.

---

(١) شعب الإيمان: الثّامن والثّلاثون من شعب الإيمان، وهو باب في قبض اليد على الأموال المحرّمة، الحديث رقم (٥٥٢٤).

(٢) صحيح ابن حبان: كتاب السّير، باب في الخلافة والإمارة، الحديث رقم (٤٥١٥).

(الآية ٢٢٨) - ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨﴾:

التّشريع الإسلاميّ جاء من أجل الإنسان وكرامته وحقوقه، منهج الله تبارك وتعالى هو المنهج القويم الّذي يحقّق الغاية في سعادتيَ الدّنيا والآخرة، للمرأة وللرّجل على السّواء، والطّلاق شرّعه الله حفاظاً وصيانة للمجتمع؛ لأنّ امتزاج شخصين امتزاجاً كاملاً يعتريه في بعض الأحيان ما يفسده، فإن لم يكن هناك مجال للإصلاح والتّمهّل والعودة والتّفاهم، فإنّ الحلّ يكون بالطّلاق وبانفصال الشّريكين عن بعضهما في حياتهما المشتركة منذ بدايتها كشراكة إنسانيّة، في بناء الأسرة والعيش المشترك، فشرع الله الطّلاق لهذه الضّرورة، وإذا نجحت الحياة الزّوجيّة في بعض الأسر، وساد التّفاهم والحبّ بين الزّوجين، قد لا تنجح في أُسر أخرى، ولا بين كلّ زوجين، وليست كلّ علاقة زوجيّة المثال الكامل للسّعادة بين الرّجل والمرأة، ولا بدّ من أن يحدث الخلاف وتضارب الأهواء والميول في بعض الأحيان، فإمّا أن يصطلحا وهو الأفضل و«**أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطّلاق**»[1]، كما قال نبيّنا ﷺ، صحيح أنّه هو أبغض الحلال، لكنّه أُحلّ للنّاس في حالات لا يكون العلاج إلّا من خلال الطّلاق، وهنا جاءت هذه الآيات:

(١) سنن أبي داود: كتاب الطّلاق، باب في كراهية الطّلاق، الحديث رقم (٢١٧٨).

﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾: تتحدّث هذه الآية الكريمة عن عدّة المرأة المطلّقة، فلا بدّ من فترة، هذه الفترة شرّعها الإسلام، وتسمّى هذه الفترة العدّة، وهي أوّلاً إعطاء فرصة للمراجعة وللعودة وللإصلاح، وعدّة المرأة بعد الخلاف مع زوجها هي فتح لباب الطّلاق، ولكن لا يزال هناك فرصة للعودة وللرّجوع عن الطّلاق، فطلاق رجعيّ ويحقّ للرّجل خلال العدّة أن يعود ويرجع، ويكون طلاقاً رجعيّاً بأن يرجع عن القرار الّذي اتُّخذ بفصل الشّراكة بينه وبين المرأة هذه ناحية، والنّاحية الأخرى وهي للمحافظة على نسبة الولد لأبيه، وطهارة الرّحم من الحمل من الزّوج، فهذا الأمر هامّ جدّاً ولا يجوز أن تختلط الأنساب بين الرّجل ورجل آخر يتزوّج المرأة إذا لم يكن هناك فترة عدّة، فوضع الله في تشريعه صيانة لحقوق المرأة ولحقوق الرّجل ولحقوق الأولاد ولحقوق الأسرة، وللعودة عن الطّلاق وعن هدم الأسرة والبيت شَرَعَ ما يسمّى بالعدّة، وأحكام العدّة تأتي هنا: ﴿يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ لماذا قال: بأنفسهنّ؟ لأنّ المرأة هي الوحيدة التي تحمي هذا الغيب، والغيب لا يحميه إلّا غيب لماذا؟ لأنّك لا يمكن أن تعرف هذه الفترة، فترة القروء الثّلاثة، وطهارة الرّحم، واستبراء الرّحم، إلّا من خلال المرأة نفسها، لا يكون هناك أحد آخر يستطيع أن يعطي هذا الحكم، فإذاً ثلاثة قروء، والقرء هو فترة الطّهر الفاصلة بين الحيضتين، واختلف العلماء فمنهم من قال: ثلاثة قروء أي ثلاثة حيضات، ومنهم من قال: ثلاثة أطهار بين الحيضتين، والرّاجح أنّه ثلاثة أطهار؛ لأنّ المعدود يخالف العدد، يُقال: ثلاثة

قروء، وثلاث حيضات، فإذاً هي أطهار وليست حيضة، حيضة مؤنث من النّاحية اللّغوية، وأغلب أقوال العلماء: إنّ ثلاثة قروء هي ثلاثة أطهار من الحيضات، أو لو قلنا: إنّها ثلاثة حيضات فتصحّ هذه على بعض الأقوال وهذه على بعض الأقوال، وهذا من سعة رحمة الله بنا بأنّه وضع التّشريع، وهنا تختلف المذاهب في الأحكام، ولا تختلف في العقائد، لا تختلف في المذاهب لتجعل من المذاهب طرقاً للخلاف، واختلاف الرّأيّ لا يُفسد للودّ قضيّة، المهمّ أنّ المطلّقات يتربّصن أي يصبرن وينتظرن، كلمة يتربّصن جاءت معبّرة عن الواقع تماماً، على المطلّقة أن تنتظر ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار حتّى تكون مرّت بفترة العدّة، فإمّا أن يعيد الرّجل المرأة خلال هذه الفترة، وهذا لا يحتاج إلى عقد جديد، ولا إلى مهر جديد، ولا إيجاب ولا قبول ولا شهادة شهود كالعقد الأوّل، وهو الطّلاق الرّجعيّ كما قلنا، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ لماذا؟ لأنّ عدّة الحامل ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: من الآية ٤]، العدّة بالنّسبة للمرأة الحامل أن تضع الحمل، والعدّة للمرأة التي يئست من المحيض: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ [الطّلاق: من الآية ٤]، لدينا ثلاثة أحكام شرعيّة، الحكم الأوّل وهو الحكم العامّ العدّة هي ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار تصحّ هذه وتصحّ هذه، المرأة الحامل عدّتها أن تضع حملها، والمرأة التي يئست من الحيض فعدّتها ثلاثة

أشهر، لا يجوز للمرأة أن تتزوّج ولا يجوز لها إلّا ماحكم الله ﷻ خلال فترة العدّة، الرّجل يحقّ له إن كان الطّلاق رجعيّاً وأثناء فترة العدّة أن يعيد زوجته، وأن يراجع نفسه، وأن يصلح ما أفسده وما تمّ الخلاف حوله خلال هذه الفترة: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗا﴾ إذا أراد الإصلاح فيحقّ له شرط أن يريد الإصلاح بصدق، لا أن يعنِّت المرأة، لا أن يكون ضدّ المرأة، لا أن يكون من أجل أن يمنعها من الزّواج من رجل آخر، أو أن يضمر إفساداً بدلاً من الإصلاح، فالقرآن واضح، وكما قال ﷺ: «**إنّما الأعمال بالنّيات**»(١)، والإنسان المؤمن إذا أحبّ المرأة أكرمها، وإذا أبغضها لم يظلمها، فهذا عنوان وشعار لكلّ مؤمن ومسلم.

الطّلاق هنا رجعيّ يمكن أن يعيد الرّجل زوجته بشرط أن تكون النّيّة هي الإصلاح، وليست النّية إعنات المرأة بدليل قوله ﷻ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗا﴾ هذا هو الطّلاق الرّجعيّ، أي أن يعيد الزّوجة إلى عصمته من دون عقد أو من دون مهر جديدين.

﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗا﴾: إن أداة شرط، ليس إن أرادوا انتقاماً، أو إن أرادوا إعناتاً، أو إن أرادوا إفساداً، بل إن أرادوا إصلاحاً، فالشّرط هو الإصلاح، ثمّ قال الله ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: وهذه قاعدة عظيمة جدّاً، الإسلام يساوي بين المرأة والرّجل من ناحية الحقوق

(١) صحيح البخاريّ: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، الحديث رقم (١).

والواجبات، ويقرّ الإسلام بالاختلاف في تكوين الرّجل وتكوين المرأة؛ لطبيعة المرأة التي فطرها الله جَلَّ جَلَالُهُ في خلقتها ممّا يصلح لأن تكون منتجة للأجيال ومصنعاً للرّجال، وهي التي تحمل وترضع وتربّي، ولم يمنع الإسلام المرأة من العمل أو من أيّ حقّ من حقوقها الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة، بل قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ لكن بالمعروف، وليس بما تعارف عليه النّاس، بعد ما جاء من الشّرع ممّا تعارف عليه من معروف وبالحقّ وبالخير، لهنّ حقوق وعليهنّ مسؤوليّات، والرّجال لهم حقوق وعليهم مسؤوليّات وواجبات تجاهَ زوجاتهم، فالعلاقة بين الرّجل والمرأة تربطها ثلاثة عناصر أساسيّة، هي السّكن والمودّة والرّحمة، كما قال تعالى فيما يتعلّق بالرّجل والمرأة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الرّوم]، من هذا الإطار كانت المسؤوليّات والواجبات المتساوية بين الرّجل والمرأة، وأكّد القرآن هنا: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، ما هذه الدّرجة؟ جاءت في سورة (النّساء) في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النّساء: من الآية ٣٤]، ودرجة القوامة ليست كما فسّرها الجهلة، وإنّما كما فسّرها العلماء، درجة القوامة هي صيغة مبالغة، قوّام صيغة مبالغة من قائم، والقائم هو المتعب، والجالس هو المستريح، القائم هو الّذي يقوم بشؤون الآخر، إذاً للرّجال على النّساء درجة بأن يكونوا أوسع صدراً وحلماً وعطاءً ونفقةً وخدمةً لزوجاتهم، هي درجة

تكليف وليست تشريف، هي درجة تكليف إضافيّ للرّجل بأن يحافظ على زوجته ويصونها ويُنفق عليها من ماله ولو كان فقيراً وهي غنيّة، وأن يُكرمها ويحترم مشاعرها، فهذه أمور أساسيّة فيما يتعلّق بالشّرع الإسلاميّ، وهذه هي العلاقة التي بناها الإسلام وصاغها وصان العلاقة الزّوجيّة، ووضع حلّاً إذا تعارضت نهائيّاً وتنافرت النّفوس ولم يعد بالإمكان الاجتماع، عندها يكون الطّلاق هو الحلّ، فبعد انقضاء فترة العدّة، إن لم يكن هناك رجوع عن الطّلاق تخرج المرأة من عصمة الرّجل، وبالإمكان الرّجوع عن الطّلاق لكن بمهر وبعقد جديد، ففي فترة العدّة يحقّ للرّجل إعادة الزّوجة بنيّة وبغرض الإصلاح.

نجد بأنّ تشريع العدّة هو تشريع لصالح المرأة، وليس تشريع إعنات لها، كما يحاول البعض أن يروّج ضدّ الإسلام، وعلى العكس تماماً لمصلحة المرأة؛ لأنّ الله ﷻ ذيّل الآية بقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ درجة القوامة والخدمة والتّكليف.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: عزيز أي مستغن عن عبادة خلقه، لا يحتاج إلى خلقه، وإنّما هذا منهج إلهيّ فعليك أن تلتزم به، والله حكيم يضع التّشريعات التي تناسب الإنسان في كلّ وقت، وفي كلّ مكان، وفي كلّ ظرف، ولكلّ حالة من الحالات، حتّى لا يكون الزّواج قيداً على النّاس، وإن كان كما سمّاه الله ﷻ ميثاقاً غليظاً: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٢١﴾ [النّساء: من الآية ٢١]، ويمكن أن تنحلّ عُرى هذا الميثاق بعد هذه الفترة، وبعد

مراجعة النّفس، والتّفكير بعيداً عن الغضب والانفعال، وبعد استنفاذ كلّ الطّرق والوسائل من أجل الإصلاح بين الزّوجين.

(الآية ٢٢٩) - ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾:

بعد الحديث عن أحكام العدّة بيّن الله سبحانه وتعالى ما شرع من الطّلاق فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾: أحكام الشّريعة الإسلاميّة هي للخير والصّلاح، فلا يكون إفساد في المجتمع والبيت والأسرة إلّا من مخالفة الإنسان لمنهج الله سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى يدعو إلى السّلام وإلى القيم وإلى الأخلاق وإلى ما يُصلح المجتمعات.

هنا الحديث يتعلّق بالمرأة وبحقوقها، وما يتعلّق ببناء الأسرة وفق هذا الميثاق الغليظ، الّذي هو عقد الزّواج الّذي لا تنحلّ عراه والّذي يتمّ بالإيجاب والقبول وشهادة الشّهود والمهر، هذه أحكام العقد فيبيّن الآن أحكام الطّلاق في حال النّفور الكامل وعدم الطّريق للإصلاح فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل للنّبيّ صلى الله عليه وسلم: إنّي أسمع الله يقول: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ فأين الثّالثة؟ قال: «**فإمساك بمعروف أو تسريح**

بإحسان هي الثّالثة»[1]، كذا الثّالثة التي لا يجوز للرّجل أن يعود بعدها إلّا إذا تزوّجت من غيره، الطّلاق ثلاث مرّات اثنتان لك، والثّالثة ليست لك، هكذا المعنى تماماً لذلك نقول: طَلَّقها بالثّلاثة، الطّلاق بالثّلاثة لماذا ليس باثنين؟ الله ﷻ يقول: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾؛ لأنّ الثّالثة لا تحلّ له بعدها، تلك الثّلاثة، أمّا الاثنان فيجوز إمّا إمساك بمعروف أي العودة أو تسريح بإحسان، أمّا الثّالثة فهي الطّلقة التي لا يجوز بعدها عودة، لذلك نحن نقول: إنّ الحكم بالنّسبة للطّلاق لا يجوز للرّجل أن يتلفّظ بألفاظ الطّلاق في جلسة واحدة كأن يقول: أنت طالق أنت طالق أنت طالق، دون مرور زمن لكلّ فترة من هذه الفترات، والتي هي في الفترة الأولى إمساك بمعروف، وفي الفترة الثّانية تسريح بإحسان، وفي الفترة الثّالثة طلاق بائن، لكن بأزمنة مختلفة حتّى يقع الطّلاق الثّلاث، فلا يعتقد بعضهم الأمر بهذه السّهولة أن يقول: أنتِ طالق طالق طالق، أو: عليّ الطّلاق بالثّلاثة، هذا يمين واحد، وهذه طلقة واحدة، وليست ثلاث طلقات، الثّلاث طلقات يجب أن تكون بأزمنة مختلفة وبأمكنة مختلفة.

وهناك في بعض المذاهب الطّلاق لا يقع إلّا إن كان هناك شهود وولي المرأة، هناك عدّة إجراءات تتمّ حتّى يقع الطّلاق الثّلاث، ووفق هذه الأحكام، وليست هي كلمة تطلق هكذا لتصبح المرأة غير محلّلة للرّجل،

---

(١) سنن البيهقيّ الكبرى: كتاب الخلع والطّلاق، باب ما جاء في موضع الطّلقة الثّالثة من كتاب الله ﷻ، الحديث رقم (١٤٧٦٨).

ولكن تُعطى الفرصة الأولى والفرصة الثّانية، والزّمن الأوّل والزّمن الثّاني بالطّلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، يجب أن نبيّن بأنّ الإسلام والدّين ليس تعسّفاً في استخدام الحقّ، وليس هو سوء أخلاق، وإنّما هو قيم وأخلاق لصالح الفرد ولصالح المجتمع، فكيف بهذه المرأة التي عاش زوجها معها وأنجبت وأرضعت وبذلت وشاركت الرّجل هموم الحياة ومتاعب الأيّام، لتكون النّهاية سلبيّة وتُحرم من حقوقها ومن ما أمر الله ﷻ لها به، فلذلك لاحظوا بعد قوله ﷻ: ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾، قال ﷻ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ الحقوق هي قبل كلّ شيء، يجب أن نفهم أمراً هامّاً ونعلّمه لأبنائنا وطلّابنا وفي كلّ أمر من أمورنا، بأنّ الإسلام يكون كما عرّفه النّبيّ ﷺ، فهناك تعريف عقائديّ وهناك تعريف سلوكيّ، ولا يمكن للعقيدة أن تكون من دون سلوكيّات، فالتّعريف العقائديّ للإسلام أن تشهد الشّهادتين، وتقيم الصّلاة وتؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت، هذا التّعريف العقائديّ، أمّا التّعريف السّلوكيّ فقد أراد النّبيّ ﷺ من العقيدة أن تتحوّل إلى سلوكيّات فقال: «**المسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده**»(١)، فالنّبيّ ﷺ عرّف الإسلام بأنّه شهادتان وصلاة وزكاة وصيام وحجّ، وعرّف الإسلام بأنّ المسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده، أيّ أنّ أثر عقيدته بصلاته وزكاته وصيامه

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، الحديث رقم (١٠).

وحجّه يجب أن يكون هو أن يسلم النّاس من لسانه ومن يده، فلا غيبة ولا نميمة ولا افتراء ولا فسوق ولا إيذاء ولا ضرب ولا قتل ولا إرهاب، أن يسلم النّاس من لسانك ويدك هذا التّعريف السلوكيّ، أمّا الإيمان فأنْ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعرّف النّبيّ ﷺ الإيمان فقال: «**والمؤمن من أمِنه النّاس على دمائهم وأموالهم**»(١) فأنت إن كنت تؤمن بالله فيجب أن تحافظ على خلق الله، وأن يأمن النّاس من بوائقك ومن شرورك، وأن يأمن مَن حولك منك على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، فهذا هو التّعريف السّلوكيّ للإيمان، أمّا الهجرة فالمهاجر من هجر ما نهى الله عنه، أي أن يترك كلّ ما أمر الله أن يُترك من المعاصي التي تُزيّن للإنسان الفساد في الأرض، والإحسان هو أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك.

فإذاً هذه هي حقيقة الإيمان، لذلك قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وستّون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق**»(٢)، إماطة الأذى عن الطّريق شعبة من شُعب الإيمان. عن سفيان بن عبد الله الثّقفيّ عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً غيرك بعدك، قال: «**قل: آمنت بالله، ثمّ استقم**»(٣)، والآية الكريمة تقول: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود:

---

(١) سنن النّسائيّ الصّغرى: كتاب الإيمان وشرائعه، صفة المؤمن، الحديث رقم (٤٩٩٥).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، الحديث رقم (٣٥).

(٣) سنن النّسائيّ الكبرى: كتاب التّفسير، باب سورة الدّخان، الحديث رقم (١١٤٨٩).

من الآية ١١٢]، استقم كما أمرت لا كما رغبت، كما أمرك القرآن الكريم، كما أُمرت بالحفاظ على حقوق النّاس بعدم الغيبة والنّميمة والكذب والافتراء والرّشوة، كما أُمرت ببرّ الوالدين والعلاقة الطيّبة مع الأقارب ومع الجيران ومع الوطن، والرّأفة بالحيوان، وسلامة البيئة والنّبات والمناخ.. كلّ ذلك مطلوب لتكون ملاكاً يمشي على الأرض، مصدراً للخير، لذلك قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصّلت]، هذه هي المعايير الإيمانيّة التي أمر بها الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «**دخلت امرأة النّار في هرّة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**»(١)، دين هذه تعاليمه وتوجيهاته لا يمكن أن يقبل أن يُساء للمرأة داخل البيت من قبل الرّجل، هذه المرأة التي هي شريكة في الحياة الأسريّة مع الرّجل، هي شريكة في حياة الرّجل، هي شريكة

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب بدء الخلق، باب خمسٌ من الدّوابّ فواسق يُقتلن في الحرم، الحديث رقم (٣١٤٠).

في حياة المجتمع، قال رسول الله ﷺ: «**إنّ النّساء شقائق الرّجال**»[1]، وليس من حقّ أحد أن يزاود على الإسلام، من خلال تشريعاته بفهم مبتور أو خاطئ، هم أخذوا من الإسلام أقوالاً مبتورة وأفكاراً موضوعة، ولم يأخذوا حقيقة الإسلام، وتكريم الإسلام للمرأة وللزّوجة، ووضع الزّوجة في مرتبة يكون الرّجل قائماً بخدمتها، قوّاماً على مصالحها، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٨]، هذه قاعدة ذهبيّة، قبل الإسلام كانت المرأة ممتهنة الحقوق، ممنوعة من الملكيّة، كانت المرأة متاعاً وزينة وللخدمة، وأصبحت في الإسلام شريكة للرّجل في كلّ شيء، هذه السيّدة أمّ سلمة في الحديبية تعطي الرّأي والمشورة لسيّدنا رسول الله ﷺ، ويأخذ برأيها، وكان في تاريخنا الإسلاميّ نساء عظيمات مثل السّيّدة خديجة والسّيّدة عائشة والسّيّدة فاطمة الزّهراء والسّيّدة زينب، والخنساء وغيرهنّ، تركن بصمات رائعة في تاريخنا وفي إسلامنا وفي ديننا، ونحن أمام آيات واضحة المعالم لا تحتاج إلى إسقاطات من البشر، فالله ﷻ يُتبع كلّ أمر بعلّة الإصلاح وبعلّة اللقاء وبعلّة المحافظة على الزّوجة والمحافظة على الزّوج وما يسمّى بناء الأسرة وتربية الأطفال وبناء المستقبل.

بناء الأسرة إنّما يتمّ بشراكة كاملة بين رجل وامرأة، ووضع الله ﷻ وبيّن رسول الله ﷺ أحكام بناء الأسرة، فكلّما كان بناء الأسرة على أسس

---

(١) سنن التّرمذيّ: أبواب الطّهارة، باب فيمن يستيقظ فيرى بللاً ولا يذكر احتلاماً، الحديث رقم (١١٣).

سليمة، ابتعد الطّلاق عن الأسر الإسلاميّة، وكلّما بُني الزّواج على غير أحكام الشّريعة الإسلاميّة فإنّ الخلاف والشّقاق والطّلاق يكون أقرب للأسرة، نحن نقول: يجب علينا أن لا نأخذ إباحة وندع إلزاماً، هذه هي مشكلة المسلمين في كلّ مكان، يبحثون في كتاب الله، وفي سنّة رسول الله وهديهِ عن الإباحة، والإباحة بالطّبع كلّ شيء مباح إلّا الّذي ورد فيه نص قطعيّ بحرمته، وهذا معروف للجميع، لكن نحن عندما نفتّش عن الإباحة لا ننظر إلى الإلزام الّذي ألزمنا الله ﷻ به، وقبل الحديث عن الطّلاق يجب أن يُبيّن الدّعاة إلى الله أسس بناء الزّواج، فلا يجوز أبداً عندما يريد الدّاعي أو الدّاعية تبيينَ أحكام الطّلاق إلّا أن يتعرّضوا أوّلاً لأحكام الزّواج، فإذا بُني الزّواج على أسس سليمة، كما وصّى رسول الله ﷺ فإنّ الطّلاق يكون أبعد ما يكون لذلك قال ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله ﷻ الطّلاق»(١)، إذاً هو حلال وهو أبغض الحلال إلى الله، وهذا يبيّن المعنى الّذي أتحدّث عنه بدقّة؛ لأنّ الإسلام يريد بناءً سليماً، أُسراً سليمةً وبالتّالي المجتمع السّليم، والمجتمع عندما يكون سليماً فإنّ الوطن يكون معافى، فكلّنا يجب أن يحرص على اختيار الزّوج واختيار الزّوجة، وفق المعايير التي حدّدها القرآن، وبيّنها رسول الله ﷺ، وأنتم تعرفون بأنّ النّبيّ ﷺ هو الوحيد المخوّل بالتّشريع: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، ما يقوله رسول الله ﷺ وما يشرّعه نعمل به، هذا بأمر ممّن؟ إنّه بأمر من الله ﷻ:

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الطّلاق، باب في كراهية الطّلاق، الحديث رقم (٢١٧٨).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٢١﴾ [الأنفال]، فيجب أن نكون ممّن يُحسن الاستماع، أي معنى الاستماع، بالاستجابة للأوامر، فهنا النّبيّ ﷺ والقرآن الكريم أوّلاً حدّد معايير لبناء الأسرة، وقال عن عقد الزّواج: إنّه ميثاق غليظ، وشدّد على غلظته أي على قوّته ومتانته وشدّته هكذا معنى الآية، وهذا الميثاق؛ لأنّه أفضى بعضكم إلى بعض؛ لأنّ الرّجل أصبح لباساً للمرأة والمرأة لباساً للرّجل، فهناك تكامل كامل في الإسلام بيّنه الله ﷻ، إذاً بُنيت الأسرة الإسلاميّة على هذا الميثاق لا تنحلّ عراه، وهذا العقد الّذي يتمّ بين الرّجل والمرأة أوضح النّبيّ ﷺ المعايير التي يجب أن يُبنى عليها، وبيّن لنا طريقة الاختيار فقال: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد**»(١)، هذا التّوجيه لأهل الفتاة وولي أمرها، أمّا الشّاب الخاطب الرّاغب بالزّواج فقد وضع له رسول الله ﷺ معياراً، حدّده بصيغة خبريّة: «**تُنكح المرأة لأربع؛ لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدّين تربت يداك**»(٢)، إذاً الأسس التي وضعها الإسلام للعلاقة بين الرّجل والمرأة أصبحت واضحة، لو تمّت الأمور من خلال هذا التّوجيه لانعدم الطّلاق إلّا للضّرورات القصوى؛ لأنّك إن

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب النّكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوّجوه، الحديث رقم (١٠٨٥).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب النّكاح، باب الأكفاء في الدّين، الحديث رقم (٤٨٠٢).

اخترت لابنتك الرّجل الّذي تربّى على القيم والأخلاق، وأنت اخترت المرأة التي تربّت على القيم والأخلاق، والّذي يتربّى على القيم والأخلاق لا يكون في بيته غير أخلاقيّ، لا يكون في بيته كذّاباً، أو خائناً غير مؤتمن، لا يكون في بيته نمّاماً، لا يكون في بيته مغتاباً، لا يكون في بيته سارقاً... إذاً كلّ القيم تحملها المرأة من بيتها وأسرتها إلى بيت زوجها وكلّ القيم التي حملها الرّجل تظهر في بيته، لذلك قال ﷺ: **«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه»**، وعبّر عن ذلك بالخُلق؛ لأنّ الإسلام ليس كلاماً، والإسلام ليس دعاوى تُدعى، الإسلام أخلاق وسلوكيّات جاءت ضمن تشريعات، فإن طبّقنا التّشريعات توافقت السّلوكيّات مع التّشريعات، فهذا إسلام، أمّا إن لم تتوافق السّلوكيات مع التّشريعات فهذا كلام، لذلك نجد أنّ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام وصّى في حجّة الوداع بالنّساء، إذاً أفهمُ الآن بناء الأسرة من خلال كلّ هذه الأدلّة.

شروط عقد الزّواج: وليّ وإيجاب وقبول وإشهار ومهر وشهادة شاهدين، هذه الشّروط هي مقدِّمات للزّواج لا بدّ منها، وهي بمثابة القيام والرّكوع والسّجود والتّشهّد في الصّلاة، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون]، وقال ﷺ: **«من صلّى صلاة فلم تأمره بالمعروف ولم تنهه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلّا بعداً»**[1]،

---

(١) شعب الإيمان: باب الحادي والعشرون من شعب الإيمان وهو باب في الصّلوات، تحسين الصّلاة والإكثار منها ليلاً ونهاراً، الحديث رقم (٣٢٦٢).

إذاً فهناك شروط لعقد الزّواج بين الرّجل والمرأة، وهذه شروط شكليّة، أمّا الشّروط الحقيقيّة الضّمنيّة في الإسلام فهي: أخذتموهنّ بأمانة الله وكلمة الله وتقوى الله، فإذا تعامل الرّجل مع المرأة بهذه الشّروط الثّلاثة، فلا أعتقد أبداً بأنّ هناك مجالاً للخلاف، وسيكون الطّلاق آخر الاحتمالات، يمكن أن يحدث بحالات استثنائيّة فقط، لماذا؟ لأنّه ينظر إلى المرأة من خلال الأمانة، ومن خلال كلمة الله، ومن خلال تقوى الله، ومن خلال أنّ المرأة هي السّكن، وهي المودّة وهي الرّحمة، ولا يتحقّق ذلك إذا تمّ اختيار الرّجل لماله أو لصيته أو لعائلته أو لمنصبه، وإذا تمّ اختيار المرأة لجمالها أو مالها أو لحسبها فقط، وعندما قال النّبيّ ﷺ: «**تُنكح المرأة**»، فهذا إخبار منه، تنكح إمّا لمالها وإمّا لجمالها وإمّا لحسبها، ولكن إن تمّ الاختيار فأنت تبني عقد الزّواج على شرطٍ هامٍّ وهو الدّيمومة، فإذاً أنت عندما تبني الأسرة على العلاقة بينك وبين هذه الشّريكة للحياة، لن تقول بعد مرور عشرين عاماً: زوجتي لا تهتمّ بنفسها، ولا تهتمّ بزينتها، هذه المرأة التي تحمّلت، وعاشت معك، وحملت الأحمال المتعدّدة، وأرضعت، وربّت، وسهرت، من الأمر الطّبيعيّ عندما تنظر إلى امرأة في الشّارع في مقتبل عمرها أن يكون مظهرها مغايراً لمظهر زوجتك، ترى هنا أثر كلّ هذا التّعب الّذي بذلته، وتقول: إنّي أريد أن أتزوّج من ثانية، أو من ثالثة، أو أُريد أن أُطلّقها دون أسباب موجبة للطّلاق، فهذا ليس من الأخلاق، وهذا ليس من القيم التي بنى الإسلام عليها الشّعائر التّعبديّة، وقد كان رسول الله ﷺ يقول: «**خيركم خيركم**

لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[1]، والمقصود بذلك الزّوجة.

حتّى الزّواج جاء مقيّداً بشروط، وهذا التّقييد حتّى نعلم بأنّ الإسلام لا يقرّ أبداً إطلاق الشّهوات، وإنّما هو لضبط الشّهوات.

كما أوجب الإسلام الأمور المؤدّية لاستمرار واستقرار الأسرة فإنّه بنفس الوقت بيّن أنّ هناك ظروفاً قد تعتري الأسرة، ويصبح العيش المشترك بين الرّجل والمرأة في استحالة، عند هذا الحدّ شرّع الإسلام الطّلاق؛ لذلك قال ﷺ: «**أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطّلاق**»[2]، هو حلال لكنّه أبغض الحلال، لماذا؟ لما فيه من شرور على الأسرة وعلى المجتمع، ومن تفريق شمل الأسرة، وهدر للحقوق، وتشريد للأطفال، فأنا اضطررت أن أجمع كلّ الآيات والأحكام المتعلّقة بالأسرة قبل أن أدخل إلى الحديث عن الطّلاق، حتّى لا يقولنّ قائل: إنّ الإسلام أقرّ الطّلاق، حتّى التّشريعات الأرضيّة الآن في إسبانيا وفي إيطاليا وفي بعض الدّول بدأت تسمح بالطّلاق، فالتّشريع الإلهيّ دائماً هو التّشريع الّذي يقنّن للبشر، وهو الّذي يعطي الكمالات للبشر، ولا يمكن أن يعتري التّشريع الإلهيّ نقص أو علّة، فطالما أنّ الله شرع الطّلاق فهناك حاجة إليه، فيمكن للأسرة أن تحتاج إلى الطّلاق فيكون هناك مخرجٌ لهذه الأسرة بدلاً من العيش في جحيم.

والعدّة هي فترة هامّة من أجل إعادة التّفكير وإعادة البناء، بدلاً من

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب المناقب، باب فضل أزواج النّبيّ ﷺ، الحديث رقم (٣٨٩٥).

(٢) سنن أبي داود: كتاب الطّلاق، باب في كراهية الطّلاق، الحديث رقم (٢١٧٨).

الهدم؛ لأنّ الطّلاق هو هدم، فإذا مرّت العدّة فقد وقعت هنا البينونة الصّغرى، فيجوز له إرجاعها لكن بعقد ومهر جديد، أمّا إن كانت في العدّة فيمكن أن يُعيدها زوجها من دون عقد ومن دون مهر، ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ إذا عاد الرّجل واتّفق مع المرأة وعادا عن مشروع الطّلاق، فهو إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، فالإسلام عنوانه الأحسن ليس الحسن ولا الحسنى، إنّما الأحسن بكلّ الآيات: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾ [المؤمنون]، ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصّلت]، ليس المطلوب من المسلم أو المسلمة أن يكون حسناً وحسب وإنّما أن يكون الأحسن، لذلك حتّى إذا كان هناك انفصال فهذا الانفصال يجب أن يكون بإحسان، هذا إذا كنّا نريد الإسلام، وإن كان حال المسلمين غير ذلك بسبب جهلهم.. وما نراه من حال المسلمين هو بعد عن الإسلام وليس هو الإسلام؛ لأنّ الإسلام أن تقوم بما ألزمك الله كما تأخذ الإباحة، هناك أمور ألزمك بها فعندما يقول: ﴿تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ إذاً اتّفقا على الطّلاق، فيجب أن يكون هذا السّراح بإحسان، لا أن يكون التّشاجر والسّباب والضّرب ومنع من رؤية الأولاد لأحد الطّرفين، ولا أن ينتقل الخلاف إلى أسرة الزّوج مع أسرة الزّوجة.. فالإسلام يأمر بالتّسريح بإحسان إذا كان هناك فصل للشّراكة؛ لأنّه عقد شراكة حياة، بناء حياة، هذا هو الزّواج فإذا كان وفق المعايير الإسلاميّة فإذاً يجب أن يكون حتّى في الطّلاق تسريح بإحسان.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾: حرص الإسلام على المهر للمرأة، وحرص أن تأخذ المرأة حقّها عند الزّواج وعند الطّلاق.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ هنا الحديث عن الخُلع، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ امرأة ثابت بن قيس أتت النّبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلق ولا دين، ولكنّي أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أتردّين عليه حديقته»، قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: «اقبلِ الحديقة وطلّقها تطليقة»[1]، فالخلع هو ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ فإذا كانت المرأة قالت: أنا أُعيد لك المهر، وأتنازل عنه مقابل حَلِّ عقد الزّواج بيني وبينك، وتمّ الاتّفاق، فهذا حقّ للمرأة أيضاً أعطاه الإسلام لها، بأن يتّفقا على الخلع، لكن بشرط أن تطلب هي ذلك، وهذا أيضاً من حقّ المرأة وهذا يُشير إلى حكم الخلع: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ إذاً هي افتدت نفسها بمهرها، إذاً هي هنا تركت المهر واتّفقت معه على الخلع.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾: وبمواضع أخرى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الطّلاق، باب الخلع وكيفيّة الطّلاق فيه، الحديث رقم (٤٩٧١)، ومعنى (أكره الكفر): أي أن أقع في أسباب الكفر من سوء العشرة مع الزّوج ونقصانه حقّه ونحو ذلك.

﴿تَقۡرَبُوهَا﴾ [البقرة: من الآية ١٨٧]، فالكلمة هي ذاتها فعندما يقول: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾ يوجد نهي وعندما يقول: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَا﴾ يوجد إباحة، هنا يوجد إباحة بموضوع الخلع، وهو أن تُعيد له المهر من أجل أن يتمّ الخلع من المرأة تجاه الرّجل، فإذاً هنا تأتي حدود الله فماذا يأتي معها؟ لا يأتي معها: (لا تقربوها) وإنّما يأتي معها: (لا تعتدوها) ومعنى ذلك: لا تتعدّى الحلال، ولا تقرب الحرام، فأين نجد ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾؟ بآيات الصّوم ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾ [البقرة: من الآية ١٨٧]، لا تقترب من الحرام حتّى لا تقع فيه. إذاً: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَا﴾؛ لأنّها هنا إباحة الخلع.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لماذا؟ لأنّ الظّلم تجاوز الحقّ، تجاوز الحدّ، أنت أكلت مال فلان، ظلمته تجاوزت على حقّه، فإذاً تلك حدود الله إن أنت تعدّيت حقوق الله عزّ وجلّ فهو تجاوز، وبتجاوزك فأنت ظالم، لا أحد يظلم الله أليس كذلك؟ الإنسان يظلم نفسه أو غيره، إذا عصى الله فهو يظلم نفسه وإذا ارتكب إثماً مع الآخرين فهو يظلم غيره، لذلك انظر الآيات: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: من الآية ١٩٣]، فالذّنب مع الله، والسّيّئة مع العبد مع خلق الله، لماذا هذا سمّاه ذنباً وهذا سمّاه سيّئة؟ لأنّك لا تستطيع أن تسيء إلى الله سبحانه وتعالى: «**يا عبادي، إنّكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي،**

لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»(1)، هل تستطيع أن تزيد في ملكه أو أن تنقص في ملكه؟!

(الآية ٢٣٠) – ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾:

بعد أن تحدّث المولى سبحانه وتعالى عن الطّلاق بأنّه مرّتان يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ هذه الطّلقة الثّالثة.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ هذا حرص من الإسلام على حقوق المرأة وكرامتها، حتّى يمنع الرّجل من أن يتلاعب بموضوع الطّلاق، وحتّى لا يهدّد الطّلاق الحياة الأسريّة عند أيّ هزّة بسيطة أو لأيّ كلمة، فأراد الله سبحانه وتعالى ألّا تكون هذه الكلمة أبداً إلّا بألف حساب، وكما قلنا: الطّلاق مرّتان، وأعطى الفرصة الأولى، ويوجد طلاق رجعيّ وطلاق بينونة صغرى، والبينونة الصّغرى هي التي بعد العدّة، وبعد العدّة مهر وعقد جديدان، أمّا إذا كانت الطّلقة الثّالثة فلا الإمساك بمعروف ولا التّسريح بإحسان وكانت الطّلقة الثّالثة، فإذاً هنا الرّجل والمرأة يجب أن يبتعدا ويجب أن تتزوّج المرأة من رجل آخر حتّى تصبح حلالاً له مرّة أخرى، وإلّا لا تحلّ

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

له بعد ذلك، وهذا التّشديد لمنع التّعسّف في الطّلاق، أو ترداد كلمة الطّلاق باستمرار على اللّسان؛ لأنّ الطّلاق يمين السّفهاء.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾: فإذا عادت بعد أن تزوّجت وطُلِّقت على ألّا تكون هذه العمليّة عمليّة محلّل، ما السّبب؟ لأنّ الأعمال ليست في الأشكال، إنّما هي بحسب نيّة القلب، ونصف الدّين في حديث عمر بن الخطّاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**إنّما الأعمال بالنّيات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى**»[1]، فإذاً نيّة المرء أوّلاً تطبيق أوامر الله، أمّا أنْ يعقد العقد ويضع المهر دون دخول فهذا لا يجوز، هذا بالنّسبة لموضوع الثّلاثة ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إذاً لا يوجد مشكلة ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إذاً أنت في طريق الحياة يجب أن تطبّق حدود الله، ليس الشّيء الّذي يعتقده الإنسان أنّ حدود الله فقط أن أصوم وأصلّي وأزكّي وأحجّ، هذه أركان الإسلام هذه ليست الإسلام، هذه أركانه؛ لأنّ النّبيّ ﷺ قال: «**بُني الإسلامُ على خمس: شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وإقامِ الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، والحجّ، وصوم رمضان**»[2]، إذاً بني على أركانٍ والإسلام هو شيء آخر، الإسلام هو كما قال ﷺ: «**إنّما بُعثتُ**

(١) صحيح البخاريّ: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، الحديث رقم (١).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النّبيّ ﷺ: «**بني الإسلام على خمس**»، الحديث رقم (٨).

لأتمّ مكارم الأخلاق»(١). الإسلام هو الأحسن في كلّ شيء، الإسلام هو قمّة الأخلاق، الصّدق الإخلاص المحبّة التّقوى الوفاء البرّ الإيثار الرّحمة، إذاً ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ هذه هي حدود الله، فلا يتزوّج أحد ويعاشر زوجته إلّا على هذه الحدود، هذه الحدود التي بُنيت على السّكن والرّحمة والمودّة، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٧]، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة: من الآية ٢٢٨]، والنّساء شقائق الرّجال، هذه الأسس التي بنيت عليها الحدود الزّوجيّة، هذه هي حدود الله، فنحن حوّلنا حدود الله ﷻ من خلال ممارساتنا الخاطئة، حوّلنا حدود الله ﷻ إلى العبادات الأساسيّة، أنا مسلم أصلّي، كيف سأكون مسلماً إن لم أكن أصلّي؟! هذا أمر طبيعيّ، أرني أثر صلاتك في المجتمع، أرني أثر الحجّ الّذي قمت به في المجتمع، أرني أثر الصّوم في رمضان في المجتمع، أرني أثر العبادة على العباد، لا ترني أثر العبادة على نفسك، أثر العبادة على العباد وإلّا لما كان هناك صلاة جماعة؛ لأنّ الإسلام يريد أن ينقل الخير إلى الغير وليس أن يحتفظ الإنسان بالخير لنفسه.

(الآية ٢٣١) – ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾:

---

(١) سنن البيهقيّ الكبرى: كتاب الشّهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، رقم الحديث (٢٠٥٧١).

﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾: إذا طلقتم النّساء فبلغن أجلهنّ: أي انقضت عدّتهنّ، أو اقتربت العدّة فبقي يومان أو ثلاثة لتنتهي، فإمّا أن تقرّر أن تعيد الزّوجة، وإذا انقضت العدّة فتعمل عقداً ومهراً جديدين، وإمّا أن يكون الأمر انتهى، لكن كيف؟ بالمعروف، وبآيات أخرى بإحسان، مرّة بإحسان ومرّة بالمعروف، دائماً كلّ عناصر الخير في الإسلام.

﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ﴾: هناك مَن يستخدم حقّ عدم تطليق الزّوجة أو مُراجعتها من أجل الاعتداء على حقوقها، أو من أجل إعنات الزّوجة، ومن أجل مكارهتها، فنبّه الإسلام أنّ العدّة تكون في بيت الزّوجيّة: ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ﴾ لا أحد يظلم ربّه، وإنّما يظلم نفسه؛ لأنّه عندما يظلم زوجته فهو يظلم نفسه؛ لأنّ هذه الزّوجة أصبحت مظلومة ودعوتها عند ذلك ليس بينها وبين الله حجاب، فإذاً هو ظَلَم نفسه.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾: آيات الله: أوامره، لماذا سمّيت آيات؟ ولماذا سمّي القرآن الكريم آيات؟ الآية هي المعجزة، وآيات القرآن الكريم سمّيت آيات؛ لأنّ كلام الله سبحانه وتعالى معجز، فإذاً عندما يقول: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ أي أوامر الله أي ما جاء من كلام الله سبحانه وتعالى لا تتّخذوه هزواً، وكيف يتّخذها الإنسان هزواً؟ عندما لا يأخذ الأوامر التي أمر الله سبحانه وتعالى عن قناعة وعن إرادة بأنّها جاءت من إله حكيم، عندما يهزأ كما يفعل بعضهم الآن ويحاول أن يختبئ وراء إصبعه ويهزأ من تشريعات الإسلام التي تُشرّف بني الإنسان.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾: قلنا: إنّ واو العطف إمّا أن تكون مشاركة أو مفارقة، نوعان إذاً ﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾ يجب أن نعيش مع ذكر نعم الله سبحانه وتعالى علينا بهذه التّشريعات التي وضعها لنا جل جلاله صيانة لنا ولزوجاتنا ولأولادنا ولأسرنا، ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ هنا خصّص المولى سبحانه وتعالى القرآن وخصّص أيضاً مع القرآن سنّة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ من أين عرفنا أنّ سنّة النّبيّ صلى الله عليه وسلم هي الحكمة؟ من الآيات المتعلّقة بأمّهات المؤمنين زوجات سيّدنا النّبيّ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٤]، ما الّذي يُتلى في بيوت أمّهات المؤمنين؟ الحكمة كلّ لفظ وكلمة وفعل وإقرار من رسول الله صلى الله عليه وسلم. كذلك من قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ﴾ [البقرة: من الآية ١٢٩]، فلا يقولنّ قائل: أنا أكتفي بما جاء في القرآن الكريم، فأنت لا تستطيع أن تعرف شيئاً إذا لم تستند إلى ما أتاك من الرّسول على الإطلاق، هذا الأمر واضح من النّص القرآنيّ الكريم، نحن من أين أخذنا أحكام التّشريع الإسلاميّ؟ من القرآن ومن سنّة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، أوّلاً؛ لأنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم هو الّذي يشرّع، نحن لا نعرف عدد ركعات الصّلاة، نحن لا نعرف مقدار الزّكاة، نحن لا نعرف مقادير الميراث بالتّفصيل كلّها تأتي مجملة، فالنّبيّ صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن هوى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النّجم]، وكلّ ما نطق به صلى الله عليه وسلم أو أقرّه، وما سكت عنه وما حسّنه

هو تشريع بالنّسبة لنا، وهو ما ورد هنا في هذه الآية: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ يعظكم به: أي يدلّكم به، يرشدكم، يوجهّكم، فإذاً التّوجيه الأساسيّ في الكتاب والحكمة أي في ما جاء به الرّسول وهنا فيما يتعلّق بأحكام الزّواج والطّلاق فلا يقنّن الإنسان لنفسه، ربّنا ﷻ هو شرع لنا أحكام الزّواج وأحكام الطّلاق وأحكام العدّة... لا تقنّن من نفسك، فهذا معنى: ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾: القضيّة قضيّة تقوى، والعبادة هي طاعة الآمر بالعبادة، وليست عبارة عن حركات، هذه الحركات تعبّر عن طاعة، لا يوجد عبوديّة لله من دون أوامر وطاعة وافعل ولا تفعل وحلال وحرام ويجوز ولا يجوز. فيجب أن يكون امتثالك لأحكام الزّواج ولأحكام العدّة ولأحكام الطّلاق عن مخافة من الله وعن تقوى لله سبحانه وتعالى، وانتهت الآية بـ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾: أي إنّك تستطيع أن تدلّس على البشر، أمّا على الخالق فلا تستطيع أن تدلّس، فالله عز وجل لا يُخدع، الله لا يُكذب عليه، لماذا؟ لأنّ الله يعلم السّرّ وأخفى من السّرّ، ويعلم ما تُكنّ صدورنا، فالله سبحانه وتعالى يعلم كلّ شيء، فإذاً نيّة تطبيق أحكام الطّلاق وأحكام الزّواج والعدّة يجب أن تكون خاصّة لطاعة الله سبحانه وتعالى.

(الآية ٢٣٢) – ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾:

﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾: العضل: المنع، أي لا تمنعوهنّ، وهذا ما يحصل أحياناً ما بين أسرة الزّوج وأسرة الزّوجة بعد الطّلاق، وحديثنا الآن عن الطّلاق مرّتان، ليس عن الطلاق ثلاثة، لنفترض أنّهما يريدان أن يتراجعا إلى بعضهما، بالطّريقة الرّجعيّة ضمن العدّة، أو بعد أن تنقضي العدّة بمهر وعقد جديد، أو نتيجة طلقتين فإذاً هنا يقول الله ﷻ لهم: لا تمنعوهما من أن يعودا إلى بعضهما؛ لأنّهما قد يرغبان بذلك، وقد يقف أهله أو أهلها دون عودتهما لبعضهما بزيادة البعد والخلاف والشّجار.

﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾: الله ﷻ يقول: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾ يأتي بعنصرين من عناصر الإيمان، ومعظم الآيات يقترن فيها الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالله هو القمّة، الإيمان باليوم الآخر هو أن تستشعر الحساب؛ لأنّ الإنسان من دون أن يشعر أنّ هناك حساباً وعقاباً لا يرتدع عن ظلمه، بعض النّاس يصوّر الدّين على أنّه رحمة مطلقة للمؤمن والكافر والطّائع والعاصي، وأنّه لا يوجد جنّة أو نار، أو كلّ النّاس ستدخل الجنّة ولا يوجد عذاب!! هذا كلام لا يستند إلى دليل، ومخالف لصريح القرآن الكريم، لماذا؟ لأنّ الله ﷻ دائماً عندما يرّغب يرهّب: ﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر]، إذاً دائماً يقول: الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، كما في هذه الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [الطّلاق: من الآية ٢]؛ لأنّه في اليوم الآخر تكشف الصّحائف ويحاسب الإنسان، ومصير المحسن إلى الجنّة

ومصير المسيء إلى النّار، فإذاً يجب دائماً أن تضع هذا المعيار نصب عينيك.

﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾: أزكى وأطهر وأصفى.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: هنا المولى سبحانه وتعالى يبيّن أنّه قد تظهر لك عوارض في هذه الحياة فتعتقد بأنّ المصلحة تكمن فيها، لكن إذا شرّع المولى حكماً فهو خير لك؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى يعلم وأنت لا تعلم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: من الآية ٢١٦]، ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النّساء: من الآية ١٩]، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: من الآية ٢١]، فنحن نعلم ظاهراً من الحياة الدّنيا، فالله سبحانه وتعالى عندما شرع أمراً، كتشريع الطّلقة الأولى، الثّانية، الثّالثة، العدّة.. إلخ، فهذه التّشريعات كلّها؛ لأنّه يعلم، فلا يأتِ إنسان ويقول: الأفضل للمرأة كذا، ومن أجل حقوق المرأة يجب كذا.. وهذا أفضل وأحسن.. هذا الكلام كلّه مناقض لصريح القرآن؛ لأنّ صريح القرآن الكريم واضح يقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(الآية ٢٣٣) - ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾:

هذه الآية تتحدّث عن موضوع الرّضاعة، وهو جلّ وعلا لم يترك باباً من الأبواب للحفاظ على الأسرة وعلى الطّفل وعلى الوالد وعلى الأمّ إلّا بيّنه، فبعد أن تحدّث عن حالات الطّلاق بيّن بعدها أحكام الرّضاع، طالما شُرع الطّلاق لحالات معيّنة، فإذاً يجب أن يضع تشريعاً يبيّن فيه هذه الأحكام حتّى لا تهضم حقوق الرّضيع والطّفل أيضاً، قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة، فإذاً هو حرّ وهي حرّة لكن أعطى المدّة القصوى.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: تنطبق على المولود له وهو الأب، لكن لاحظوا هذا الإعجاز، وهذه الدّقة في كتاب الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عندما يقع الطّلاق إن كان يوجد رضيع يبقى مع الأمّ لإتمام رضاعه، فأراد الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن الكريم أن يجعل في أذن الزّوج المطلّق الّذي كره الزّوجة بأنّ هذا الولد هو مولود له، هذا المولود لك يعني عليك نفقته وكسوته والعطف والحنان عليه، فإذاً هي ناحية هامّة لتذكير الأب بحقوق الرّضيع وحقوق المرضعة الأمّ، وإن كنتَ قد طلّقتَ.

﴿وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: هذا على من؟ على الأب وعليه الرّزق وأن يتكفّل بكسوته والنّفقة عليه.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾: لم يقل: أب، لاحظوا: ﴿وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾؛ لأنّ الوالدة لا يمكن أن تتخلّى عن رضيعها فهي ليست بحاجة إلى تذكير، أمّا الرّجل الّذي طلّق

فهو بحاجة إلى تذكير، لذلك في المرّتين لم يقل له: والد، بل سمّاه مولود له، نسبه للمولود، للرّضيع، انتبهوا هذه لقطة دقيقة في كتاب الله تجعل الإنسان يسجد شكراً لله على أنّه من أتباع القرآن الكريم، وهذه قمّة إعطاء الحقوق للمرأة وكرامة المرأة، أين الّذين يتحدّثون عن المرأة؟ يتحدّثون عن المظاهر ويتركون الحقائق، هذه الحقائق القرآنيّة، نسب الأب للطّفل، بينما الأمّ لم تنسب للطّفل سمّاها الوالدة؛ لأنّ الأمّ لا تحتاج أبداً إلى تذكير بعطفها وحنانها على رضيعها.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾: من النّفقة أو الكسوة يقع الضّرر، ولا ضرر ولا ضرار في الإسلام، قال النّبيّ ﷺ: **«لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»**(1).

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾: من الوارث؟ ربّما مات المولود له فيرثه ابنه اليتيم، لكن ألا يجب أن يوجد هنا وصيّ على هذا اليتيم؟ ألا يوجد وارث يرث الأبَ غير المولود؟ فإذاً مَن سيكون الوارث ومن سيكون الوصيّ على مال اليتيم مطالب بذلك، فلم يترك الرّضيع في أيّة حالة من الأحوال.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾: المقصود بالفصال هنا عن الرّضاعة، والقرآن الكريم يوجّه الرّجل والمرأة وإن كانا مطلّقين أن يكون هناك تشاور واتّفاق بينهما على أولادهما، لماذا؟ لأنّ الله تعالى قال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ مَن المراد بـ ﴿أَرَادَا﴾؟ من هما؟ الأب والأمّ، إن

---

(1) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: المجلّد الرّابع، رقم الحديث (٦٥٣٦).

أرادا فصالاً يعني فطاماً، أي إيقاف الرّضاعة، فإذاً حتّى هذا الأمر أمرَ القرآن أن يتمّ بالتّراضي وبالتّشاور بين المرأة والرّجل، إذاً يوجد تشاور، لا أن يتشاتما ويتقاطعا وتتقاطع الأسرتان وتقوم بينهما العداوة، وكلّ ما نراه من مظاهر الطّلاق في المجتمع هو مظاهر ليست إسلاميّة وليست إيمانيّة أبداً، نرى العداء المستشري بين الرّجل والمرأة وبين الأسرتين نتيجة الطّلاق، بينما القرآن الكريم عندما يتحدّث عن هذه القضيّة يقول: إنّ المرأة إذا كان لديها طفل رضيع وتريد أن تفطمه فعن تراض وتشاور، ففي الإسلام لا يوجد أحقاد.

﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾: أي طلب امرأة مرضعة غير الأمّ.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: إذاً كلّ شيء بالمعروف، كلّ شيء بالإحسان، إن كنت تريد إحضار مرضعة أيضاً عليك أن تنفق على الطّفل وأنت من سيحضر المرضعة، كلّ أمر من الأمور يجب أن يكون ضمن ضوابط وقواعد هذه هي ضوابط المعروف والإحسان. ماذا فعل أعداء الإسلام؟ لا يشكّ عاقل للحظة واحدة بأنّ كلّ الحركات الإرهابيّة والمتطرّفة هي من صناعة صهيونيّة، من أحفاد يهود خيبر وبني قينقاع وبني النّضير وكلّ من مشى معهم وتآمر على الإسلام، وعلى بلادنا، ماذا أرادوا أن يضعوا من الإسلام؟ هم حذفوا من الإسلام كلّ المقاصد من التّشريع، حذفوها من الإسلام، حتّى عندما يعطي حكم يتعلّق بالطّلاق، لاحظتم كم آية تتعلّق بالطّلاق، وكم آية وحديث عن الرّضاع، والحديث عن الطّلاق مرّتان، وعن الطّلاق إن كان ثلاثة، وعن عدّة الطّلاق، وعن عدّة المتوفّى

عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، وهذه ثلاث حيضات أو قروء، ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار، وهذه حتّى تضع حملها.. كلّ هذه التّفاصيل يتحدّث عنها، وبعد أن ينتهي تجدون إمّا (بإحسان) وإمّا (بمعروف)، فجوهر مقاصد الشّريعة الإسلاميّة دائماً هي الخير العامّ لكلّ النّاس، والّذي يقتل ويدمّر ويفجّر ويفخّخ ويفعل كلّ هذه الأفعال التي تفعلها الجماعات الإرهابيّة والمتطرفة والتّكفيريّة فالإسلام بريء منه قطعاً. لا يمكن للمسلم أن يكون مصدراً لا للضّرر ولا للضّرار أبداً، وإنّما للخير والإحسان.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾: واتّقوا الله؛ لأنّ الله ﷻ يعلم ما في النّفوس وخبايا الصّدور والضّغائن والأحقاد التي تتولّد نتيجة الطّلاق، فأراد الله ﷻ أن يذكّر الرّجل والمرأة، أن يذكّر أهل الرّجل وأن يذكّر أهل المرأة بأنّ هذه التّكاليف الإيمانيّة إنّما تنبع من قضيّة التّقوى، ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: من الآية ١٩٧]، إذاً هي تنبع من أصل الخوف من عذاب الله ورجاء رحمته ﷻ، تنبع من التّقوى ولا تنبع من الالتزام الدّنيويّ، لا تنبع من الأخلاق، كما يقول بعضهم: إنّ الأخلاق منفصلة عن الدّين، إذا لم تكن هذه الأخلاق مرتبطة برقابة إلهيّة فلا ثبات لها، فإنّها إذا لم تكن ترتبط بهذا فلن تدوم ولن تكون الأخلاق التي أمر بها الإسلام؛ لذلك قال ﷺ: «**إنّ من الإيمان حسن الخُلُق، وأفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً**»[1]، فكيف إذا إنسان سيّء الأخلاق ويقول: أنا

---

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب الصّاد، صدى بن العجلان، رقم الحديث (٧٧٥٦).

متديّن؟! لا يمكن هذا الكلام بتشريع الإسلام؛ لأنّ هذا الإنسان مرتبط بالقيم الأخلاقيّة، هذه القيم الأخلاقيّة التي وصلت إلى درجة أنّ الإنسان لا يستطيع أن يحبس هرّة حتّى لا يدخل النّار فيها، فكيف بمن يقتل النّاس؟ وموضع الشّاهد الّذي أريده هنا هو أنّه عندما تكون هناك تكاليف صعبة على النّفس، أو فيها تكليف شديد نتيجة موضوع الطّلاق -لأنّ الطّلاق واقع بين الرّجل والمرأة- فإذاً يجب أن تكون المعاملة التي تتمّ من أيّ باب؟ من باب أنّك تتعامل مع الله، فأنت تتعامل وفق تقوى الله، إذاً هذا هو عنوان، وتحت هذا العنوان تندرج الالتزامات، والالتزام لا يمكن أن يندرج إلّا تحت عنوان تقوى الله، وإلّا فالأب سيمنع الأمّ من أن ترى أولادها ويريد أنّ يضرّها.. والأمّ تريد أن تفعل هذا، وكلّ هذه المظاهر التي نراها سببها يسير، فقط بأنّ التّعامل لم يكن تحت تقوى الله؛ لذلك نرجع لقول سيّدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ: «**فاستوصوا بالنّساء خيراً**»(١)، فاتّقوا الله، إذاً جعل عنوان العلاقة الزّوجيّة هي تقوى الله، فهل يُضمن حقّ المرأة بتقوى الله؟ أليست المرأة هي مخلوق من مخلوقات الله؟ فإذاً تقول لي: ما الضّمانة؟ هل هو المهر؟ أم الإيجاب والقبول؟ الإشهار؟ الدّيمومة؟ شهادة الشّهود؟ أقول لك: التّقوى هي ما حدّده رسول الله ﷺ، أمانة الله، كلمة الله، تقوى الله في العلاقة، كلّ ما ينشأ من تفرّعات حتّى في الطّلاق، وحتّى بعد الطّلاق.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾: دائماً تذكير الإنسان بأنّ الله سبحانه وتعالى

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب النّكاح، باب الوصاة بالنّساء، رقم الحديث (٤٨٩٠).

مطّلع وبصير ويرى أعمالكم، كما قال ﷺ: «**يا عبادي، إنّما هي أعمالكم أحصيها لكم ثمّ أوفيكم إيّاها**»(١)، فأنت عندما تفعل شيئاً تضع في حسبانك أنّ الله يراك ومطّلع عليك، وهؤلاء هم خلقه، فتصوّر كيف تتعامل مع زوجتك، مع طفلك، مع أسرتك، مع جيرانك، مع أصدقائك، مع مجتمعك، مع وطنك، هذا هو معنى تقوى الله وأنّ الله بما تعملون بصير.

(الآية ٢٣٤) – ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾:

هنا الحديث عن عدّة المتوفّى عنها زوجها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ﴾، عندما تقول لي: العدّة من أجل استبراء الرّحم، ما علاقة استبراء الرّحم بالموضوع؟ هذا أحد الأسباب، لكن العدّة ليست من أجل استبراء الرّحم فقط كما يعتقد بعض النّاس، العدّة من مصلحة المرأة، العدّة جاءت من أجل الإمساك بالمعروف أو التّسريح بالإحسان، من أجل المراجعة.

أمّا عدّة المتوفّى عنها زوجها فإنّها قيمة اجتماعيّة كبرى تصوّر امرأةً متوفّى عنها زوجها، ألا يوجد احترام ومراعاة للعشرة الزّوجيّة المقدّسة التي أجهز عليها موت الزّوج؟! إذاً أربعة أشهر وعشراً.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، رقم الحديث (٢٥٧٧).

فإذا انتهت العدّة تستطيع أن تتزيّن الزّينة المشروعة.. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وذلك لئلّا يُلزمها أحد بأن يستمرّ حزنها لسنة أو أكثر على زوجها، كلّ شيء في الدّنيا بالمعروف، وكلمة المعروف وكلمة الرّضا كلّها تندرج تحت عناوين الخير، فلا يمكن للدّين أن يكون مصدراً للشّرّ، من يستثمر الدّين بغير مجراه هو مجرم وإرهابيّ، هذا خلل نفسيّ وليس تديّناً، هذا الإنسان المجرم يريد غطاءً يبرّر به الشّذوذ النّفسيّ والجريمة في نفسه، فأسهل الطّرق أن يأخذ فتاوى شاذّة وضالّة ويقول: هذا هو الإسلام، أراد أن يسرق أراد أن يزني أراد أن يقتل.. يأتي بمبرّر لجريمته، فإذاً المشكلة في هذا الإنسان وفي تربيته، وليست المشكلة بما شرع ربّ الإنسان، لذلك تجدون الانحراف، أمّا الإسلام فكلّه أمر بالمعروف، الإسلام هو الخير، في الإسلام الهرّة لا يجوز حبسها.. كلّ هذه التعاليم كلّ هذه الآيات كلّ تعاليم النّبيّ ﷺ نُحّيت عن الطّريق ويأتي مجرم ليبرّر الجريمة ويقول: إنّ هذا دين الإسلام.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: لماذا هنا لم تأت بصير؟ الآية التي أتت قبلها ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٣﴾ هنا: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ الخبير يكون بصيراً، لكن عنده خبرة، هنا صفة من صفات الله استخدمها في تذييل هذه الآية فلماذا اختار ﴿خَبِيرٌ﴾؟ لأنّ الأمر هنا يتعلّق بأمر خاصّ بالمرأة فقط هي التي تعلن عنه أو لا تعلن عنه، هي التي تبيّنه أو لا تبيّنه إن كان بالحيض أو بالطّهر أو بالزّينة أو.. إلخ، فهنا معنى الآية يحتاج إلى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا

﴿تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾، لكي تعلموا أنّ تذييل الآيات له أيضاً دلالات.

(الآية ٢٣٥) – ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾:

هذه الآية نستند لها عندما نقوم بالخطبة، نأتي على مشروعيّة الخطبة في الإسلام، فمن الّذي قال: إنّ الإسلام كما يصوّرون يمنع الرّجل من رؤية من يريد خطبتها، فلا يتعرّف إليها إلّا عندما يدخل عليها!! من الّذي قال؟ لا يعرفها أبداً ولم يشاهدها أبداً؟! أهكذا شرعُ الإسلام؟ لا، ليس هكذا شرعُ الإسلام، وإنّما نأخذ شرع الإسلام من القرآن ومن سنّة النّبيّ ﷺ ضمن الضّوابط الشّرعيّة.

الخطبة هي فترة زمنيّة مقدّمة للزّواج حتّى يتمّ وفق الضّوابط الشّرعيّة، يتمّ التّعرف بموافقة الأهل بين زوج وزوجة المستقبل، وحتّى تتمّ دراسة متأنيّة قبل توقيع عقد شراكة الحياة وهذا من حقوق المرأة ومن حقوق الرّجل، فيأتي ويقول: أبوها زوَّجها، ماذا يعني أبوها زوَّجها؟ فلماذا شُرعت الخطبة؟ ألا يجب أن يأخذ موافقتها؟ ألا تريد المرأة أن ترى الرّجل الّذي ستتزوّجه؟ ألا يريد الرّجل أن يرى المرأة التي سيتزوّجها؟ ألا يريد أن يكون عنده علم بها؟ إذاً ضمن الضّوابط الشّرعيّة التي نعرفها جميعاً، تشريع الخطبة جاء في معرض

الحديث عن المتوفّى عنها زوجها، لماذا؟ لأنّك لا تستطيع أن تخطب أو تنوي الزّواج حتّى تنتهي العدّة بالنّسبة للمطلّقة أو المتوفّى عنها زوجها.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ﴾

﴿عَرَّضْتُم﴾ عرّض بالشّيء تعريضاً، وذلك في امرأة توفّى عنها زوجها، وهي لا تزال في عدّتها، فمن يريد أن يخطبها، وله علاقة مع أخيها أو أبيها أو أسرتها، فعرّض لأحدهم أو ألمح أنّه من الممكن أن يكون هناك خطبة أو زواج بعد انتهاء العدّة، لكن يوجد شرط هنا تبيّنه الآية وهو أن لا يوجد عزم، بل تعريض فقط أي تلميح. فالله ﷻ يحاسبك على العمل؛ لأنّك قد تكون أضمرت في نفسك لكن يجب ألّا تكون وصلت إلى العزم، ويوجد شرط هنا: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ﴾ هذه هي الشّروط الشّرعيّة، ممكن أن تعرِّضوا، لكن المواعدة واللّقاء السّري لا، ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ﴾ القول المعروف هو القول الحسن والمتعارف عليه في المجتمع، بالأدب تتعامل العائلات مع بعضها والنّاس مع بعضها من أجل الزّواج والخطبة حتّى يكون البناء سليماً، لكنّه بيّن وقال: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ﴾ إذاً العزم على أن تتزوّج بشكل نهائيّ لا يجوز حتّى تنتهي العدّة، فمعنى ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ﴾: حتّى تنتهي العدّة.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾:

انظر كيف اختلف تذييل الآيات، كلّ كلمة في كتاب الله لها معنى ولها

مدلول، فيجب أن نستدلّ بها لماذا؟ لماذا التي قبلها كانت: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، والتي قبلها: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وهذه جاءت في نهايتها: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ استخدم هنا صفات خبير بصير غفور حليم، استخدم هنا غفور حليم ولم يستخدم بصير بالرّغم من أنّه قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾، فأنت عندما تتصرّف وخصوصاً التّصرّف الّذي فيه مشقّة على النّفس، وفيه شهوة ظاهرة، فيجب أن تعلم أنّ الله يعلم ما في نفسك حتّى لو أظهرت أمام المجتمع بأنّك حريص، وأنّك وأنّك.. لكنّ الله يعلم السّرّ وأخفى، إذاً هنا تحذير ﴿فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾، نحن نرتقي إلى الله بجناحين؛ جناح الرّحمة والمغفرة، وجناح المخافة من العذاب.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾: بالرّغم من أنّه قال: يعلم ما في أنفسكم، يعلم ما في دخائل سرائركم فاحذروا منه، لكن انظروا رحمة الله ولطفه بالبشر، لم يقل: رحيم، بل قال: حليم، هنا القضيّة، غفور لتتناسب بأنّ الله ﷻ يعلم الضّيق أو يعلم بأنّ هذه القضيّة ضيّقة بالنّسبة للإنسان، ضيّقة بالنّسبة للمرأة أن تبقى أربعة أشهر وعشراً وأن تبقى بالعدّة إن كان يوجد مجال للخطبة أو مجال للزّواج، يوجد محاورات نفسيّة داخليّة تعتلج النّفوس حولها، فالله ﷻ قال لك: احذر ولا تعمل هكذا، مع ذلك بيّن لك بأنّه غفور حليم، بيّن لك بأنّه غفور يغفر الذّنوب وأنّه حليم.

ما معنى حليم؟ عندما تقول عن إنسان: حليم، ونحن لا نشبّه لكن

دائماً نقول في كلّ شيء بالنّسبة لله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، لكن نضرب الأمثال أحياناً للتّقريب وليس للتّشبيه، فعندما تقول: فلان حليم، فيعني هذا أنّ باله طويل، وصدره واسع على النّاس، فعندما تكون صفة تتعلّق بالله فالكمال لله فإذاً لا تحدّها الكلمات، فأين أجد معناها؟ ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾ [النّحل]، حليم؛ لأنّه لو يؤاخذ الله ﷻ النّاسَ بظلمهم ما ترك على ظهر الأرض من دابّة.

(الآية ٢٣٦) - ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦﴾:

تتحدّث الآية عن الطّلاق بين الرّجل والمرأة بعد العقد وقبل الدّخول.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: ذكرنا سابقاً أنّ هناك فارقاً بين (إن) و(إذا)، مثلاً: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ [النّصر]، أي أنّ الأمر قد انتهى وأنّه سيأتي، ولو قال: (إن جاء نصر الله) فيعني يوجد احتمال هزيمة، احتمال أن يأتي النّصر واحتمال ألّا يأتي، أمّا في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات]، لو جاءت: (يا أيّها الّذين آمنوا إذا جاءكم فاسق) يعني حُكم عليك بأنّه سيأتيك فاسق بنبأ، وليس من الضّروري أن يأتيك فاسق بنبأ.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: إن طلّقتم معناها ليس الطّلاق أمراً حتميّاً.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾: إذاً لا يوجد دخول بين الرّجل والمرأة.

﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: وتفرضوا إذا لم يكن هناك مهر، هنا الآية التي بعدها تكمّل المعنى أيضاً، ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: من الآية ٢٣٧]، فإذا كان هناك مهر فنصف المهر إذا لم يكن هناك دخول بين الرّجل والمرأة، القرآن الكريم عندما يورد آيات بالنّص حتّى يحفظ حقّ المرأة، فهنا لربّما عند الزّواج لم يكن هناك تسمية للمهر، وبعض النّاس يسمّون المهر ليرة مقدّمة ومؤخّرة، لم يكن هناك مهر وحدث الطّلاق بعد العقد بدون دخول، ما الحكم الشّرعيّ؟ أنت تقول: إنّ الحكم نصف المهر، وهنا لا يوجد مهر، يأتي الجواب في الآية: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ إذاً كلّ شيء ضمن الإحسان، وكلّ شيء ضمن المعروف، إذا كان الإنسان مقتدراً فلا يمنع أن يضع مبلغاً لا يعتبره مهراً، فعنصر الخير هو المطلوب بالموضوع، وما يرد في الآيات إنّما يتعلّق بعنصر الخيريّة، وعنصر العطاء وإذا كان الإنسان موسراً فما يمنعه أن يعطي؟ ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: أي ليس فرضاً؛ لأنّ الفرض هو نصف المهر.

(الآية ٢٣٧) – ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾:

إذا حدث الطّلاق بين الرّجل والمرأة قبل الدّخول وبعد العقد يدفع الرّجل نصف المهر، هذا هو حكم الشّرع.

﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾: إلّا أن يتمّ العفو والسّماح عن طيب خاطر وعن تراض بين الرّجل وبين المرأة أو الّذي بيده عقدة النّكاح.

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾: إذا عفا الإنسان عن حقّه فهو أقرب للتّقوى، ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٤]، والتّقوى هي جماع كلّ الخير، لذلك قلنا: إنّ الأُسر الإسلاميّة بُنيت على تقوى الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾: الفضل هو فوق العدل، دائماً الفضل هو الزّائد، ونحن ندخل الجنّة بفضل الله سبحانه وتعالى، ولا ندخلها بموجب حسنات أعمالنا، وكلّ ما نفعل من حسنات لا تتساوى أمام نعمة واحدة من نعم الله علينا، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس]، إذاً هو فضل، والفضل فوق العدل، والمولى سبحانه وتعالى يذكّر الرّجل والمرأة، يذكّر الأسرة عند الشّقاق وعند الطّلاق أن لا ننسى الفضل، ليست القضيّة فقط قضيّة عدل بالنّسبة للحقوق بين الرّجل والمرأة، لكنّها

أرفع وأسمى وأعلى وأعظم في بناء العلاقات الإنسانيّة وفي بناء علاقات الزّواج بين الرّجل والمرأة، والحفاظ على حقوق المرأة والطّفل والرّضيع، فذكّر الله ﷻ النّاس في ختام هذه الآية بأن يشيع الفضل بينهم وهذا هو المطلوب.

(الآية ٢٣٨) – ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾:

كانت الآيات تتحدّث عن الطّلاق ثمّ دخلت آية لا تتعلّق بأحكام الأسرة ولا بأحكام الطّلاق، وإنّما هذه الآية تتعلّق بالصّلاة: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، فلو كان القرآن من وضع إنسان فإنّه يتوخّى أن يكون هناك تسلسل في المواضيع، هذا لو كان من لدن بشر، فأمّا وأنّه إعجاز وهو من ربّ البشر، فالسّياق يختلف؛ لأنّ هناك وحدة في التّكاليف الإيمانيّة أوّلاً، وطالما أنّ الحديث عن الطّلاق وهو أبغض الحلال عند الله، وطالما أنّ الطّلاق يؤدّي إلى تنافر وإلى شقاق، فيحتاج المجتمع وتحتاج المرأة ويحتاج الرّجل وتحتاج الأسرة إلى السّكينة أمام هذا الشّقاق، فما الّذي يحقّق السّكينة في المجتمع ويُسبل ثوب القبول والاطمئنان والرّضى على الإنسان؟

إنّها الصّلاة، لذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر كان يفزع إلى الصّلاة، وكان يقول: «**يا بلال، أقم الصّلاة، أرحنا بها**»(١)، إذاً أرحنا بها من كلّ هموم الحياة، فكيف إذا كان الهمّ هو همّ انفصام عرى الأسرة، ومشاكل بين الرّجل والمرأة، ومشاكل داخل الأسرة، فإذاً لا بدّ من اللّجوء

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، الحديث رقم (٤٩٨٥).

إلى الله ﷻ الّذي شرع الطّلاق وشرع أحكام الطّلاق، لنعيد التّوازن إلى النّفوس فيعود الاطمئنان إلى قلب الرّجل والمرأة.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾: حافظوا ولا تضيّعوا، هنا خاصّ وعامّ، الصّلوات عامّ، والصّلاة الوسطى خاصّ، إذاً هي ضمن الصّلوات طالما هي الصّلاة الوسطى، عندما يأتي العامّ والخاصّ ويكرّر الخاصّ ضمن العامّ ماذا يعني ذلك؟ ومثل ذلك في سورة (نوح): ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾ [نوح]، هذا الخاصّ دعوة للأب والأمّ تكرّر ثلاث مرّات دخلوا في ثلاث حالات، الحالة الأولى تدعو: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾ طبعاً الأب والأمّ إذا دخلوا البيت مؤمنين انطبق عليهم أيضاً: ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ إذاً تنطبق ثلاث مرّات، دخل الخاصّ ضمن العامّ، وهكذا أيضاً: الصّلاة الوسطى، ماهي الصّلاة الوسطى؟ أطلقها المولى وأبهمها ولم يحدّد ماهي الصّلاة الوسطى. نحن نعلم أنّ الصّلوات خمس فإذا كان بالعدد فالصّلاة الوسطى هي العصر؛ لأنّ الصّلوات هي صلاة الفجر وصلاة الظّهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العشاء، إذاً الوسطى هي العصر. وإذا كان بعدد الرّكعات فالصّلاة الوسطى هي المغرب؛ لأنّه ثلاث ركعات، فهي الوسطى بين الرّكعتين والأربع ركعات؛ لأنّ كلّ الصّلوات إمّا ركعتان أو أربع، الفجر ركعتان، الظّهر والعصر والعشاء أربع، بقي المغرب، فقد يكون المغرب هو المقصود بالصّلاة الوسطى.

وقد تكون صلاة الظّهر وذلك إذا حُسبت بنزول القرآن، أو بالوقت الّذي فُرضت فيه الصّلاة، أي أوّل صلاة بدأت.

المهمّ أنّ الله ﷻ أبهم ليعمّم حتّى لتتوقّع أن تكون الصّلاة الوسطى في كلّ الصّلوات، فكأنّك تحافظ على الصّلوات جميعاً، وأنت تحرص على الصّلاة الوسطى وأنت تتوقّع أنّ كلّ الصّلوات هي الصّلاة الوسطى، والأرجح أنّها صلاة العصر، باعتبار أنّها هي وسط بالنّسبة للخمسة.

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾: القنوت هو الاستمرار في الشّيء، أي أنّ الصّلاة ليست هي حركات وحسب، وإنّما هي خشوع وحضور قلب وقنوت لله والمحافظة عليها وإقامة الصّلاة: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ [الإسراء]، لم يقل: أدِّ الصّلاة، بل قال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. فإذاً الصّلاة كما قال ﷻ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون]، فالخشوع وحضور القلب هو من القنوت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.

(الآية ٢٣٩) - ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩﴾:

﴿فَرِجَالًا﴾ أي راجلين.

﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ﴾: صلاة الخوف وأحكام صلاة الخوف معلومة بالنّسبة للحرب.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾: وتحقّق الأمان. وسنأتي على تفصيل أحكام صلاة

الخوف عندما ترد معنا صلاة الخوف في الآيات اللّاحقة من سورة (النّساء).

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾: فذكر الله عمدة كلّ العبادات، يعني أنت تصلّي حتّى لا تنسى الله، والذّكر هو ضدّ النّسيان، وحتّى تكون مع الله تعالى، إذاً فذكر الله ﷻ هو الغاية وهو الهدف وهو المنطلق وهو الأساس في إقامة كلّ العبادات التي شرعها الله ﷻ، حتّى تعيش مع الله جلّ وعلا وطبعاً هو ممّا امتنّ به علينا، وممّا علّمنا وشرع لنا.

﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾: بهذه الآيات وبهذه الأحكام المتعلّقة بشرائع وأحكام الطّلاق والزّواج والنّفقة والمتعة والعدّة وكلّ ما ورد سابقاً من الآيات، يعود المولى ﷻ هنا يتابع الحديث عن المطلّقات أو المتوفّى عنها زوجها، إذاً فهو قسم الأمر ليبيّن لنا أمرين، الأوّل: وحدة التّكاليف الإيمانيّة، والثّاني: أنّه بذكر الله يعيش الإنسان حياة هانئة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد]، إنّ استدامة الولاء لله هو عنوان الصّلاة، يذكّر المولى ﷻ أثناء هذه الأحكام التي تتعلّق بالشّقاق وبالخلاف الّذي يحدث بين الرّجل والمرأة بأنّ الطّمأنينة والسّكينة تعود إلى النّفس في حالة الصّلاة، إذاً هذا هو السّبب.

(الآية ٢٤٠) - ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٤٠﴾:

كانت عدَّةُ الوفاة فِي ابتداء الإسلام حَوْلاً كاملاً وكان يَحْرُم على

الوارث إخراجُهَا من البيت قبل تمام الحول، وكانت نفقتها وسكنها واجبةٌ فِي مال زوجها تلك السَّنَةَ ما لَمْ تَخرُج، ولم يكن لها الميراث، فإن خرجت من بيت زوجها سقطت نفقتها، وكان على الرّجل أن يُوصِيَ بها، فكان كذلك حتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الميراث، فنسخ اللَّه ﷻ نفقةَ الحَول بالرُّبع والثُّمن، ونسخ عدّة الحول بأربعة أشهر وعشراً.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾: طبعاً عندما نسمع المتعة والمتاع هنا دائماً تتعلّق بالنّفقة، النّفقة على الزّوجة.

﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾: أي: لا يجوز لأحد أن يُخرج المرأة من بيت الزّوجيّة بالإكراه.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾: فإذا خرجت فلا يوجد مشكلة لماذا؟ لأنّ هذه وصيّة، وصيّة الحول الكامل أي السّنة الكاملة وصيّة وصّى فيها بأن يسمح لها بأن تبقى ويوصي الزّوج أن تبقى حولاً كاملاً هنا، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾: فإذا خرجت المرأة بعد العدّة خرجت قبل إتمام العام الكامل فلا يوجد مشكلة في ذلك.

﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾: الأمر الّذي يريد أن يشيعه الإسلام والقرآن هو المعروف وهو الخير في المجتمع، وليس القسر والإجبار على المرأة، من أجل الحفاظ على حقوق المرأة.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: لماذا ذيّل الآية هنا بـ ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؟

كلّ تذييل لآية من الآيات يكون هناك حكمة إلهيّة، هنا تشريع يأمر به المولى ﷻ أنّه لا يجوز عندما يوصي الرّجل بأن تبقى حولاً كاملاً أن تُخرج المرأة، فإذاً هنا دين، الأحكام التي ترد فيما يتعلّق بالطّلاق والعدّة و.. هي دين، وطالما أنّها دين فإذاً الله ﷻ يذيّل الآية: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: أي أنّ الله ﷻ غنيّ عن عبادة خلقه، العزيز هو المستغني عن عبادة خلقه، والعزيز الّذي لا يُغلب، والعزيز هو من تحتاجه ولا يحتاجك، فإذاً هو مستغن عن عبادة خلقه، فإذاً عزيز وحكيم فيما شرع من أحكام لضبط حركة الطّلاق في المجتمع.

(الآية ٢٤١) – ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ٢٤١﴾:

الآية السّابقة ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ٢٣٦﴾ [البقرة: من الآية ٢٣٦]، الآن: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إذاً كلّ المطلّقات بكلّ أنواع الطّلاق لهنّ متاع بالمعروف، أي نفقة للمطلّقة بكلّ أنواع الطّلاق إن كان هناك دخول أو كان لا يوجد دخول، إن كانت المطلّقة حاملاً أو لم تكن حاملاً.. فختم المولى ﷻ آيات الطّلاق بآية واحدة: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ٢٤١﴾ إذاً فرض النّفقة لكلّ أنواع الطّلاق، من يتكلّمون عن حقوق المرأة نحن نستغرب من أنّهم لا يقرؤون كتاب الله ﷻ أو أنّهم يأخذون تفسير القرآن الكريم من غير مصادره الحقيقة، وعلى غير ما أراده الله ﷻ، هناك تراكم موروث ممّا لصق بالمرأة من هضم للحقوق، لا يتعلّق بالشّريعة

الإسلاميّة، وإنّما بأعراف وعادات لمجتمعات مرّت بعد المرحلة الذّهبيّة التي فهم فيها صحابة رسول الله ﷺ عن القرآن وعن سيّدنا رسول الله حقوق المرأة، فهُضمت هذه الحقوق ولم تُهضم من قبل ربّ النّاس، وإنّما من قبل النّاس، ولا بدّ من تصحيح هذه الأفكار في المجتمع.

(الآية ٢٤٢) - ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢٤٢﴾:

ونبيّن للنّاس الذين يعتقدون بأنّ الإسلام هو وراء كلّ هضم لحقوق المرأة في المجتمعات الإنسانيّة.

إذاً كذلك كلّ ما مرّ سابقاً من آيات تتعلّق بأحكام الأسرة والزّواج والطّلاق ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إشارة لما ورد سابقاً من أحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ لأنّ ديننا دين العقل، وليس دين القتل، هذا ما يجب أن يفهمه النّاس جميعاً، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: إذا حاكمنا الأمر عقليّاً نجد بأنّ مصلحة الإنسان تكون بشرع الله ﷻ، إذا فكّرت بعقلك وهو مناط التّكليف، بالعقل وليس بالسّيف وليس بالقتل، إذاً مناط التّطبيق هو محاكاة العقل والحوار والحكمة.

(الآية ٢٤٣) - ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٢٤٣﴾:

هنا انتقال بعد شقاق اختياريّ بالطّلاق، أو افتراق قدريّ بالوفاة، أتى

القرآن الكريم على أهمّ وأخطر قضيّة قدريّة تتعلّق بالإنسان وهي الموت، ليعطي الطّبيعة الإيمانيّة لمن يتمسّك بهذا الدّين.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الحديث لسيّدنا رسول الله ﷺ، ومن يجري الأقدار لا يتركها بلا أحكام، والله سبحانه وتعالى هو الّذي يجري الأقدار فيضع الأحكام، ولا بدّ منّ أن يبيّن عندما وضع الأحكام طبيعة هذه الأقدار، فأوّل شيء على الإطلاق هو موضوع الموت، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: هو لم ير قطعاً، فلماذا لم يقل: ألم تسمع؟ لأنّ وسيلة العلم هي السّماع عندما تعلم بشيء خبريّ تاريخيّ.

هذه القضيّة هي قضيّة لشعب من بني إسرائيل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ قضيّة لم يرها النّبيّ ﷺ، كما لم ير أصحاب الفيل، عندما كان في بطن أمّه آمنة فقال له الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل]، هو لم ير بل سمع بما حدث، لكن أنت تعرف الأحداث بماذا؟ أنت تتعامل بالحواسّ، فعندما تسمع فأنت تسمع بالحاسّة لكن عندما ترى فالرّؤية أصدق من السّمع، أصدق شيء هو الرّؤية، عندما يكون الله الّذي يتحدّث فهو أصدق القائلين، فالخبر الّذي يأتيك بالرؤية أقوى، الأمر الّذي ترى ليس كالّذي تسمع، قال عليه الصّلاة والسّلام: «ليس الخبر كالمعاينة»[1]، حاسّة الرّؤية تُصدّق أكثر؛ لأنّك ترى، وإذا كان الّذي أخبر هو الله، وهو الّذي خلق الحواسّ، وهو أصدق من الحواسّ، فإذا قال لك شيئاً كان أصدق

(١) صحيح ابن حبّان: كتاب التّاريخ، باب بدء الخلق، الحديث رقم (٦٢١٣).

من أن ترى بعينك، لذلك يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فكأنّك رأيت، أنت سمعت، لكنّك كأنّك رأيت؛ لأنّ الله ﷻ هو الّذي أخبر، وهو الّذي خلق الحواسّ، فهو أصدق من الحواسّ.

إذاً هناك مجموعة وهم ألوف، أعداد غفيرة، حادثة حدثت، نحن نترك العبرة والغاية من الحادثة ونبحث متى حدثت؟ أفي أيّام موسى أم بعدها، أيّام داود، أيّام يوشع، أيّام زكريّا، أيّام مَن؟... المولى ﷻ لم يذكره، وطالما أنّه لم يذكره فإذاً هو أراد وظيفة إيمانيّة من غير أن تعرف من هم، فلا تضيِّق الأمر، عندما يبهم يريد أن يعمّم، فأبهم الأشخاص، وأبهم الزّمان، وأبهم المكان، لم يذكر من هم ولم يذكر الزّمن الّذي تمّ ولم يذكر في أيّ مكان، لماذ؟ هذه قضيّة عامّة، يمكن أن تحدث في كلّ زمان ومكان، وهذا من ميّزات القصّة القرآنيّة أنك عندما تقرأ القصّة فنحن أمام إبهام مثل قصّة أصحاب الكهف: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف]، هذا الإبهام يعمّم، فلم يذكر من هم الفتية؟ ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف]، بأيّ كهف دخلوا؟ لا نعلم من هم الفتية، لا نعلم ما هي أعمارهم؟ نعلم أنّهم فتية، وأنّهم شباب، إذاً هي قضيّة يريد أن تكون عامّة في كلّ زمان، لذلك لم يشخّص الأشخاص ولا الزّمان ولا المكان.

﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾: ألم تر إلى هؤلاء الّذين خرجوا من ديارهم من بني إسرائيل وهم ألوف، لماذا خرجوا؟ إمّا أن يكون بسبب طاعون، وإمّا أن يكون لقتال، أو خوف زلزال، أو أيّ شيء، لم يذكر المولى ﷻ، المهمّ الغاية، خرجوا حذر الموت، سبب الخروج هو الخوف من الموت، فإذاً هنا يعالج قضيّة هامّة جدّاً بأن يعيش الإنسان في حياته وهو في قلق، أنت كما تولد تموت، طالما أنّك ولدت فأنت ميّت، هناك قرار إلهيّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزّمر]، هناك قانون إلهيّ: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨﴾ [الرّحمن]، هناك قدر إلهيّ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: من الآية ١٨٥]، فإذاً الموت لا يُحذر منه، وإنّما يُعدّ له، فالخطأ الّذي ارتكبوه والّذي يريد الله ﷻ أن يعلّم البشريّة عندما قال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [الجمعة]، حيثما فررت من الشّمال أو من الجنوب أو من الغرب أو من الشّرق فإنّه ملاقيك، من كلّ الأماكن هو طريق باتّجاه واحد لا يستطيع أحد أن يتأبّى عليه، ولا يستطيع أحد أن يحدّد زمانه ولا مكانه، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف]، هذا قدر إلهيّ لا اختيار للإنسان فيه، وهو ليس ضمن دائرة الاختيار، لا تستطيع أن تختار في موضوع الموت، يحاول الإنسان أن ينتحر فهل يكون هو من اختار؟! هنا قتل وليس موت، وقد

ذكرنا سابقاً الفارق ما بين القتل وما بين الموت، كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: من الآية ١٤٤]، إذاً الموت مختلف عن القتل، فما هو الفارق بين الموت والقتل؟ الفارق أنّه في الموت تخرج الرّوح، بعد ذلك تنهدم بنية الإنسان، أمّا في القتل فتنهدم البنية ثمّ تخرج الرّوح بتخريب البنية، لكن هو مات بقضاء الله وليس بسيف القاتل:

ومن لم يمت بالسّيف مات بغيره   تعدّدت الأسباب والموت واحد

أمّا الفارق بين إنسانٍ مات وإنسانٍ انتحر -وتعلمون حكم الانتحار- فهذا اعتدى على خلق الله، إن كان على نفسه أو على غيره بقتل الآخر، قال: أنا أُميت، فيأتي بمسدس ويقتل إنسان، هذا ليس إماتة، هذا قتل، هذا تعدٍّ على خلق الله، والله هو الّذي يميت والّذي يحيي، والإنسان مات بأجله لكنّ السّبب في الموت كان القتل، لكن هو لم يستطع ولن يكون له أبداً أن يميت الإنسان إلّا لأنّ الأجل قد انتهى، والدّليل على ذلك المرض، أنت تقول: إنّ المرض هو الّذي أمات، الأجل انتهى لكن السّبب كان المرض، هنا الأجل انتهى لكن السّبب المنهي عنه هو القتل، وهو هدم البنية التي نزلت فيها الرّوح، فإذاً: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر]، فكرامة الإنسان هي بدخول الرّوح إلى هذا الجسد، فأنت حطّمت كرامة الإنسان عندما تقتله، لذلك نحن نقول: إنّ دين الإسلام هو دين الحياة وليس دين القتل، قال تبارك وتعالى: ﴿مَن قَتَلَ

نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: من الآية ٣٢].

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾: عندما خرجوا وهم ألوف حذر الموت قال لهم الله: موتوا، ماذا يعني موتوا؟ هل بيدهم أن يموتوا ويحيوا، لا، إذاً أماتهم فماتوا، إذاً ماتوا بكلمة ﴿كُن﴾ قال لهم الله: موتوا، ثمّ أحياهم، أعطى الأمر ﴿كُن﴾ أيضاً، لماذا أحياهم ولم يؤخّرهم ليوم يبعثون؟

قبل الرّسالة الإسلاميّة وقبل بعثة النّبيّ ﷺ كانت المعجزات تتمّ للأنبياء حتّى يؤمن أقوامهم وحتّى تكون دروساً، وعندما أتت الرّسالة الخاتمة كانت المعجزة القرآن الكريم، فأنت تأخذ منه العبر ممّا جرى سابقاً، فإذاً هي عبرة لكلّ الأقوام، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يُري النّاس الّذين خافوا من الموت أنّ الخوف لا يقدّم ولا يؤخّر، فهو أماتهم ثمّ أحياهم، وماذا أتبع ذلك؟ إذاً أحياهم ليرى الإنسان أنّ قضيّة الموت والحياة بيد الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾ [آل عمران]، فالإنسان المؤمن يخاف من كلّ شيء إلّا من الموت؛ لأنّ الموت بيد الله سبحانه وتعالى، والمؤمن لا يخشى من لقاء الله بل يحبّ لقاء الله ويحبّ الله لقاءه. فأراد الله أن يعطي هذه الرّسالة القدريّة للنّاس جميعاً، بأنّ الموت بيدي فأنا أُميت وأحيي فلا أحد يستطيع أن يميت ويحيي: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾، تذكرون قضيّة البقرة وكيف أنّ الله سبحانه وتعالى قال لهم:

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣﴾ [البقرة]، إذاً رأى النّاس الآيات وهم ألوف ماتوا جميعاً وأحياهم الله سبحانه وتعالى ليُري هذه الحقيقة القدريّة لمن يأتي من بعدهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: الله سبحانه وتعالى يُعامل بالعدل أم بالفضل؟ يُعامل بالفضل، فالفضل دائماً هو الزّائد عن العدل، فأنت لا تستطيع مهما فعلت أن تشكر نعمة واحدة من نعم الله سبحانه وتعالى، حتّى يكون العدل هو الّذي يدخلك إلى الجنّة، فالعمل بالعدل أمّا الرّحمة فبالفضل.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾: كيف تشكر الله؟ بذكر الله وتطبيق أوامره.

(الآية ٢٤٤) – ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾:

إذاً تكاليف إيمانيّة متتاليّة كلّها أوامر وتكاليف إيمانيّة.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: القتال في سبيل الله لا يعني القتال من أجل نشر الدّعوة إلى الله، القتال في سبيل الله عندما كانت الفتوحات الإسلاميّة في زمن الصّحابة كانت من أجل حماية حريّة اختيار النّاس، والآن هو لردّ العدوان كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحجّ]، حتّى لا يقول التّكفيريون والإرهابيّون والقتلة: إنّهم يقاتلون في سبيل الله، وأنّهم يرفعون راية الدّعوة، إن الحكم إلّا لله، من الّذي قال لك: إنّ سبيل ذلك هو القتال؟ من أين شُرع هذا؟ وهذه هي الأحكام، ما يتعلّق بالطّلاق الآيات تُختم بـ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، هل نمسك السّيف

على المرأة ونقول لها: ادخلي في العدّة وإلّا تُقتلي؟ هذا ليس دين إسلام، هذا تشويه لحقيقة الدّين، دين الإسلام رحمة، دين الإسلام محبّة، دين الإسلام عطاء، دين الإسلام لا يمكن إلّا أن يكون الخير للغير.

لماذا جاءت هنا ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟ حتّى الإنسان يحمي وطنه ويحمي عرضه ويحمي ماله، كما قال رسول الله ﷺ: «**من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد**»(١)، حتّى تحمي ذلك ولا تخاف من الموت؛ لأنّ الموت والحياة بيد الله سبحانه وتعالى، لذلك جاءت هذه الآية ومن هذه الآية أيضاً يتفرّع الإنفاق، طالما أنّك لا تخاف من الموت، وتحسب حساب للآخرة، وتعلم أنّ الموت بيد الله، إذاً أنفق؛ لأنّ الإنفاق هو من التّكاليف الإيمانيّة، وهو ركن من أركان الإسلام، والقتال في سبيل الله فيه بذل للنّفس، والإنفاق في سبيل الله سبحانه وتعالى فيه بذل للمال، والمال غالٍ كما النّفس.

(الآية ٢٤٥) – ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٤٥﴾:

القرض هو القطع بالنّاب لشيء شديد، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ فهل تتوقّع وأنت تتعامل بأنّك عندما تعطي الفقير، أو تعطي المحتاج، أو تقرض إنساناً محتاجاً بدون ربا، بأنّك أقرضت الله؛ لأنّ الله هو الّذي استدعاه إلى الحياة؛ ولأنّ الله هو الّذي أعطاك في هذه الحياة، وعلى من أعطاه الله ووسّع

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب الديّات، باب فيمن قُتل دون ماله فهو شهيد، الحديث رقم (١٤٢١).

عليه في هذه الحياة أن يُعطي من استدعاه الله لهذه الحياة، فهو يكون قد أقرض الله ولم يقرض الإنسان، فأيّ عطاء للمحسن والمنفق على الفقراء والمحتاجين والمساكين والأيتام أكبر من أنّه يتعامل مع الله؟!

﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾: لماذا قال: حسناً؟ وقد كان ممكن أن تكون الآية حسب عقلنا (من ذا الّذي يقرض الله قرضاً فيضاعفه..)، لكنّه قال: ﴿حَسَنٗا﴾؛ لأنّك عندما تتعامل مع الله فلا تأتي بمال حرّمه الله، وبعد أن تلعب القمار أو تسرق أو ترتشي تقول: أنا أقرض الله، أنت لا تقرض الله فهذا القرض ليس قرضاً حسناً، القرض الحسن يجب أن يكون من مال حلال، قال ﷺ: «**إنّ الله طيّب لا يقبل إلّا طيّباً، وإنّ الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون]**»[1].

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾: لم يحدّد كم سيضاعفه، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة]، إذاً أنت تتعامل مع الغنيّ، تتعامل مع مَن خزائنه لا تنفد.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾: فإذاً أقرضْ؛ لأنّك ستجد النّتيجة أضعافاً مضاعفة؛ لأنّه هو الّذي يقبض ويبسط عنك الرّزق والمال وكلّ شيء.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصّدقة من الكسب الطيّب، الحديث رقم (١٠١٥).

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾: ذكّرك بموضوع الموت أنّك ستُرجع إليه، وأنّ هذا القرض سيكون أمامك، إن لم تره في الدّنيا فستراه في الآخرة.

(الآية ٢٤٦) – ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾:

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: ربُّ الحواسّ أصدق من الحواسّ إن هو أَخْبَر، ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ كأنّك رأيت بل إخباره جلّ جلاله أصدق من رؤية العين.

﴿إِلَى ٱلۡمَلَإِ﴾: الملأ هم الوجهاء والأشراف الّذين يتصدّرون ويملؤون المجالس، مليء ويتصدّر تعني الملأ.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾: في أيّة أيّام؟ لم يحدّد الله تبارك وتعالى، إذاً بعد موسى عليه السلام، وكان هناك أنبياء عدّة بعد موسى عليه السلام.

﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: ماذا أفهم من هذا؟ أي كان هناك بعد سيّدنا موسى أنبياء لشعب بني إسرائيل، النّبيّ لم يكن مَلِك، كان هناك ملوك يمسكون مقادير الأمور، والنّبيّ فقط لأمور الدّين، فإذاً قالوا للنّبيّ: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذاً نريد ملكاً حتّى نقاتل في سبيل الله سبحانه وتعالى.

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾: هذا ظنّه فيهم؛ لأنّه يعرف شعب بني إسرائيل، كلّما كُتب عليهم شيء يتحجّجون، هذا من معرفته السّابقة بتاريخ شعب بني إسرائيل، الّذي هو وراء كلّ الظّلمات التي تحيط بالعالم.

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾: انتبهوا إلى هذه الجملة وليسمع الجميع، ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ إذاً القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى يبيّن القرآن الكريم بأنّ سببه الإخراج من الدّيار، أي أنّه يتعلّق بالوطن، بسبب الاعتداء على الوطن، نريد أن نقاتل؛ لأنّنا أُخرجنا من ديارنا، إذاً موضوع القتال في سبيل الله تبارك وتعالى ليس للدّعوة إلى الله، ليس من أجل أن يصلّي الإنسان، وأن يزكّي، وأن يقول: لا إله إلّا الله ليصبح مسلماً، فإن كان ليس مسلماً هل نقاتله؟ أُمرنا أن نقاتل المشركين المعتدين، ليس لكونهم مشركين وإنّما لكونهم معتدين، والدّليل قول النّبيّ صلى الله عليه وسلم عام الفتح: «**اذهبوا فأنتم الطّلقاء**»(١)، ولم يقاتلهم، وكلّهم كانوا مشركين.

القصّة القرآنيّة كلّها أهداف؛ لأنّه لم يبيّن مَنِ النّبيُّ، ولا مَنِ القومُ، ولا بأيّ زمان، هم فقط ﴿مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾: أحجم كثير منهم

---

(١) سنن البيهقيّ الكبرى: كتاب السّير، باب فتح مكّة حرسها الله تعالى، الحديث رقم (١٨٠٥٥).

كعادتهم وأعرضوا، ولم يفعلوا كما وعدوا نبيّهم، عندما كُتب عليهم القتال تولّوا وأعرضوا، وكما قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: من الآية ١٣].

(الآية ٢٤٧) – ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٧﴾:

هذه طبيعة شعب بني إسرائيل، والله سُبحانه وتعالى حدّد للنّبيّ من سيكون ملكاً عليهم، ورغم ذلك اعترضوا، أخبرهم أنّ شخصاً من بينهم اسمه طالوت سيكون هو الملك، فكان جوابهم: ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾، لم يكن كما قيل حول هذا الموضوع، لم يكن من نسل بنيامين، ولا من نسل لاوي، لذلك رأوه ليس من نسب معيّن فرفضوا وقالوا: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ انظروا للمقاييس البشريّة، والمقاييس الإلهيّة، يريدون أن يكون له نسب معيّن، ويريدون أن يكون عنده مال، ما زالت طبيعة البشر هي ذاتها حتّى هذا اليوم، يركضون وراء الشّخص الّذي يملك المال، وليس وراء الشّخص الّذي لديه أخلاق أو قيم، إذاً المقياس بالنّسبة لهم مادّيّ، هذا شعب بني إسرائيل، وهذا درس حتّى لا يكون الإنسان الّذي يمتلك المال هو الّذي يمتلك الإنسان، إنّما الإنسان الّذي يمتلك القيم هو الّذي يمتلك الإنسان، وليس الإنسان الّذي يمتلك المال.

قال نبيّهم: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ قوّة علميّة وقوّة ماديّة جسديّة، إذاً بماذا احتجّ النّبيّ عليهم؟ احتجّ بأنّ الله اختار، والاختيار كان بالعلم وبالقوّة النّافعة التي يتحكّم بها العلم، هذه حقيقة ديننا.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾: واسع يعني كلّ ما في هذه الدّنيا تحت قبضة الله وسعة الله، وهو عليم بما ينفع الإنسان.

(الآية ٢٤٨) - ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾:

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ﴾: إنّ الله يريد أن يؤيّد هذا الملك المُختار من عنده بمعجزة تثبت أنّه الملك المرسل، ليس رسولاً بل هو واحد منهم، لكن اختاره المولى سبحانه وتعالى، والمعجزة التي معه: ﴿أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾، معجزة ملكه: ﴿أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ ما هذا التّابوت؟ أين سمعنا عنه؟ عندما خافت أمّ موسى عليه أوحى الله تعالى إليها: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ﴾ [طه: من الآية ٣٩]، إذاً التّابوت الّذي ذُكر في القرآن هو التّابوت الّذي

وضعت أمّ موسى به موسى وألقته في اليمّ، هو أثر من آثار موسى عليه السلام سيأتي به هذا الملك، إذاً آثار الأنبياء وآثار الصّالحين التي حطّمها التّكفيريّون والتي يحطّمون فيها الأضرحة ويحطّمون فيها كلّ ما نراه من آثار إسلاميّة، من الّذي جاء بها؟ من الّذي قال: إنّ ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، عندما يُرى التّابوت الّذي أُلقي فيه موسى وأُلقي بالبحر فإنّ السّكينة والإيمان يملآن كيان الإنسان، كما إنّك عندما ترى القرآن، وعندما ترى شعرة من شعرات النّبيّ صلى الله عليه وسلم فتدخل السّكينة إلى قلبك، عندما ترى خاتم النّبيّ صلى الله عليه وسلم تدخل السّكينة إلى قلبك، عندما ترى المصحف الّذي نزل عليه دم سيّدنا عثمان رضي الله عنه، رغم وجود كلّ المصاحف لكن تصوّر بأنّك فتحت هذا المصحف، وقيل لك: هذا مصحف عثمان الّذي كان بين يديه يقرأ به عندما قُتل، فكيف تكون السّكينة والإيمان؟ إذاً هذه آثار الأنبياء والأولياء والصّالحين تُنزل السّكينة على القلوب، والله يقول ذلك ولسنا نحن الّذين نقول، والوهّابيّة حاربت كلّ هذا، وهذا أكبر ردّ عليهم.

إذاً فآية ملكه أن يأتي بالتّابوت، هذا التّابوت أين هو؟ أين ذهب؟ كان أصحاب سيّدنا موسى وأخيه هارون، من بقي منهم، يبقون آثار موسى وهارون عليهما السلام ويحتفظون بها، فنُقلت من جيل إلى جيل، حتّى فُقدت عندما خرجوا ألوف حذر الموت، فإذ فُقدت كانوا يتطلّعون إلى هذه الآثار، فقال: إنّ الدّليل على ملك طالوت: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ

﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ وبقيّة ممّا ترك آل موسى وآل هارون هي عصا موسى عليه السلام التي ألقاها فإذا هي ثعبان مبين، العصا التي ضرب بها البحر فانفلق، العصا التي ضرب بها الحجر فانفجر منه الماء، هل يُعقل أنّهم تركوها ولم يأخذوها، وهي أثر من سيّدنا موسى؟ إذاً هي كانت موجودة في التّابوت، لكن لننتبه هنا: ﴿ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ التّابوت يأتي لوحده لا يحمله طالوت، يسير لوحده كيف يسير لوحده؟

﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ يسير أمامك وأنت لا ترى الملائكة، لا يحمله طالوت، إذاً يأتي التّابوت هذه آية ملكه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾: في هذا معجزة إن كنتم مؤمنين.

(الآية ٢٤٩) – ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾:

كلّ قصّة لها زمن ولها أحداث ولها أشخاص، لم يحدّد المولى سبحانه وتعالى من هو النّبيّ أو زمن النبيّ، وإنّما بدأت هنا الآيات تبرز بعض الأسماء أمامنا، الاسم الأوّل هو طالوت الّذي آتاه الله سبحانه وتعالى المُلك؛ لأنّ بني إسرائيل هم

طلبوا أن يكون لهم ملك حتّى يقاتلوا، وهذا يبيّن بأنّ هناك نبيّ وهناك مَلِك يباشر مهام وإدارة الأمور الدّنيويّة في ذلك الوقت، لم يتوقف القرآن الكريم عند الزّمن تحديداً من أجل العبرة من القصّة، والقصّة القرآنية في معظم الأحيان لا تهتمّ بشخص بذاته لتأخذ المؤمن إلى الجانب الّذي يريده الله ﷻ وليس إلى الجانب المعتاد عليه من قبل البشر، فالبشر يهتمّون بالبطل، بالشّخصيات، بالزّمن، بالأعداد، بالأماكن.. ولكن الله ﷻ يبهم الزّمان ويبهم المكان ويبهم الشّخصيّات أيضاً إلّا بعض الشّخصيّات، تحديداً عندما لا تتكرّر القصّة، فعندما يذكر فرعون لم يحدّد أهو تحوتمس أم رمسيس الأوّل أم رمسيس الثّاني؟ فرعون ملك من ملوك مصر، وهكذا أصحاب الكهف لم يذكر العدد بل ترك النّاس في حيرة من عددهم؛ لأنّ الغاية ليست هي العدد وليس هو الزّمان وليس هم الأشخاص وليس المكان، العبرة الإيمانيّة التي تتكرّر هي المقصودة، المهم هنا أنّ الله ﷻ اختار لهم طالوت وزاده بسطة في العلم والجسم، وأتت معه آية هي التّابوت وفيه عصا سيّدنا موسى ﷻ.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ ماذا يعني فصل بالجنود؟ يعني رتّبهم كفصول، عندما تقول: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤﴾ [يوسف]، أي عندما انقطعت عن المكان وانفصلت عن المكان الّذي كانت فيه.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ رتّب، بوّب، فصل ترتيب الجنود بمجموعات متعدّدة، ماذا قال لهم طالوت؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾: أيختبر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بنهر من ماء؟ أراد أن يختبر القلّة الّذين سيقاتلون معه أعداءه من المشركين الّذين سيلقاهم، فهو يريد امتحان الجنود الّذين سيعملون بإمرته؟ فماذا قال لهم طالوت؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ إنّ الله ممتحنكم بنهرٍ والقوم عطشى، وكانوا يمرّون في صحراء ولا ماء فيها، فأنتم مُقدمون على مكان فيه نهر، والاختبار هو التّدريب الإيمانيّ، وهو التّدريب الأهمّ؛ لأنّ المدد الإلهيّ لا يأتي إلّا لصاحب مدد، وصاحب المدد يجب أن يكون مهيّئاً إيمانيّاً فكيف يكون الاختبار؟ الاختبار بأنّكم ستُبتلون بنهر أمامكم.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦ﴾: هم في حالة عطش وظمأ شديد، فإذاً يختبر الصّبر؛ لأنّ الصّبر هو العدّة، وهو السّلاح الأساسيّ للنّصر، كيف عرفت أنّ الصّبر هو سلاح النّصر؟ عودوا لمعركة بدر ما هي الآيات؟ ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عمران]، فإذاً الشّرط حتّى يأتي المدد الملائكيّ هو أوّلاً الصّبر، عدّة السّلاح الأساسيّ هي الصّبر، «**واعلم أنّ النّصر مع الصّبر**»(١)، إذاً أراد أن يختبر أهمّ عدّة إيمانيّة وهي الصّبر.

---

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: أحاديث عبد الله بن عبّاس، الحديث رقم (١١٢٦٥).

﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦ﴾: أي من سقط في الامتحان ليس من جنودي، ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦ﴾ إلّا أداة استثناء، يعني أخذ رشفة ماء واحدة بيده، هذا معنى الكلام؛ لأنّه إذا اغترف غرفة بيده هو لا يستطيع أن يروي ظمأ، وإنّما يستطيع فقط أن يبلّ الرّيق في هذه الحركة التي وصفها القرآن بدقّة.

﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾: لم يقل: ومن لم يشربه؛ لأنّه هو أصلاً منع الشّرب وإنّما فقط استطعم الماء، فماذا حدث؟

﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾: مرّوا بالنّهر ووقعوا في الامتحان فشربوا، ولم يكترثوا له، هم الّذين كانوا يقولون: إنّهم الفئة المؤمنة، وهم الّذين طلبوا من نبيّهم أن يجعل لهم مَلِكاً ليقاتلوا في سبيل الله، فجعل الله لهم الملك وزاده عليهم بسطة في العلم والجسم، وجاء هذا الملك بأوّل إعداد معنويّ للجنود وهو في الصّبر ففشلوا في الامتحان، هذه طبيعة شعب بني إسرائيل، فشلوا في الامتحان فشربوا منه، لم يأخذوا غرفة بأيديهم لم يستطعموا فقط من الماء بل شربوا منه إلّا قليلاً منهم.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾: فلمّا تجاوز النّهر وانتهى الامتحان، الّذين تجاوزوا النّهر هم الّذين آمنوا وهم الّذين لم يشربوا منه وبقوا مع طالوت.

﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾: الفئة التي لم تشرب من النّهر والتي آمنت والتي سارت مع طالوت وقطعت النّهر إذاً هي

أصبحت على مرأى العين من جنود الأعداء وعلى رأسهم جالوت كما يرد الآن في النّص، قالوا: لا طاقة لنا، عندما رأوا هذا العدد الضّخم وهذه القوّة لجالوت وقوّة الجنود الّذين معه قالوا: لا طاقة، لا يوجد مجال للانتصار عليهم، حتّى الّذين اختبروا بالنّهر سقط قسم آخر منهم عند الابتلاء المباشر وعند بدء المعركة.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾: هناك فئة هي التي أُعدّت إيمانيّاً بشكل حقيقيّ، طبعاً لو أنّنا عدنا بالآيات ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٣]، كان الدّرس القدريّ والدّرس الّذي يُعدّ النّاس أنّ الموت بيد واهب الموت والحياة، بيد الله وأنّ الإنسان يجب أن لا يخاف من الموت، ومن أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، لذلك جاء القِسم الإيمانيّ الحقيقيّ الّذي تدرّب على الإيمان حقيقة هم الّذين يظنّون أنّهم ملاقوا الله، وتفسير ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ هل هم يظنّون أنّهم ملاقوا الله أم هم متيقّنون من ملاقاة الله؟ في التّفسير يوجد حالتين؛ الحالة الأولى يقول المفسّرون: إنّه بمجرّد الظّنّ أنّك ستلاقي الله ستكون مؤمناً وستكون صابراً وقويّاً، وتفسير آخر: الّذين يظنّون أنهم ملاقوا الله أي أنّهم متيقّنون، هنا الظّنّ يعني اليقين.

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾: الميزان العدديّ والسّلاحيّ لا يمكن أن يتوازن مع الميزان الإيمانيّ والإلهيّ، وضعوا

الميزان هكذا لذلك قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الفئة الكثيرة هي الميزان العدديّ والسّلاح جالوت وجنوده هم أقوى وهم أكثر وهم أشدّ وهم أعتى، ولكنّ الباطل مدلٌّ والحقّ مقلٌّ والصّراع عندما يكون بين الحقّ المقلّ والباطل المدلّ فالنّصر للحقّ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]، أمّا الصّراع إذا كان بين باطل وباطل فالأمر يعود للقوّة السّلاحيّة والعدديّة، ولا دخل للقوّة الإيمانيّة بها، لا تتدّخل العناية الإلهيّة بذلك، إذاً عندما يكون حقّ وباطل تتدّخل العناية الإلهيّة.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: إذاً أنت دخلت في معيّة الله تبارك وتعالى بصفة الصّبر، الدّخول في معيّة الله تبارك وتعالى أن تصبر على البلاء: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة].

(الآية ٢٥٠) – ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾:

عندما برزوا وأصبح الأمر قاب قوسين من التّلاحم في القتال ما بين طالوت والفئة المؤمنة من شعب بني إسرائيل، وجالوت والفئة المشركة من أعدائهم لمّا برزوا لهم وأصبحوا في ملاقاتهم قالوا: ما هي الوسيلة التي تثبت الإيمان والصّبر؟ هي تثبيت الأقدام في القتال: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي املأ قلوبنا بالصّبر، ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ كأنّما ينزّل

عليهم الصّبر تنزيلاً، املأ قلوبنا وأرواحنا وأجسادنا صبراً، وثبّت أقدامنا في القتال وفي المواجهة وفي المعركة.

(الآية ٢٥١) - ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾:

اختصر القرآن المشهد وأنهاه بين طالوت وجالوت وبين جنودهما بكلمتين: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمر الله؛ لأنّهم صبروا؛ ولأنّهم اختُبِروا فنجحوا في الإيمان، فملأ الله قلوبهم بالصّبر وثبّت أقدامهم ونصرهم على جالوت وجنوده.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾: هل قتل طالوتُ جالوتَ أم داودُ؟ القرآن الكريم يقول: داود، وهنا أوّل بروز لاسم النّبيّ داود عليه السلام في القرآن الكريم، أوّل بروز له في تاريخ شعب بني إسرائيل، القرآن لم يبيّن أين كان؟ ومن هو؟ الواضح أنّ داود كان جنديّاً من جيش طالوت، الّذي هو جيش شعب بني إسرائيل المؤمن، وداود كان صغيراً بالنّسبة لجالوت، لكن الّذي قتل جالوت القويّ والعظيم والجبّار هو داود، إذاً هنا بدأت مرحلة داود الّذي أصبح بعد ذلك نبيّاً وأصبح ملكاً وأصبحت الجبال يسبّحن معه والطّير وألان الله له الحديد، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ]، ثمّ يأتي سليمان بعد ذلك وهو ابنه، إذاً برز

اسم داود الصّغير الّذي كان في جيش طالوت وقتل جالوت، ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ إذاً بعد أن تربّى التّربيّة الإيمانيّة، وبعد أن صبر، وبعد أن قاتل، وبعد كلّ تلك المراحل، وبعد أن قتل جالوت، آتاه الله المُلك، إذاً هو النّبيّ الملك، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النّمل]، آتاه الله الملك والحكمة وليس فقط المُلك وإنّما إضافة للمُلك الحكمة، وعندما نسمع الحكمة فإنّنا نذكر مباشرة سنّة النّبيّ ﷺ ونذكر دعاء الخليل إبراهيم جدّ داود وجدّ الأنبياء وجدّ النّبيّ ﷺ هو وسيّدنا إسماعيل عندما كانا يرفعان القواعد من البيت: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب]، أي سنّة النبيّ ﷺ.

إذاً آتاه الله المُلك وآتاه الله الحكمة وعلمه ممّا يشاء وسخّر له الجنّ وسخّر له الطّير وألان له الحديد.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾: لهذه الآية آية شبيهة بها في سورة (الحجّ): ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ

﴿صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ [الحجّ: من الآية ٤٠]؛ ما معنى الدّفع؟ الدّفع هو الردّ، الآية ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾؛ لأنّ النّاس مختلفون، ولهم حريّة الاختيار بين الإيمان وبين الكفر، بين الطّغيان وبين العدل، بين الإحسان وبين القتل، بين الخير وبين الشّرّ، وبين الحقّ وبين الباطل، الله جلّ وعلا يدفع هؤلاء بهؤلاء، ولولا ذلك لفسدت الأرض، يدفع الظّلم بالعدل، يدفع الباطل بالحقّ، إذاً هي سنّة التّدافع، هي سنّة نتيجة الاختلاف ونتيجة لحريّة الاختيار؛ لأنّه لو لم يكن هناك حريّة في الاختيار لم يكن هناك فساد في الأرض، لفعل النّاس ما أمرهم الله وكانوا طائعين كالملائكة، إذاً فسنّة التّدافع هي سنّة كونيّة: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ بما للنّاس يد عليه، وليس بما ليس للنّاس يد عليه، لماذا؟ لأنّه مهما كان هناك فاسد هل يستطيع أن يمنع الشّمس أن تشرق؟ ليس له يد على الشّمس، ويُفسد فيما للإنسان يد فيه لذلك: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [الرّوم]؛ لأنّ الصّلاح هو من خلق الله، والفساد من صنع الإنسان، وكلّ فساد في خلق الله هو من خلق الله، وليس من الله، باختصار يجب علينا أن نفهم أمراً، أنّ الله سبحانه وتعالى أنعم على النّاس بكلّ هذه النّعم، بالشّمس وبالقمر وبالهواء وبالأمان وبالغذاء وبالنّبات و.. ولكن عندما تُقابل النّعمة بالمعصيّة يحدث الفساد، وعندما تُقابل النّعمة بالشّكر يكون الصّلاح.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: الله سبحانه وتعالى ذو فضل، والفضل ما يزيد عن العدل، هو ذو فضل على النّاس: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: من الآية ١٨٧].

(الآية ٢٥٢) – ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢﴾:

﴿تِلۡكَ﴾: اسم إشارة للبعيد.

إذاً كلّ القصص التي سبقت قصّة الّذين خرجوا وهم ألوف حذر الموت وقصّة داود وقصة طالوت وقصّة جالوت و.. ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ تلا يعني يتلو كلمة بعد كلمة، هذه هي التّلاوة عندما تتلو القرآن الكريم الكلمة بعد الكلمة، ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ كلمة بعد كلمة كلمة التّلاوة، لم يقل: (قصص الله نتلوها عليك بالحقّ) بل قال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنّ كلمات القرآن هي آيات؛ لأنّ الآية تعريفها في اللّغة العربيّة هي المعجزة، وفي كلّ كلمة في القرآن الكريم معجزة، إذاً أنت لا تقرأ القصص القرآنيّ كقصّة، وإنّما تقرأ القصص القرآنيّ كآية، وهذا هو الفارق بين القصص البشريّ والقصص القرآنيّ، الفارق القصص البشريّ هو قصّة لها عناصر أحداث أشخاص تاريخ زمان، أمّا القصة القرآنيّة فهي آية، فهي معجزة، القرآن الكريم معجز بكلماته، معجز ببيانه، معجز بحروفه، معجز بكلّ شيء.

﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾: لمن الحديث والخطاب؟ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول

الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾، الحقّ هو الشّيء الثّابت الّذي لا يعتريه النّقص، ولا يعتريه التّحريف، ولا يعتريه التّغيير، لذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: من الآية ١٠٥].

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: الله يخاطب النّبيّ ﷺ، وعندما يتحدّث معه عن الآيات المعجزات الدّالات البيّنات والتّابوت الّذي جاء يمشي هكذا وفيه عصا موسى وكلّ هذه المعجزات التي تمّت قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي ما كنّا لنتلوها عليك يا محمّد إلّا لأنّك من المرسلين صاحب رسالة وأيّ رسالة؟ هي الرّسالة الخاتمة والجامعة للبشريّة؛ لأنّ كلّ الرّسالات نزلت على أقوام ونزلت لأزمان، إلّا رسالتك يا محمّد فهي لكلّ الأقوام ولكلّ الأزمان ولكلّ النّاس، لذلك هي رحمة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

❀ ❀ ❀

تمّ بفضل الله تعالى تفسير الجزء الثّاني

الحمد لله الّذي امتنَّ على عبادِه بنبيّهِ المرسَل، وكتابِه المنزَل الّذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفهِ، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ.

اللّهمَّ أعطِنا بكلِّ حرفٍ من القرآنِ حلاوةً، وبكلِّ جزءٍ منه جزاءً، وبكلِّ سورةٍ منه سعادةً، وبكلّ آيةٍ منه أماناً.

اللّهمَّ استعملْ بهِ أبدانَنا، وأطلِقْ به ألسنتَنا، واجعلْهُ حجّةً لنا ولا تجعلْهُ حجّةً علينا.

اللّهمَّ اجعلْنا ممّن يُحَلِّلُ حلاله، ويُحَرِّمُ حرامَه، ويعمَلُ بمُحكَمِه ويُؤمِنُ بمتشابهه، ويتلوه حقَّ تلاوتِه.

سبحانَ ربّك ربِّ العزَّةِ عمّا يصفون، وسلامٌ على المرسلينَ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

❀ ❀ ❀

فهرس

تفسير سورة (البقرة) من الآية: (١٤٢-٢٥٢):

رقم الآية – نصّ الآية **رقم الصّفحة**

١٤٢- ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ
وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ١٤٢﴾ ٩

١٤٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ
عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن
يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ ١٢

١٤٤- ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤﴾ ... ١٦

١٤٥- ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ
بِتَابِعٖ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٖ قِبْلَةَ بَعْضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ ١٨

١٤٦- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنْهُمْ

لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ١٨

١٤٧- ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ ١٨

١٤٨- ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ
جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ ١٩

١٤٩- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ ١٩

١٥٠- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ
فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ ٢٠

١٥١- ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ ٢١

١٥٢- ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ ٢١

١٥٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ ٢٥

١٥٤- ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾
.... ٢٩

١٥٥- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ
وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ ٣٢

١٥٦- ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ ٣٤

١٥٧- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾
.... ٣٥

١٥٨- ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن
يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ ٣٦

١٥٩- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي
ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ ٣٩

١٦٠- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ ٣٩

١٦١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ
وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ ٤١

١٦٢- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ ٤١

١٦٣- ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ ٤١

١٦٤- ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي
ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ
مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ ٤٤

١٦٥- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا
وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥﴾ ٤٩

١٦٦- ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ
ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ ٥٢

١٦٧- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ
يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ ٥٣

١٦٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ
إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ ٥٣

١٦٩- ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾
.... ٥٥

١٧٠- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ
كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ ٥٦

١٧١- ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ
بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ ٥٧

١٧٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن
كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ ٥٨

١٧٣- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ
ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ ٦١

١٧٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا
قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ ٦٤

١٧٥- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ
أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾ ٦٧
١٧٦- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي
شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾ ٦٨
١٧٧- ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ
ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ
ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ ٦٩
١٧٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ
وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ
ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾
.... ٨٢
١٧٩- ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ ٨٦
١٨٠- ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ
وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ ٨٨
١٨١- ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٞ ١٨١﴾ ٩٠

١٨٢ – ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ١٨٢﴾ ٩٠

١٨٣ – ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ ٩٢

١٨٤ – ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ
أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ
خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾ ٩٨

١٨٥ – ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ
وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ
سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ
وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾ ١٠١

١٨٦ – ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ
فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ ١٠٤

١٨٧ – ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ
لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا
عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ
يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى
ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ١١٢

١٨٨- ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ
لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ١١٧

١٨٩- ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟
ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ١٢١

١٩٠- ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ١٢٧

١٩١- ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا
تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ١٣٣

١٩٢- ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ١٣٥

١٩٣- ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ١٣٥

١٩٤- ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ
بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ١٣٦

١٩٥- ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ١٣٩

١٩٦- ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ
يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ
نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ
أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ ١٤٧
١٩٧- ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ
وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ
ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ ١٥٤
١٩٨- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم
مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا
هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ ١٦٠
١٩٩- ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ ١٦٥
٢٠٠- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ
أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ ١٦٧
٢٠١- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً
وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ ١٦٩
٢٠٢- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ ... ١٧٢

٢٠٣- ﴿۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ
عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ ١٧٤

٢٠٤- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا
فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ ١٧٧

٢٠٥- ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا
يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ ١٨٠

٢٠٦- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ
ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ ١٨٣

٢٠٧- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ
بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ ١٨٤

٢٠٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ ١٨٥

٢٠٩- ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ ١٩٢

٢١٠- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ
ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ ١٩٢

٢١١- ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ ١٩٦

٢١٢- ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾ ١٩٩
٢١٣- ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ
أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟
فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ .. ٢٠٢
٢١٤- ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ
ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ
إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ ٢٠٥
٢١٥- ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ ٢٠٧
٢١٦- ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ ٢١٩
٢١٧- ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ
وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ
ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

.... ٢٢٢
٢١٨- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ
رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ ٢٢٧
٢١٩- ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ
وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩﴾ ٢٢٩
٢٢٠- ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن
تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ
لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾ ٢٣٧
٢٢١- ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ
أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ
أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ
وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾ ٢٤٣
٢٢٢- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا
تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ ٢٤٧
٢٢٣- ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾ ٢٤٩
٢٢٤- ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ

وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾ ٢٥١

٢٢٥- ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
حَلِيمٞ ﴿٢٢٥﴾ ٢٥٦

٢٢٦- ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿٢٢٦﴾ ٢٥٧

٢٢٧- ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٧﴾ ٢٥٧

٢٢٨- ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ
أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ
إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٢٦٣

٢٢٩- ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ
ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ
ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ٢٦٩

٢٣٠- ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ
أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ
يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ٢٨٣

٢٣١- ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ

بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا
تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ ٢٨٥
٢٣٢– ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا
تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ
لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ ٢٨٨
٢٣٣– ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى
ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ
بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا
وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم
مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ ٢٩٠
٢٣٤– ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ
فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ ٢٩٦
٢٣٥– ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْۚ
عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا
مَّعْرُوفًاۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ ... ٢٩٨
٢٣٦– ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ

وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾ ٣٠١
٢٣٧- ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا
فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ
وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ ٣٠٣
٢٣٨- ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾
.... ٣٠٤
٢٣٩- ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم
مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾ ٣٠٦
٢٤٠- ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم
مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ
أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾ ٣٠٧
٢٤١- ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾ ٣٠٩
٢٤٢- ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾ ... ٣١٠
٢٤٣- ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ ٣١٠
٢٤٤- ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾ ٣١٦
٢٤٥- ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ

يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ٣١٧
٢٤٦- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ
ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن
دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ
عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ٣١٩
٢٤٧- ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ
يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ
مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ
وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ ٣٢١
٢٤٨- ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ
سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ
تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾
.... ٣٢٢
٢٤٩- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ
مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ
بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ

أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ
وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ٣٢٤
٢٥٠- ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ
أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ٣٢٩
٢٥١- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ
ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم
بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾
.... ٣٣٠
٢٥٢- ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ٣٣٣
تضرّع ودعاء ٣٣٥
فهرس: ٣٣٧

❀ ❀ ❀